الدكتور محمود محمد الطناحي

مدخل إلى

تاريخ نشر التراث العربي

مع محاضرة عن

التصحيف والتحريف

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

هـــذا الكـتـاب

لهذا المدخل الموجز غايةٌ . ومِن ورائه مَطْلَب :

أما الغاية: فهى الكشف عن جهود الأفراد والهيئات فى نشر التراث العربى وإذاعته ، داخل الوطن العربى وخارجه ، منذ ظهور المطبعة العربية أوائلَ القرن السادس عشر الميلادى إلى يوم الناس هذا . فإن هذه الظاهرة الخطيرة – ظاهرة تصوير الكتب – كادت تغتال تاريخ الرجال اغتيالا ، حين أغفلت زمان ومكان الطبع ، وتمادت فأسقطت اسم المحقّق والناشر معاً . وبذلك حِيلَ بين أبناء هذا الجيل وبين معرفة جهاد أسلافهم الذين مَهَدُوا الطريق ، وسلكوا دُرُوباً مضنية ، واحتملوا عناءً باهظا ، وأظهرونا على مداخل هذا التراث ومساربه .

وسوف تفيد معرفة تاريخ نشر التراث العربىّ أيضا ، فى إدراك فَرْق مابين الطبعات ، لكى تقوم دراستنا للتراث على أساس صحيح متين .

وقد جمع المؤلف مادّة هذا المدخل الموجز ، من خلال اتصاله بالتراث العربىّ ، ذلك الاتصالَ الوثيق : ناسخاً ومفهرسا وقارئا ومحقّقا ، وباحثا بمعهد المخطوطات ومشاركا فى بعثاته وأسفاره ، ثم من خلال تلقّيه ومشافهته لأكابر المحقّقين والورّاقين ، داخل مصر وخارجها .

وأما المَطْلَب : فهو أن ينشط علماء كلِّ بلد ، له فى نشر التراث تاريخ ، إلى جمع جهودهم فى ذلك ، ثم تأتى من بعد ذلك هيئة كبرى مثل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، فتجمع هذه الجهود وتخرجها لنا كتاباً نقرأه ، يكون فيه نفع وغناء .

وقد ألحق المؤلف بهذا المدخل محاضرة عن التصحيف والتحريف ، تلك القضية التى تُعَدّ من أخطر القضايا فى تراثنا العربى ، سجَّل فيها تجاربه الخاصّة التى يحاول فيها أن يُعلِّل لحدوث تلك الظاهرة ، ويردّها إلى أسباب أخرى غير تشابه الحرف العربىّ وخلوّه من النقط والإعجام .

الدكتور محمود محمد الطناحي

مدخل إلى

تاريخ نشر التراث العربي

مع محاضرة عن

التصحيف والتحريف

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى

مكتبة الخانجى

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ = ١٩٨٤ م

مطبعة المدني

المؤسسة السعودية بمصر

٦٨ شارع العباسية – القاهرة ت : ٨٢٧٨٥١

الإهداء

إلى هؤلاء الأعلام

أحمد محمد شاكر
محمود محمد شاكر
عبد السلام محمد هارون
السيد أحمد صقر
عبد العزيز الميمني الراجكوتي
أحمد راتب النفاخ

الذين قاموا على حراسة العربية
وجاهدوا في سبيلها
وكشفوا عن جوانب فذة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وسيد المرسلين . اللهم صلّ وسلّم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته أجمعين ، ومن دعا بدعوته وتمسَّك بسنّته إلى يوم الدين .

ثم أما بعد :

فهذان موضوعان يتصلان بتحقيق النصوص ونشرها ، وكنت على أن أفرد كلاًّ منهما ببحثٍ جامعٍ محيط ــ إذ كان مجال القول فيهما واسعاً ، والحاجةُ إلى إشباع الحديث عنهما ماسَّة ــ لولا رغبة كريمة من بعض إخوانى ، لأن أعْجَلَ وأُخرجَ ما بيدى منهما الآن ، وقد استجبت لتحقيق تلك الرغبة ، يدفعنى إلى ذلك أمران :

أوّلهما : أن كلية اللغة العربية ، بجامعة أم القرى ، بمكة المكرمة ، عهِدَتْ إلىَّ تدريسَ مادة « تحقيق النصوص » على طلبة الدراسات العليا ، فكان واجباً علىَّ أن أسرع بإعداد مادة علمية ، يكون للطلاب فيها غناءٌ ونفع .

والأمر الثانى : أننا فى زمن : الصَّوارفُ فيه جَمَّة ، والعزائم فيه مسترخية ، ولا خير فى عزم بغير حزم ، وقد نتحمَّس لشىء مّا ، ثم تأخذُنا عنه الحياةُ أخذا ، وتلفِتنا عنه التفاتا ، وقد كنا نقرأ فى كتب الأوائل أن سوقَ العلم كسَدت ، وكنّا نردُّ هذا إلى مبالغات الأقدمين ، حتى رأيناه عِيانا ، وعشناه واقعاً ملموسا ، إلى ما يشيع فى زماننا هذا من الإسفاف والادّعاء ، والجَوْرِ وعدم الإنصاف ، وبالله نستدفع البلايا .

والموضوعان اللذان يعالجهما هذا البحث المتواضع ، هما : مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى ، وقضية التصحيف والتحريف . وقد يبدو الجمع بينهما قلقا متباعدا ، ولكنى أردت بهما تلبية حاجةٍ لطلبة الدراسات العليا العربية ، لم أجدها فيما كتب عن تحقيق النصوص . نعم عرض شيخنا العلاَّمة عبد السلام هارون للتصحيف والتحريف ، فى كتابه « تحقيق النصوص ونشرها » (١) ، ثم تحدث عن إحياء التراث فى كتابه « التراث العربى » ولكنَّ طبيعة الأمر كانت تقتضى منه الوجازةَ والاختصار .

---

(١) من تمام الفائدة أن أشير إلى من كتبوا فى فنّ تحقيق النصوص . فأول من ارتاد الطريق شيخُنا الأستاذ عبد السلام هارون ، فى كتابه « تحقيق النصوص ونشرها » ، وقد صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٤ م ، وهو كما قال بحق : « أول كتاب عربىّ فى هذا الفن يوضح مناهجه ويعالج مشكلاته » . وكان المستشرق الألمانى برجستراسر قد ألقى محاضرات فى أصول نقد النصوص ونشر الكتب على طلبة قسم اللغة العربية ــ الدراسات العليا ــ بكلية الآداب (جامعة القاهرة) سنة ١٩٣١ ــ ١٩٣٢ م ، ولكن هذه المحاضرات لم تطبع إلاَّ عام ١٩٦٩ م ، بدار الكتب المصرية ، بعناية الدكتور محمد حمدى البكرى . ثم كتب الدكتور صلاح الدين المنجد ، فى ذلك شيئا نشره فى العدد الثانى من مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة ، ثم نشره بعد ذلك مستقلا ببيروت . وتحدثت الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) فى المبحث الثالث ، من كتابها « مقدمة فى المنهج » عن توثيق المخطوطات والمصادر ، وتحقيق المتن ، ودراسة النص . وتكلم الدكتور شوقى ضيف ، فى الفصل الثالث من كتابه « البحث الأدبى » على التوثيق والتحقيق . والجديد فى هذا البحث ــ كما يقول الصديق الدكتور أحمد مطلوب ــ « أن المؤلف استفاد من تجاربه فى تحقيق الكتب ، وضرب الأمثلة من كتبه ، وبذلك كان أكثر دقّةً ممن لم يعانوا مصاعب التحقيق » . وأخرج الدكتور نورى حمودى القيسى والدكتور سامى مكى العانى كتاب « منهج تحقيق النصوص ونشرها » ، واعتمدا على القواعد العامة التى وضعها السابقون ، وعلى تجاربهما فى هذا الميدان . وكان المرحوم الدكتور مصطفى جواد ، قد ألقى سنة ١٩٦٥ م ، على طلبة الدراسات العليا (دائرة اللغة العربية) بجامعة بغداد ، محاضرات فى تحقيق النصوص ، =

ويفيدنا تاريخ نشر التراث العربى فائدتين : الأولى معرفة تاريخ العلماء والرجال الذين مَهَدُوا الطريقَ لنا ، وسلكوا دروباً مضنية ، واحتملوا عناءً باهظا ، وأظهرونا على مداخل هذا التراث ومساربه ، حين قاموا على نشره وإذاعته .

والثانية : معرفة فَرْق ما بين الطبعات ، فإن كثيرا من كتب التراث قد طبع أكثر من طبعة ، وتتفاوت هذه الطبعات كمالاً ونقصا ، وصحّة وسقما . وعلى سبيل المثال فإن كتاب « طبقات فحول الشعراء » لابن سلام ، قد طبع عِدَّة طبعات لاخَيْرَ فيها ، وقد أكلتْها جميعاً طبعةُ شيخ العربية الأستاذ محمود محمد شاكر ، حفظه الله . وكتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، طبع غير طبعة ، وأعلى طبعاته وأكملُها طبعة الأستاذ الدكتور إحسان عباس ، التى نشرتها دار صادر ببيروت عام ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م . وكتاب « طبقات الشافعية الكبرى » لابن السبكى ، طبع طبعتين : الأولى بالمطبعة الحسينية بمصر عام ١٣٢٤ هـ ، فى ستة أجزاء ، والثانية بمطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر عام ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٤ م ، وهذه هى الطبعة الكاملة الموثَّقة ، وقد جاءت فى عشرة أجزاء ، وقام على تحقيقها الدكتور عبد الفتاح

=وقد قام أحد طلاّبه النجباء ، وهو الأستاذ عبد الوهاب محمد العدوانى بنشرها ، فى مجلة المورد البغدادية ــ العدد الأول من المجلد السادس ، ١٣٩٧ هـ = ١٩٧٧ م ، بعنوان « أمالى مصطفى جواد فى فن تحقيق النصوص » . راجع « نظرة فى تحقيق الكتب ــ علوم اللغة والأدب » للدكتور أحمد مطلوب . مجلة معهد المخطوطات . المجلد الأول ــ العدد الأول . الكويت ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م . ثم كتب الدكتور عبد الهادى الفضلى ، كتاباً فى هذا الفنّ . نشره منذ سنتين بجدّة . بعنوان : تحقيق التراث .

محمد الحلو ، ومحمود محمد الطناحى . و « ديوان ذى الرمّة » طبع أكثر من مرة ، ولكن أكمل طبعاته وأوثقها تلك التى نشرها الدكتور عبد القدوس أبو صالح ، فى مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م بعد أن حصل بها على شهادة الدكتوراه من جامعة القاهرة .

وما أشبه العنايةَ بفَرْق ما بين الطبعات ، بالعناية بفَرْق ما بين نُسَخ الكتاب المخطوط ، فقد جرى القدماء والأثبات من المحققين المعاصرين على اعتبار منازل نُسَخ الكتاب المخطوط ، فقدَّموا نسخة المؤلف التى كتبها بيده ، على سائر النسخ ، ثم تليها النسخة التى أملاها على تلاميذه ، أو أجازها ، أو اطّلع عليها ، ثم يأتى فى مرتبة بعد ذلك النسخةُ المنقولة عن واحدة من تلك النُّسَخ ، أو تلك التى كتبها أحد العلماء ، أو قرئت عليه ، أو ثبت عليها خطُّه بالقراءة أو التملك ، فإذا عدمنا ذلك كلَّه كان المعيار هو قِدَمَ تاريخ النَّسْخ ، مع الاطمئنان إلى الصحة والسلامة .

وعوداً على بدء ؛ فإن طلبة العلم مطالبون بمعرفة فرق ما بين الطبعات ، حتى تقوم دراساتهم على أساس صحيح متين ، وحتى تمضى إلى ما يراد لها من كمال ونفع ، ولكنّ طلبةَ العلم فى هذه الأيام يجهلون معرفة تاريخ نشر التراث جهلاً يوشك أن يكون تاما ؛ لأن الجامعات العربية لا تكاد تعنى بتأصيل هذا الجانب عند الطلاب .

وليت الأمر قد وقف عند حدّ جهالة الطلبة بفَرْق ما بين الطبعات ، بل إنه قد تعدّاه إلى ما هو أكثر فظاعة وأشدّ نكرا ، وهو ما تراه من تلك المذكّرات والمختصرات التى يُمليها أساتذة الجامعات على طلبتهم ، أو يطبعونها ويضعونها بين أيديهم ، ويكون ذلك هو سبيلَهم الوحيد لتحصيل العلم والمعرفة ، وبذلك حِيل بين طلبة العلم وبين الكتاب القديم بمرَّةٍ واحدة ، وضُرب بينهم وبين جهود الأقدمين بسُورٍ له باب ، ظاهره الرحمةُ بهم

والتيسير عليهم ، وباطنه التضييقُ عليهم وتفريغُ عقولهم . ولم يبق للطلبة من معرفة بالكتب ومدارستها إلاّ بابُ الدراسات العليا ، وهو باب ضيِّق كما عرفتَ .

وحتى هؤلاء الذين وصلوا إلى الدراسات العليا ، وسلكوا سبيلَها ، لم يُتَحْ لهم أن يتصلوا بالمكتبة العربية ، ذلك الاتصالَ الواعىَ ، الذى يعُينهم على جمع مادَّتهم العلمية من أوثق مصادرها وأضبطها . ولن يتمّ هذا إلاَّ بمعرفة مَسَارِ التأليف العربى ، وإدراك العلائق والوشائج بين فنون التراث المختلفة ، ثم بين المصنَّفات داخلَ الفنّ الواحد .

ولم يحدُث هذا ، وإنما شُغِل طلبةُ الدراسات العليا بذلك الحديث العامّ الغامض ، عن التفكير الموضوعى ، ومناهج البحث العلمى ، والفرق بين المنهج التاريخى ، والمنهج الوصفى ، والمنهج المعيارى ، والمنهج الاستردادى ، والعمق فى التناول ، والبعد عن الأفكار المُسَطَّحة ، وما تبع ذلك من ألفاظ : المعاناة ، وتعصير [(١)] التراث ، إلى آخر هذه القائمة التى يصدق عليها ما قاله ابن الطَّراوَةِ الأندلسى ، فى وصف تآليف أبى على الفارسى النحوى : « ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم [(٢)] » . وصارت غاية طالب الدراسات العليا ، أن يستظهر هذه المصطلحات ، ويديرَها فى فمه ، ثم يحسنَ استحضارها ، ويُلقىَ بها فى وجه من يخالفه أو

---

(١) أى جعله معاصرا . وهذه الألفاظ إنما جرت على أفواه أحلاس المقاهى من زعانف الأدباء ثم انتقلت إلى درس الأدب فى الجامعات ، وصار لها هناك مكان ومكانة .

(٢) انظر : ابن الطراوة النحوى ص ٨٨ ، للدكتور عياد الثبيتى . ولا يخفى أن أبا علىّ أجلّ مما قاله فيه ابن الطراوة ، ولكنى استجدت عبارته ، إذ كانت مطابقة لحال القوم .

ينقده ، أمّا قراءة كتابٍ واحدٍ قديم من أوله ، والأخذُ فيه إلى نهايته ، فهذا مما لم يخطر له على بال .

ولا ينبغى أن يظنَّ بنا ظانٌّ ، أننا نهدر قيمة هذه المناهج ، والاهتداء بها ، وتوظيفها فى خدمة البحث ، فإن الباحث فى أىّ فرع من فروع العلم مطالَبٌ بأن ينظّم فكره ، ويخلصه من شوائب الذاتيَّة ، أو ما كان يسمى قديما بالهوى ، ثم هو مطالب أيضا بأن يُخْضِع بحثه لاعتبارات الزمان والمكان ، والتأثير والتأثر ، والنظر والتأمل فى حركة الحياة ، وما تمور به فى أطوارها المختلفة ، مصبوغاً ذلك كلّه بالدقّة والحذر ، فى الفهم والاستنتاج . فهذا حقٌ كلّه ، يوجبه العقل الصحيح ، وتهدى إليه الحكمةُ المركوزة فى الطباع . ولكنّ الذى يهولنا حقّاً ويُفزعنا : أن يكون الاشتغال بهذه المصطلحات باباً من أبواب الثرثرة والادّعاء ، والتنفّخ المفرَّغ من كلِّ حقيقة ، والمُزْرِى بصاحبه ، والمنتهى به إلى ما لا يُغْنى من العلم شيئا .

وحسْبُنا هذا ، ولنَعُدْ إلى ما كُنّا فيه ، من ضرورة العناية بتاريخ نشر التراث العربى ، فإن هذا البلاءَ الذى استشرى فى الأعوام الأخيرة ، والذى تمثل فى تصوير المطبوعات القديمة ، كاد يغتال تاريخَ الناس وجهودَهم اغتيالا ، حين أسقط مكانَ وزمان الطبعة التى صُوِّر عنها الكتاب ، وتمادى الأمر إلى أن أسقطوا اسم المحقِّق أيضا ، ومن ذلك ما رأيته أخيراً ، فى إحدى طبعات بيروت ، من إسقاط اسم العلاَّمة الشيخ أحمد محمد شاكر ، من غلاف كتاب « لباب الآداب » لأسامة بن منقذ ، وكان الشيخ رحمه الله قد نشره بمصر عام ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٤ م . وإلى الله المشتكى !

وللتاريخ نقول : إن الذى فتح هذا البابَ ، ودلَّ الناسَ عليه ، هو الكُتْبى النابه الخبير قاسم الرجب ، صاحب مكتبة المثنى ببغداد ، لكنّا

للإنصاف نقول : إن هذا الرجل كان أميناً كلَّ الأمانة ، وكان حريصا على إخراج الكتاب بصورته الأولى ، من حيث ذِكْرُ محقق الكتاب ، وزمان ومكان الطبع ، ثم هو لم يأكل حقا من حقوق الأحياء أو ورثتهم ، والكتب التى قام بتصويرها أشبه ما تكون بالمخطوطات ؛ لتقادم العهد بطباعتها ، ومعظم ما صور من نوادر مطبعات أوربا القديمة ، وبولاق بمصر ، مثل النقائض لأبى عبيدة معمر بن المثنى ، وشرح المفضلات لأبى محمد القاسم ابن محمد الأنبارى ، وديوان ذى الرمة ، وشرح ديوان المتنبى للواحدى ، والجمهرة لابن دريد ـــ وهذه من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند ـــ والمصاحف لأبى بكر بن أبى داود السجستانى ، والكتاب لسيبويه ، وألف ليلة وليلة . وقد تَغَيَّا بذلك غايةً نبيلة ، هى خدمة الدارسين والباحثين ، الذين يصعب عليهم الحصولُ على تلك الطبعات . رحمه الله رحمة واسعة ، فقد كان من خير الورَّاقين وأنبلهم وأعلمهم فى هذا الزمان .

ولست أزعم أنى سأوفِّى تاريخ نشر التراث العربىّ حقَّه ، إذ كان ذلك مما يحتاج إلى تتبّع واستقصاء كاملين ، وليس ذلك فى طَوْقى ، ولست له بأهل ، ولكن حسْبى أن أضع علاماتٍ وصُوًى على الطريق ؛ تلبية لحاجة المبتدئين من طلاب العلم ، وأيضا فإن الحديث عن تاريخ نشر التراث العربى مُفْضٍ لا محالة ، إلى ذكر شئ عن مناهج المحققين وطرائقهم فى تأدية النصوص وإضاءتها ، وهذا يرجع إلى فن تحقيق النصوص ، ويلتقى مع الكتب المصَّنفة فيه .

وسوف يرى القارئ منى اهتماماً بحركة نشر التراث فى مصر ، لأمور : منها إنشاء المطبعة الأميرية ببولاق ، وقد نهضت هذه المطبعة بعبء ضخم ، ونشرت كثيراً من أصول العلوم ، مما لم يتيسَّر لمطبعة أخرى . ومنها :

وجود الأزهر الشريف بمصر ، وما اقتضاه التدريسُ فيه من نشر الكتب وإذاعتها .

وثالثا : أن مصر كانت منطقة جذب للعلماء وأصحاب المواهب من عرب وعجم ، وقد أعْتَدَتْ لهم مصر مُتَّكئاً ، فأنتجوا وأبدعوا ، وسترى من نشاط الشَّوام فى هذا المجال عجبا .

ورابعا : أنى مصرى ، « وصاحب البيت أدرى بالذى فيه » . ولعل إخوانى من أبناء البلدان العربية الأخرى يَنْهَدُون إلى تسجيل تاريخ النشر فى بلادهم ، ثم تأتى من بعد ذلك هيئةٌ علمية مثل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، فتجمع هذه الجهود ، وتخرجها لنا كتاباً نقرأُه ، يكون لنا فيه نفعٌ وغَناء ، إن شاء الله .

أما الموضوع الثانى الذى يعالجه هذا البحث المتواضع ، فهو « التصحيف والتحريف » وقضية التصحيف والتحريف من أخطر القضايا فى تراثنا العربى ، وقد أثارت هذه القضية عَجاجاً كثيرا جرى فى إثره الراكضون ، حين ردُّوا هذه القضيّة برُمَّتها إلى طبيعة الحرف العربى الذى يتشابه ، وأذكر أنى أطلعت شيخى الجليل محمود محمد شاكر ، ذات يوم ، على تصحيفٍ وقع لى فى بعض ما أحقّقه ، فقال لى : « إنك لم تحسن قراءة المكتوب أمامك فتصحّف عليك » . وهذا هو مفتاح القضية : أن كثيراً مما يتصحف إنما يأتى نتيجة للغفلة ، أو الجهل بتاريخ أمتنا ، وتاريخ رجالها ، وعلومها وكل ما أبدعته وأنتجته .

وبدءة ذى بدء : فإنى أعترف أنى لم أكتب تاريخا جامعاً للتصحيف والتحريف ، ولم أستوف كلَّ أسبابه ومظاهره ، ولكننى سجّلت تجاربى الخاصة فى هذه القضية ، وقد حرصت على إبراز حقيقتين :

أولاهما : أن كثيرا من مظاهر التصحيف والتحريف إنما يرجع إلى الغفلة أو الجهل ، وليس إلى طبيعة اللغة العربية والحرف العربى وحدهما .

والثانية : أن بعض صور التصحيف إنما اصطُنِع اصطناعاً ؛ إظهاراً لمهارة ، أو استخراجاً لضحك ، أو تشنيعاً بمن يُنسَب إليه .

وأمرٌ آخر : أنى أغفلت فى ذكر تجاربى ، اسمَ الشخص الذى صحَّف ــ وبخاصة فى المعاصرين ــ والكتابَ الذى وقع فيه التصحيف ، فليس من غايتى أن أجرِّحَ أحداً ، وإنما غايتى أن أدلَّ على موضع الخطأ ، وأرصدَ الظاهرة ، وأعلِّلَ لحدُوثها .

وبعد : فإن الفضل فى كتابة هذا البحث مصروفٌ كلُّه إلى أخى النبيل سعادة الأستاذ الدكتور عليان بن محمد الحازمى ، عميد كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى ، بمكة المكرمة . فهو ــ وحده ــ الذى استنهضنى لذلك ورغَّبنى فيه ، حين مكَّن لى من تدريس مادة « تحقيق النصوص » بقسم الدراسات العليا العربية ، وقد استحدث ــ حفظه الله ــ تدريس هذه المادة ؛ مُسْتئنِفاً غيرَ مسبوق . فله أصدق الشكر وأخلصه ، مقروناً بالدعاء له بالسلامة والعافية .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الهادى البشير ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن دعا بدعوته وتمسَّك بسنّته إلى يوم الدين .

مكة المكرمة فى غرّة جمادى الآخرة
من عام ١٤٠٤ هـ

وكتب
أبو أروى
محمود محمد الطناحى

بين يدى البحث

التراث الإنسانىّ ليس مِلْكاً لأحد [١] ، والتقاء الحضارات وتبادل الثقافات معروفٌ مشهور ، والتأثير والتأثّر بين الشُّعوب حتمٌ لازم .

وحضارتنا العربية واحدة من تلك الحضارات الإنسانية الشامخة ، وهى حضارة عريقة ، ممتدّة الجذور ، وقد جلاها وكشفها ونمَّاها الإسلام ، حين بزغ فجره على الجزيرة العربية ، ثم امتدَّت فتوحاته ، ودخلت فيه أممٌ كثيرة ، ذاتُ حضارات قديمة ، وقد هجرت هذه الأمم لسانَها القديم ، واتخذت اللسانَ العربىّ أداةَ فِكر وبيان [٢] ، ثم نسيت هذه الأممُ والشعوبُ ما كان يعبد آباؤها من قبل ، حين دخلت فى دين الله أفواجا . ولم يبق مِن فرق بين هذه الأمم والأمة العربية إلاَّ فرقُ اللَّون والدم ، وهو فرقٌ ساقطٌ مُهْدَر فى موازين الدين الجديد والرسالة الخاتمة .

---

(١) يقول أبو سعيد السِّيرافى ، فى مناظرته الشهيرة مع أبى بشر متَّى بن يونس — وكان هذا قد أراد أن يُعلى من شأن ثقافة اليونان ، ومنطق اليونان — : « فإنّ عِلْمَ العالَم مبثوث فى العالَم بين جميع من فى العالَم .... وكذلك الصناعات مَفْضُوضةٌ على جميع مَن على جَدَد الأرض » الإمتاع والمؤانسة ١ / ١١٢ . والجدد ، بالتحريك : ما استوى من الأرض .

(٢) لأبى الفتح ابن جنى هنا كلمة حكيمة ، تشهد لما نحن فيه ، يقول رحمه الله من كلام طويل :

« وذلك أنا نسأل علماء العربية ممّن أصله عجمىّ ، وقد تَدرَّب بلغته قبل استعرابه ، عن حال اللغتين ، فلا يجمع بينهما ، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك ؛ لبُعْده فى نفسه ، وتقدّم لطف العربيّة فى رأيه وحِسِّه . سألت غير مرّة أبا على [الفارسى] — رضى الله عنه — عن ذلك ، فكان جوابه عنه نحواً ممّا حكيته » الخصائص ١ / ٢٤٣ ، وانظر بقية كلامه فإنه عالٍ نفيس .

وقد صار من مكرور القول ومعاد الكلام ، أن الحضارة العربية — فوق أنها أبدعت وأنتجت فى شتّى ضروب العلم والمعرفة — كانت حلقة اتصال بين تراث اليونانية القديمة ، وبين اللاتينية الحديثة ، ممّا مكّن لأوربا أن تُرْسىَ حضارة وتُبدعَ تراثا ، يعيش عليه الناسُ إلى يومنا هذا ، غافلين عن روافده ومصادره ، والدلائل على ذلك كثيرة ، فى مختلف فروع النشاط الإنسانى ، أذكر منها هنا شيئا يتصل بعلم الطب ، وهو دالّ على غيره من ألوان الفنون الأخرى :

فقد كانت مؤلفات الأطباء العرب وتجاربهم جُسوراً عبَر عليها الطبُّ الإغريقى إلى أوربا ، مصبوغاً بالصبغة العربية التى أضافت إليه واستدركت عليه ، وقد اعترف بهذا مؤرخو العلوم ، من المستشرقين وغيرهم :

يقول نيكلسون ، من كلام طويل : « وما المكتشفات اليوم لتُحْسَبَ شيئاً مذكوراً إزاء ما نحن مدينون به للروّاد العرب الذين كانوا مشعلا وضّاءا فى القرون الوسطى المظلمة فى أوربا » .

ويقول البارون كلارادى فو : « إن الميراث الذى تركه اليونان لم يُحْسن الرومان استغلاله ، أما العرب فقد عملوا على تحسينه وإنمائه حتى سلَّموه للعصور الحديثة » .

وقال الطبيب الأوربى دى بور : « كان الطبّ مَيّتاً فأحياه جالينوس ، وكان متفرِّقا فجمعه الرازى » .

وجاء فى كتاب تطور الطبّ ، لوليم أوزلر : « إن العرب أشعلوا سراجهم من القناديل اليونانية ، وبلغت صناعة الطب عندهم حتى القرن الثانى عشر (الميلادى) مكانة وأهمية لا نجد لها مثيلا فى التاريخ » .

ويقول ولز : « إن العرب بلغوا شأواً تفوّقوا فيه على الإغريق ، درسوا

علم وظائف الأعضاء ، وعلم الصحة ، وكانت طرق طبّهم العلمية نظير طرقنا الحاضرة ، ولا نزال نحن إلى يومنا هذا نستعمل كثيرا من عقاقيرهم ، وكان جرَّاحوهم يعرفون التخدير ، ويجرون العمليات الجراحية » .

وقال لكلرك مؤرخ الطب العربى : « لم يكمل القرن التاسع (الميلادى) حتى كان العرب قد ملكوا جميع علوم الإغريق ، فصارت بغداد مركز الحركة العقلية فى العالم ، ثم احتلت طليطلة فى القرن الثانى عشر (الميلادى) المركز الذى كانت تحتله بغداد » .

وقال أيضا : « إنه فى ذلك الوقت حصل حادثان عظيمان ، فى قطبى العالم العربى : أحدهما : الحروب الصليبية التى ساقت إلى الشرق حوالى مليون أوربى . والثانى : هو زحف الأفكار العربية على الغرب عن طريق الأندلس » .

وقالَ كذلك : « إنه كان يوجد بطليطلة تسعون كتابا مترجماً من العربية إلى اللاتينية فى الطب ، منها أربعة لأبوقراط ، وخمسة وعشرون لجالينوس ، والباقى لحكماء العرب والمسلمين » .

ويقول جومار ، وهو أحد العلماء الذين رافقوا نابليون فى أثناء حملته على مصر : أنشىء فى القاهرة منذ ستة قرون عدَّة بيمارستانات ، تضم المرضى والمجانين ، ولم يبق منها سوى مارستان واحد ، هو « مارستان قلاوون » ، وقد صرف عليه مالاً كثيرا ، وأفرد فيه لكل مرض قاعة خاصة ، وطبيب خاص ، يدخله المرضى ، فقراء وأغنياء بدون تمييز ، وكان المؤرَّقُون من المرضى [أى المصابون بأمراض نفسية] يُعزلون فى قاعة منفردة ، يستمعون لألحان موسيقية ، ويدرس بالمستشفى الطبُّ والفقه » .

وقال برايس دافن : « كانت قاعات المرضى تُدفّأ شتاء ، وتبرَّد صيفاً بالمراوح الكبيرة الممتدة من طرف القاعة إلى الطرف الثانى » .

أما عن المستشفيات فى الغرب ، فقد جاء فى كتاب ماكس نوردو : « يستلقى فى فراش واحد ، أربعة أو خمسة ، أو ستة مرضى بأمراض مختلفة ؛ أطفالاً وشيوخا ، ويقدّم الطعامُ للمرضى بمقادير ضئيلة ، فى أوقات غير منتظمة ، وتتراكم الحشرات فى الدار ، وتفسد رائحة الهواء فى قاعات المرضى ، وتبقى جثث الموتى أربعا وعشرين ساعة فى الفراش ، مع الأحياء وذباب الجِيَف ، وكانت حجرات المجانين ملاصقة لمن أجريت لهم العمليات الجراحية » .

ويقول الدكتور الطبيب الألمانى ماكس مايرهوف المتوفى بالقاهرة عام ١٩٤٥ م : « إن الطب الإسلامى قد عكس ضوء الشمس الغاربة فى اليونان ، وتلألأ كالقمر فى سماء العصور المظلمة ، وثمة نجوم سطعت من تلقاء نفسها ، وأضاء سناها ظلمة هذه السماء ، ثم أفل القمر ، وخبا ضوء النجوم فى فجر عهد جديد ... لكن أثرها بقى فى الحضارة حيّاً إلى الآن » (١) .

ومن أبرز المستشرقين الذين أظهروا التأثير العربى فى الحضارة الأوربية المستشرق البلجيكى الأصل ، الأمريكى الجنسية والدار جورج سارتون ، المتوفى سنة ١٩٥٦ م . قالت مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، فى

---

(١) انظر لهذه النصوص : الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب . تأليف لجنة من الأساتذة الأطباء ، وإشراف الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين . المنظمة العربيةِ للتربية والثقافة والعلوم ــ القاهرة . بدون تاريخ ، قصة الطب عند العرب . لأحمد حسنين القرنى . الدار القومية للطباعة والنشر (سلسلة من الشرق والغرب ــ العدد ٤٩) مصر ، بدون تاريخ ، من أعلام الطب العربى ، لأبى الفتوح التوانسى . الدار القومية للطباعة والنشر . مصر ١٩٦٦ م ، من تاريخ الطب عند العرب . للدكتور فهيم أبادير . المؤسسة المصرية العامة للأدوية . مصر ، بدون تاريخ .

وصفه : « أخلص الحبَّ للعرب ولغتهم ، وجلا فضل علمائهم على العالم القديم ، فى تجرد وإنصاف » . ومن أجلّ كتبه : « المدخل إلى تاريخ العلوم » بالانجليزية ، فى خمسة مجلدات ، خصّ تاريخ العلوم عند العرب بجزء وافر منه (١) .

ومن أقوال سارتون : إن بعض المؤرخين يحاول أن يبخس قدرَ ما قدَّمه العرب للعالم ، ويصرِّحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلومَ القديمة ، ولم يضيفوا إليها شيئا . وهذا الرأى خطأ ، وإنه لعملٌ عظيم أن ينقل إلينا العرب كنوزَ الحكمة اليونانية ، ويحافظوا عليها ، ولولا ذلك لتأخّر سير المدنيّة قروناً عديدة » .

ويقول مرّة أخرى : إن العرب كانوا أعظم معلِّمين فى العالم ، وإنهم زادوا على العلوم التى أخذوها ، ولم يكتفوا بذلك ، بل أوصلوها إلى درجة جديرة بالاعتبار ، من حيث النمّو والارتقاء (٢) .

* * *

ويُداولُ اللهُ الأيامَ بين الناس ، فتَتَهاوَى عُروش ، وتسقط دُوَل ، وتتطاول أمَمٌ تريد أن تنقضّ كيداً ومكرا ، وتتعرّض الأمة الإسلامية ؛ مشرقا ومغربا ، لخطوبٍ وفتن كقطع الليل المظلم .

علَى أنى أريد أن أنبّه إلى فكرة واضحة فى ذهنى تماماً ، وأُلحُّ على إبرازها فى كلّ ما أكتب : وهى أن الكوارث التى حاقت بالأمة العربية فى

---

(١) الأعلام ٢ / ١٤٥ ، المستشرقون ص ١٠٦

(٢) وانظر ما كتبه المستشرق الروسى ، كراتشكوفسكى ، عن الحضارة العربية فى أسبانيا ، وانتقال العلم والشعر ، إلى أوربا . فى كتابه : دراسات فى الأدب العربى ص ٥٠ ــ ٧٨ . دار النشر « علم » موسكو ١٩٦٥ م

كلِّ صورها وأشكالها ، لم تصرفْها عمّا هى آخذةٌ فيه من الإبداع وتنمية أسس الحضارة ، ويخطئ كثيرٌ من الدارسين حين يُسرفِون فى تقسيم عصور الفكر العربى ، إلى عصور علوّ ، وعصور انحطاط ، فالمتتبّع لحركة ذلك الفكر العربىّ فى عصوره المختلفة ، يروعه هذا الحشدُ الهائل من العلماء وطلاب المعرفة ، وقد شمل هذا النشاط العالم الإسلامىّ كلَّه ، مشرقه ومغربه ، ولم يفضل عصرٌ أو مِصرٌ سواهما إلاَّ ما يكون من بعض الفروق الهيّنة التى تفرضها طبائع الزمان والمكان ، أما حركة العقل العربىّ من حيث هى ، فلم تخمد جذوتها ، ولم تسكن حِدَّتها ، بتغيّر الحكّام ، أو تبدّل الأيّام ، أو تعاقب الكوارث ، وإن أردت أن تعرف صدق ما أقول فانظر إلى ما اشتمل عليه القرنان ، السادس والسابع الهجريّان ؛ من كبار المفكّرين والعلماء ، مع أن هذين القرنين قد شهدا أعنف هجوم تعرضت له الأمة الإسلامية : الحروب الصليبية ، والغزوة التَّتريّة ، ولقد كان هذا الهجوم الكاسح كفيلاً بالقضاء على هذه الأمة لولا دَفْعُ الله وصيانتُه ، بما أودعه فى روح العقيدة الإسلامية من عوامل النماء والبقاء والازدهار ، واقرأ إن شئت كتابا من كتب التاريخ العامّ ، مثل « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » لابن العماد الحنبلى ، المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ ، وقِفْ عند سنوات الفتن والحروب ، ثم تأمّل نشاط العلماء ، ووفرة التصانيف فيها ، تجدِ الأمر على ما ذكرت لك .

ثم تأمل جيّداً هذا الخبر ، وأرْعِه سمعَك ووَعْيَك :

قال موفَّق الدين عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادى [١] ، المتوفى سنة ٦٢٩ هـ : « رأيت السلطان صلاح الدين ، على القدس ،

---

(١) هو أحد العلماء ، المكثرين من التصنيف ، فى الحكمة ، وعلم النفس ، والطب ، والتاريخ ، والبلدان ، والرحلات ، والأدب واللغة . طبقات الشافعية الكبرى ٨ / ٣١٣ ، والأعلام ٤ / ٦١

فرأيت ملكاً عظيما ، يملأ القلوب روعة ، والعيون محبّة ، قريباً وبعيداً ،سهلاً محبّبا ، وأصحابه يتشبّهون به ، يتسابقون إلى المعروف ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ﴾ (١) . وأول ليلة حضرته وجدت مجلساً حَفِلاً بأهل العلم ، يتذاكرون فى أصناف العلوم ، وهو يحسن الاستماع والمشاركة ، ويأخذ فى كيفيّة بناء الأسوار ، وحفر الخنادق ، ويتفقّه فى ذلك ، وكان مهتمّاً فى بناء سور القدس ، وحفر خندقه ، يتولىَّ ذلك بنفسه ، وينقل الحجارة على عاتقه ، ويتأسَّى به جميع الأغنياء والفقراء ، فيركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر ، ويأتى داره فيمدّ السِّماط ، ثم يستريح ، ويركب العصر ، ويرجع فى ضوء المشاعل ، ويصرف أكثر الليل فى تدبير ما يعمله نهارا ، وكان يحفظ « الحماسة » ويظنّ أن كلّ فقيه يحفظها » (٢) .

أرأيت ؟ هذا قائد من قوّاد المسلمين ، يقود معركة كبرى من معارك الإسلام الظافِرة ، لم تشغله الحربُ المستعرة عن مجلس العلم ، ومذاكرةِ العلماء (٣) . ورُوى أنه كان يحفظ القرآن الكريم ، وكتاب « التنبيه » فى فقه الشافعية ، و « الحماسة » فى الشعر ، وقد سمع الحديث من حافظ الديار المصرية أبى طاهر السِّلفىّ ، بالأسكندرية (٤) .

كذلك لم تشغله أيامه مع الفرنجة وأهل الصَّليب ، عن تصحيح العقيدة ، والقيام بأمر الدين ، فقضى على الفاطميين بمصر ، ثم

---

(١) سورة الأعراف ٤٣ ، والحجر ٤٧

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٧ / ٣٤٧

(٣) وهذا يدلُّك أيضا ، على أن علماءَنا كانوا داخلَ المعركة ، بل إن بعضهم كان يعيش حياته كلها ، وهو على ثغر من ثغور المسلمين . والثغر : موضع المخافة من العدوّ .

(٤) المرجع السابق ٧ / ٣٤٠

أخذ فى نُصْرة السُّنَّة ، وإشاعة الحقِّ ، وإهانة المبتدعة [١] .

وأيضاً فقد كان غياب حاضرة من حواضر العالَم الإسلامى ، عن السَّاحة الفكريّة ، لِفتنٍ أو حروب ، داعياً لأن تقوم حاضرةٌ أخرى بملء الفراغ ، ودعم المسيرة ، كالذى تراه من نشاطٍ علميٍّ فى مصر والشام ، بعد ما حَلَّ ببغداد والأندلس ، فى القرنين السابع والثامن :

إذا سيّدٌ منّا خلا قام سيّدٌ   قؤولٌ لما قالَ الكرامُ فعولُ [٢]

وأمرٌ آخَرُ ، أشدُّ من ذلك وضوحاً فى نفسى ، ولا أملُّ من ذِكره والتأكيد عليه : وهو أن كثيراً من تراثنا قد بقى موفوراً يملأ الخزائن العامة والخاصّة إلى عهدٍ قريب ، وأن ما ضاع منه بسبب غفلة الناس وتفريطهم أكثر ممّا ضاع بسبب عوادى الحروب والأيام ، ودَعْ عنك ما يقال من أن ماء دجلة قد اسودَّ من كثرة ما أُلْقِى فيه من مخطوطات ، أيام غارة التتار ، ففى ذلك من المبالغات ما لا يخفى . وآية ذلك ما تراه فى موسوعات العلماء المتأخرين ، من أمثال جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ، وعبد القادر البغدادى ، صاحب « الخزانة » المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ ، والمرتضى الزَّبيدى ، صاحب « تاج العروس » المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ ، ففى مصنفات السيوطى ، وفى مقدمة الخزانة والتاج ، وفى أثنائهما كتبٌ كثيرة ، لا نعرف لها وجوداً الآن . ولازالت الأيام تظهرنا على مخطوطات نفيسة ، كنا نعدُّها من المفقودات [٣] ، وكم فى الزَّوايا من خبايا !

---

(١) المرجع السابق ٧ / ٣٤٢

(٢) هذا للسموأل ، ونظيره قول حاتم :

إذا مات منهم سيّدٌ قام بعده   نظيرٌ له يغنى غَناهُ ويُخْلِفُ

(٣) أتاح لى عملى بمعهد المخطوطات بالقاهرة أن أقف على شئ كثير من ذلك .

ولكى يعلم القارئ المبتدئ مدى الجهود التى بذلها علماء هذه الأمة العربية المسلمة فى تسجيل تراثها بمختلِف علومه وفنونه ، ولكى يحيط أيضاً بضخامة ما أنتجوه وأبدعوه ــ مخطوطا ومطبوعا ــ أحيله على أبرز ما صنف فى ذلك ، وهى تلك المؤلفات الكُتُبيّة والمكتبيَّة ، وما يُعرف فى أيامنا بالكتب الببليوجرافية ، وهى :

الفهرست لابن النديم المتوفى سنة ٤٣٨ هـ ، وفهرسة ما رواه عن شيوخه أبو بكر محمد بن خير الأشبيلى المتوفى سنة ٥٧٥ هـ [١] ، ومفتاح السعادة ومصباح دار السيادة ، لأحمد بن مصطفى الشهير بطاشكبرى زاده المتوفى سنة ٩٦٨ هـ ، وكشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، لمصطفى بن عبد الله المعروف بالحاج خليفة المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ ، وهو أنفع وأجمع ما كتب فى موضوعه بالعربية ، كما يقول العلاّمة الزركلى ، رحمه الله [٢] . وذيله المسمىّ : إيضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون ، لإسماعيل باشا البغدادى [٣] ، المتوفى سنة ١٣٣٩ هـ ، واكتفاء القنوع بما هو مطبوع ، لإدورد فنديك ، ومعجم المطبوعات العربية والمعرَّبة ، ليوسف إليان سركيس ، المتوفى سنة ١٣٥١ هـ ، وخزائن الكتب العربية فى الخافقين ، للفيكونت فيليب دى طرَّازِى المتوفى سنة ١٣٧٥ هـ ، وقد أحصى فى هذا الكتاب عدد المكتبات العربية فى العالم ، فبلغت نحو ألف

---

(١) ومما يتصل بفهرسة ابن خير هذا : معاجم الشيوخ ، أو المشيخات ، فى المشرق ، وبرامج العلماء فى المغرب .

(٢) الأعلام ٧ / ٢٣٦

(٣) ولا تعوّلْ على كتابه : هديّة العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، فهو قليل النفع كثير الأخطاء .

وخمسمائة مكتبة (١) ، يقدر ما فيها من كتب عربيَة بنحو ٢٦٢ مليون مجلّد (اثنين وستين ومائتى مليون) ما بين مخطوط ومطبوع (٢) .

ومن وراء ذلك كلّه يأتى كتاب تاريخ الأدب العربى ، للمستشرق الألمانى كارل بروكلمان ، المتوفى سنة ١٣٧٥ هـ ، وهو كتاب نافع جدا ، فى الدلالة على أماكن وجود المخطوطات ، ويشبهه ويُرْبِى عليه كتاب تاريخ التراث العربى ، للعالم المسلم التركى محمد فؤاد سزجين ، وقد أصدر منه عدة أجزاء بالألمانية ، وتقوم على ترجمته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض . ونرجو له التوفيق فى إكماله ، فإنه عند تمامه يكون آيةً فى بابه .

وبعد : فقد كان تراثنا العربىّ الإسلامىّ ، فى مسيرته كلِّها ، وفى مظاهر إبداعه كلّه ، قريبا جدّاً من الغرب ؛ عرفه واتصل به ، وأفاد منه ، من خلال قنوات معروفة ، كالجوار والحروب والسِّفارات ، ولذلك حديثٌ طويل ، ليس هذا مكانه ، وحسبك إلماماً به أن تقرأ كتاب « المستشرقون » للأستاذ نجيب العقيقى ، ففيه مَقْنع وبلاغ (٣) .

* * *

(١) انظر تفصيلها فى كتاب تحقيق النصوص ونشرها ص ٣٧ ، ولم يتيسَّر لى كتابُ طَرّازِى نفسه .

(٢) وهذا الإحصاء إنما يرجع إلى سنة (١٩٤٨ م) وهو تاريخ طبع الكتاب ، ومن البديهى أن هذا الإحصاء تعرض بعد هذا التاريخ إلى زيادة كبيرة تحتاج إلى متابعة . انظر التراث العربى ص ١١

(٣) أقول هذا لطالب العلم المبتدئ ، أما القارئ المتمكّن ، فهو قادر ، إن شاء الله ، على أن يجمع أصول هذا البحث .

تاريخ الطباعة العربية

كان إنجازاً حضاريًّا كبيراً ظهورُ المطبعة ، فى القرن الخامس عشر الميلادى ، علَى يد جوتنبرج الألمانى (١٣٩٧ — ١٤٦٨ م) .

ولئن كانت الغايةُ من الطباعة هى تكثيرَ عدد نُسَخ الكتاب ؛ لكى تُتاحَ قراءته لكثير من الناس ، فقد تحققت هذه الغاية بصورة محدودة عند العرب قديما ، بما تمثّل فى كثرة نُسَخ الكتاب المخطوطة ، ورواج صنعة الوراقة والنِّساخة . يذكر الجاحظ أن يحيى بن خالد البرمكى لم يكن فى خزانة كتبه كتابٌ إلاّوله ثلاث نُسَخ ، ويذكر المقريزى أنه كان فى خزانة العزيز بالله ، ثلاثون نسخة من كتاب العين ، للخليل بن أحمد ، ومائة نسخة من الجمهرة ، لابن دريد ، وأنه كان فى خزانة كتب الفاطميين مائتان وألف نسخة من تاريخ الطبرى [١] . وانظر إلى عدد مصاحف القرآن الكريم المخطوطة المحفوظة بمكتبات الدينا ، العامة والخاصة ، ثم انظر إلى عدد النسخ المخطوطة من صحيحى البخارى ومسلم . والمشتغلون بعلم المخطوطات يعلمون أن هناك كتباً ذوات عدد ، كثُرت نُسَخُها كثرةً ظاهرة ، بحيث لا تكاد تخلو منها مكتبةٌ من مكتبات العالَم .

وكان للنُسَّاخ قديما مكان فى الأمصار العظيمة ، والبلدان الكبيرة ، فهم بمثابة المطابع الحديثة الآن ، وكانت لهم أسواق يؤمُّها العلماء ، كما عُرف بعضهم بالمِرانة الغريبة فى النَّسْخ . يروى ابن النديم فى ترجمته ليحيى بن عدىَّ المنطقى النصرانى ، المتوفى ببغداد سنة ٣٦٤ هـ ، أنه كان ينسخ كتب التفسير والكلام ، مع أنه كان من النصارى اليعقوبية ، ويذكر أنه لقيه

---

(١) تحقيق النصوص ونشرها ص ١٨ ، ١٩

وعاتبه على كثرة نَسْخه ، فقال له : من أى شئ تعجب فى هذا الوقت من صبرى ؟ قد نسخت بخطى نسختين من التفسير للطبرى ، وحملتهما إلى ملوك الأطراف ؛ وقد كتبت من كتب المتكلِّمين ما لا يُحْصَى ، ولَعَهْدِى بنفسى وأنا أكتب فى اليوم والليلة مائة ورقة وأقل [١] .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان ظهور المطبعة سنة ١٤٣٦ ، أو ١٤٣٧ م ، على يد يوهان جوتنبرج [٢] ، إيذاناً ببدء عصر جديد ، من انتشار العلم ، والتقاء الحضارات ، وتبادل الثقافات .

ولم تظهر حروفُ الطباعة العربية إلاَّ يومَ أن طبع كاهن دومنيكى اسمه مارتان روث ، سنة ١٤٨٦ م ، بمدينة مينز الألمانية [وهى مدينة جوتنبرج مخترع الطباعة] كتابَ برنارد ده برايد نباخ ، الذى كتبه باللاتينية ، ووصف فيه رحلته إلى الأماكن المقدسة ، وقد ظهر فى هذا الكتاب أول أبجدية عربية كاملة ، مع طريقة النطق بها فى حروف لاتينية .

ولمّا أراد فردينان وزوجته إيزابيلا ، الملكان الكاثوليكيان ، أن يتيحا للأندلسيين المسلمين أن يعتنقوا المسيحية ، كلّف الملك جماعةً من المبشِّرين القيامَ بالتبشير ، فاستدعى المطران فرناندوده تالا فيرا ، رجلاً اسمه خوان فاليرا ، وكلفه أن يطبع كتابين للمبشِّرين الذين يجهلون العربية ،وقد صدر الكتابان فى غرناطة عام ١٥٠٥ م ، وكان عنوان الأول : « وسائل تعلّم قراءة اللغة العربية ومعرفتها » ، وعنوان الثانى : « معجم عربى » بحروف قشتالية .

---

(١) المرجع السابق ص ١٨ ــ ٢١ ، والأعلام ١٥٦/٨ ، وانظر مراجعه .

(٢) تاريخ الطباعة ، للدكتور خليل صابات (دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م) ، والموسوعة العربية الميسرة ص ٦٥٨ ، والمستشرقون ٣٥٧/١ ، لنجيب العقيقى (دار المعارف بمصر ــ الطبعة الثالثة ١٩٦٤ م) .

أما تحفة الطباعة العربية ، فى القرن السادس عشر ، فكانت كتاب « الإنجيل » المطبوع سنة ١٥٩١ م بمطبعة آل مديتشى ، وهو أول مطبوع عربى مصوّر [١] .

وفى إيطاليا انتشرت الطباعة العربية ، منذ أوائل القرن السادس عشر ، فظهرت أول مطبعة عربية ، فى مدينة فانو ، بأمر البابا يوليوس الثانى ، وافتتحها ليون العاشر ، الملك برومية – وكانت له عنايةٌ بعلوم العرب [٢] – سنة ١٥١٤ م ، ومن أوائل ما طبع فى هذه المطبعة سفر الزبور ، سنة ١٥١٦ م ثم ظهرت مطبعة البندقية ، وفيها طبع القرآن الكريم ، أوّل مرّة ، وبعد أن تَمَّ طبعه صُودِرت نُسَخُه ، وقُضِى عليها بدافع تعصّبى ، ثم طبعت أوّل ترجمة إيطالية للقرآن الكريم سنة ١٥٤٧ م .

وفى مطبعة روما سنة ١٥٩٣ م [٣] طبع كتاب « القانون » فى الطب ، لابن سينا ، ومعه علم المنطق ، وعلم الطبيعى ، وكتاب « النجاة » له أيضا ، وكان صدور هذا الكتاب بدايةَ عهد جديد فى دراسة الطبّ .

وطبع القرآن الكريم فى همبورج ، سنة ١٦٩٤ م ، مع مقدمة باللغة اللاتينية ، وفى ليبسك سنة ١٧٦٨ م .

ثم تعدّدت المطابع العربية فى أوربا ، وطبع فيها مئات من الكتب العربية والشرقية ، أكثرها فى لندن وباريس وليبزج وليدن ، وجوتنجن وروما وفيينا ، وبرلين وبطرسبورج [٤] .

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة ص ١١٥٢

(٢) الأعلام ٢١٨/٢ ، ولم يترجم له الزركلى ، وإنما ذكره فى أثناء ترجمة الحسن بن محمد الوزان ، وسيأتى حديث عنه شاء الله .

(٣) وذكر الزركلى فى الأعلام ٢٤٢/٢ ، أنه طبع سنة ١٤٧٦ م

(٤) التراث العربى ، لشيخنا عبد السلام هارون ص ٤٤

أما فى الشرق فكانت الآستانة عاصمةُ الخلافة العثمانية ، أسبقَ مدن الشرق إلى الطباعة ، وطبعت التوراة فيها ، ترجمة سعيد الفيومى ، فى سنة ١٥٥١ م ، لكن هذه الترجمة العربية طبعت بحروف عبرية ، مبالغة فى التعصب (١) . وبعد ذلك تردَّد القوم فى طبع كتب الحكمة واللغة والتاريخ والطبّ والفلك ، التى لم يجرؤ أحدٌ على طبعها إلاَّ بعد صدور فتوى من شيخ الإسلام عبد الله أفندى سنة ١٧١٦ م ، بجواز ذلك ، فيما عدا الكتب الدينية التى استصدرت فتوى أخرى بعدها ؛ لإجازة طبعها ، وتعددت المطابع فى الآستانة ، فكان أشهرها مطبعة الجوائب ، لأحمد فارس الشدياق ، وقد نشر فى هذه المطبعة ، إلى جانب صحيفة الجوائب طائفة صالحة من الكتب العربية (٢) .

وعرف لبنان الطباعة سنة ١٦١٠ م ، على يد رهبان دير قزحيا ، وكان أول مطبوع عندهم « المزامير » بالسريانية والكرشونية ، ثم كانت مطبعة دير ماريو حنّا الصايغ أول مطبعة تطبع بالحروف العربية بلبنان سنة ١٧٣٤ م ، وقد أنشأها عبد الله بن زخريا (الزاخر) ، وأصله من

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥ ــ وأحمد فارس الشدياق ، عالم باللغة والأدب ، ولد بلبنان ، سنة ١٢١٩ هـ = ١٨٠٤ م ، لأبوين مسيحيين ، سمَّياه فارساً ، ورحل إلى مصر ، فتلقى الأدب عن علمائها ، ورحل إلى مالطة ، فأدار فيها أعمال المطبعة الأمريكانية ، وتنقل فى أوربا ، ثم سافر إلى تونس ، فاعتنق فيها الدين الإسلامى ، وتسمى : أحمد فارس ، فدعى إلى الآستانة ، ثم أنشأ بها مطبعة الجوائب ، وأصدر صحيفتها سنة ١٢٧٧ هـ ، فعاشت ٢٣ سنة ، وطبع بمطبعته هذه كثيراً من كتبه وكتب غيره . ومن أشهر تصانيفه : الجاسوس على القاموس ، والساق على الساق فيما هو الفارياق . توفى سنة ١٣٠٤ هـ = ١٨٨٧ م . الأعلام ١٩٣/١

حلب ، وولد على الأرجح فى حماه سنة ١٦٨٠ م ، وابتدأ عملها بطبع كتاب اسمه : « ميزان الزمان » . ثم أنشأ مع أخٍ له مطبعة أخرى ، عرفت باسم مطبعة الشوير ، وكان معظم منشوراتها من الكتب المسيحية . توفى عبد الله هذا سنة ١٧٤٨ م (١) .

ثم ظهرت مطبعة القديس جاورجيوس ، للروم الأرثوذكس ، فى بيروت سنة ١٧٥٣ م ، وطبعت كثيرا من كتب الأدب والتاريخ .

وفى مالطة أنشئت المطبعة الأمريكية للمبعوثين الأمريكان ، سنة ١٨٢٢ م ، وأدار أعمالَها حيناً من الزمان أحمد فارس الشدياق ـــ كما سبق ـــ ثم نقلت إلى بيروت سنة ١٨٣٤ م ، وطبعت كثيرا من الكتب المدرسية ، وطائفة من كتب الأدب والتاريخ ، ودواوين الشعر .

ثم وثبت الطباعة العربية فى لبنان وثبة كبيرة بإنشاء المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، سنة ١٨٥٤ م ، وقد ابتعدت هذه المطبعة عن الصبغة المسيحية شيئا مّا ، وكان لها فضلٌ ظاهر ، فى نشر كثير من أصول اللغة والأدب ، ومن ذلك نوادر أبى زيد الأنصارى ، التى ظهرت طبعتها سنة ١٨٩٤ م ، برخصة نظارة المعارف بالآستانة ، وتهذيب كتاب الألفاظ لابن السكيت ، تأليف الخطيب التبريزى ، والألفاظ الكتابية للهمذانى ، وفقه اللغة للثعالبى ، وديوان الأخطل .

وظهرت مطبعة المعارف للبستانى ، سنة ١٨٦٧ م ، أنشاها بطرس ابن بولس البستانى ، وهى التى قامت بنشر دائرة المعارف ، له ، ثم لولده سليم ، وكذا محيط المحيط ، فى اللغة ، ومختصره قطر المحيط (٢) .

---

(١) الأعلام ٤/٨٧ ، والموسوعة العربية الميسرة ص ١١٥٢

(٢) التراث العربى ص ٤٥ ، والأعلام ٢/٥٨ .

وفى العراق عرفت أول مطبعة حجرية سنة ١٨٣٠ م ، ولم ترسخ الطباعة فى العراق إلاّ فى سنة ١٨٥٦ م ، حين أسَّس الرهبان الدومينيكان فى الموصل مطبعة كاملة .

وعرفت الطباعة بفلسطين سنة ١٨٣٠ م ، وأنشئت أول مطبعة عربية فى اليمن سنة ١٨٧٧ م ، وبالَحجاز سنة ١٨٨٢ م ، وفى عمّان بالأردن سنة ١٩٢٢ م [١] .

* * *

(١) الموسوعة العربية الميسرة ص ١١٥٢ ، والمستشرقون ص ١٠٥٢

نشر التراث العربىّ فى مصر

واضحٌ كلّ الوضوح من ذلك العرض الموجز : أن الطباعةَ العربيّة قد اصطبغت فى نشأتها الأولى بصبغة مسيحيّة تبشيريّة خالصة ، وجاءت المطبوعات الأخرى تبعاً وذَيلا .

ولم يظهر الوجهُ العربىُّ الإسلامى للطباعة إلاَّ فى مطبعة بولاق بمصر .

لقد كان إنشاء هذه المطبعة فى مصر صيحةً مدويّة ، أيقظت الغافلين ، ومركزَ ضوءِ باهر هدى الحائرين ، وقد تدافعت مطبوعاتها من الكتاب العربىّ الإسلامىّ ، كأنها السَّيلُ الذى عناه الراجزُ بقوله :

أقبل سيلٌ جاء من أمرِ اللهْ يَحْرِدُ (١) حَرْدَ الجَنّةِ المُغِلَّهْ

وكانت البداية مطبعة الحملة الفرنسية التى أحضرها نابليون معه ، فى غزوه المقهور لمصر ، سنة ١٧٩٨ م ؛ لطبع المنشورات والأوامر باللغة العربية ، وكانت هذه المطبعة تعمل وهى على السفينة فى عُرْض البحر ، وحينما اقتحمت هذه الحملة ثغر الإسكندرية ، قام رجالها بتوزيع المنشورات السياسيّة التى أعدُّوها فى البحر ، وأطلق على هذه المطبعة اسم : « المطبعة الأهلية » ، ثم نقلت إلى القاهرة ، واستمرّت فى عملها إلى سنة ١٨٠١ م ، حيث اندحر الفرنسيون ، وارتدّ نابليون إلى وطنه خاسئاً وهو حسير .

وكان نابليون قد جهَّز مطبعته تلك بحروف عربية وفرنسية ويونانية ، وطبع فيها إلى جانب المنشورات والأوامر ، أمثالَ لقمان الحكيم ، وبعض

---

(١) حَرَد يَحْرِد حَرْداً ، بفتح الراء فى الماضى وكسرها فى المضارع : أى قَصَد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وغدوا على حرد قادرين ﴾ سورة القلم ٢٥

رسائل فى النصائح الطبيّة ، وغيرها ، لم يزد على ذلك شيئا [1] .

ومرّت فترة من الزمن ، زهاء عشرين سنة ، وليس فى مصر طباعة ولا مطبعة ، حتى استقرّ الأمر لمحمد على باشا ، فأنشأ مطبعة على أنقاض المطبعة الأهلية الفرنسية ، وسمّيت بالمطبعة الأهلية أيضا ، وذلك فى سنة ١٨١٩ م ، أو ١٨٢١ م ، ثم نقلت هذه المطبعة إلى بولاق ، على ضِفاف النيل ، فعرفت بمطبعة بولاق ، أو المطبعة الأميرية ، كما تُسَمَّى إلى يوم الناس هذا .

وقد كان إنشاء محمد على مطبعة بولاق متزامنا مع إرساله البعثات لتلقىّ العلم فى أوربّا ، ومن أعلام هذه البعثات رفاعة رافع الطهطاوى ، ذلك الأزهرىّ الذى يُعدُّ من أركان النهضة العلمية العربية فى العصر الحديث ، وهو مؤسس مدرسة الألسن بالقاهرة .

ولا يستطيع الدارس أن يُغفل العلاقةَ بين هذه البعثات ، ونشاطِ مطبعة بولاق ، فقد عاد الدارسون المصريون من أوربا ، برغبة عارمة فى الإصلاح والنهوض ، ولم يركنوا إلى الدعة والاكتفاء بمدح الإفرنج ، والطعن على أمتّهم ، والانتقاص من تاريخها ، كما نرى ونسمع الآن .

وقد عاشت مصر فى ذلك الزمان أياماً عربيّة شامخة ، وجاهد أبناؤها فى نفض الغبار عن تراث أمتّهم العربية ، وهذا حاكم مصر محمد على باشا الألبانى التركى ، يساير هذه الروح العارِمةَ « فيحتّم على من يدخل فى خدمته من الإفرنج أن يتزيّوا بالزىّ العربى (المصرى) ويتكلموا اللغة العربية ، ويؤلّفوا بها ، أو ينقلوا كتبهم إليها » [2] .

---

(١) التراث العربى ص ٤٦ ، ومقدمة معجم المطبوعات العربيّة والمعربة .

(٢) هكذا ذكر العلامة خير الدين الزركلى ــ رحمه الله ــ وهو حجة فيما يحكى ويثبت . الأعلام ٦/٢٩٩ ، وانظر مراجعه .

وقد يقال : إن محمد على باشا إنما فعل ذلك من وراء قلبه ، وأنه إنما اصطنعه اصطناعا لكى يمكّن لنفسه فى الأرض ، ولكى يوطّد أقدامه ، ويثبّتَ عرشَه فى مصر لينطلق إلى تحقيق أحلامه وطموحاته ، فليكن هذا ، ولكنه كان ذكاءً منه وفطنة ، أن يتناغم مع هذه الأصوات العربيّة ، العالية الرنين ، السريعة الإيقاع ، وهَوَى الحاكم غالِبٌ ومؤثّر ؛ هكذا كان منذ أن كانت الدنيا ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ومهما يكن من أمر فقد استعلنت تلك الروحُ العربيّة فى ذلك النشاط الظاهر لمطبعة بولاق ، والذى تمثل فى طبع مئات الكتب ، فى التفسير ، والحديث ، والأصلين : أصول الدين ، وأصول الفقه ، واللغة ، والنحو والصرف ، والبلاغة والأدب ، والتاريخ ، والطب ، والرياضة ، والطبيعة ، والفنون الحربية ، وغير ذلك من سائر فنون التراث ، وقد طبع من كلّ ذلك عددٌ وفير . جاء فى مقدمة كتاب معجم المطبوعات العربية والمعرَّبة :

« عُدِّد ما طبع من الكتب فى مطبعة بولاق ، من ١٩ مايو ١٨٧٢ م (١٢٨٩ هـ) [1] إلى آخر ربيع الأول ١٢٩٥ هـ ، فبلغت عدد النسخ (٣٦١٨١٥) قال صاحب التعداد المذكور : وكان قبلاً مطبوعا لغاية سنة (١٨٦٧ م : ١٢٨٤ هـ) (٢٤٢٠٧٥) فيكون إجمال ما صدر من النُّسَخ (٦٠٣٨٩٠) لغاية سنة ١٢٩٥ هـ » .

أرأيت إلى هذا العدد الذى يزيد على نصف المليون ، فى هذه المدة الوجيزة لإنشاء مطبعة بولاق ، وهى مدة يسيرة لا تعدّ شيئا فى تاريخ الأمم

(١) هكذا وضع التاريخ الهجرى بعد التاريخ الميلادى ! وأنا أحافظ على أمانة النقل .

والشعوب ، مع ملاحظة ضعف الوسائل الطباعيّة فى تلك الأيام ، والاعتماد على الجَمْع اليدوىّ ، وهو يمثل عائقا كبيراً فى سرعة الإنجاز .

وواضحٌ أن المراد من العدد المذكور : النُّسَخ لا الكُتُب ، فإن بعض الكتب فى طبعات بولاق يصل إلى عشرين مجلدا (أى نسخة) مثل لسان العرب .

وينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار أن بعض الكتب ، قد نُشِر بهامش كتب أخرى ، وهى ظاهرة عجيبة ، سأتحدث عنها فيما بعدُ إن شاء الله .

وأريد أن أنبّه ــ فى مجال تقييم أعمال مطبعة بولاق ــ إلى ثلاثِ حقائقَ هامّةٍ جداً :

الأولى : أن الذين قاموا على نشر الكتب بتلك المطبعة ، كانوا يستهدفون غايةً ضخمة ، ترمى إلى إظهار كنوز الفكر العربى والإسلامى ، فعمدوا إلى نشر الأمّهات والأصول ، فى كلّ علم ، ولم يطغ فَنٌّ على فَنّ ، شأن المطابع التجارية التى تتحسَّسُ حاجةَ السُّوق ، وتلبِّى رغباتٍ عاجلة ، لخدمة بعض الاتجاهات والنوازع ، فهم قد نظروا إلى التراث نظرة شموليّة كليَّة ، مدفوعين برغبة عارمة فى الإصلاح والنهوض ، وملاحقةِ التطّور الأوربّى الذى تناهتْ إليهم أصداؤه وثمارُه ، من خِلال الغَزْو وإرسال البعثات . وفى ذلك يقول شيخنا عبد السلام هارون :

« ولقد كانت فكرة إحياء التراث والنشاط فيه ، فكرة قوميّة ، قبل أن تكون فكرة علمية ؛ فإن طغيان الثقافة الأوربيّة والنفوذ التركى وضغطه ، كان يأخذ بِمَخْنِقِ العرب فى بلادهم ، فأرادوا أن يخرجوا إلى متنفسّ يحسُّون فيه بكيانهم المستمدّ من كيان أسلافهم ، فى الوقت الذى أَلِفوا فيه الغُرَبَاء من الأوربيِّين يتسابقون وينبشون كنوز الثقافة العربية ، فانطلقوا فى هذه

السبيل ، ينشرون ويُحْيُون ؛ إذ كانوا يرون أنهم أحقُّ بهذا العمل النبيل وأجدر » [١] .

وكان عجباً من العجب أن تُقدِمَ مطبعة بولاق فى تلك الأيام ، على طبع الموسوعات الضخمة ، مثل : لسان العرب ، لابن منظور ، وتفسير الطبرى ، وفتح البارى ، شرح صحيح البخارى ، لابن حجر العسقلانى ، والأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ، والكتاب لسيبويه ، والأمّ للإمام الشافعى ، ومنهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، والصحاح للجوهرى ، والقاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادى ، وشرح الحماسة للتبريزى ، وشرح مقامات الحريرى لأبى العباس الشريشى ، ومعاهد التنصيص ، شرح شواهد التلخيص ، للعباسى ، وألف ليلة وليلة ، وصبح الأعشى فى صناعة الإنشا للقلقشندى ، ووفيات الأعيان لابن خلّكان ، وقلائد العقيان ، للفتح بن خاقان [٢] ، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، للمَقّرِى .

وهذه موسوعات تؤود الناشرين فى أيامنا هذه ؛ لما تتطلبه من نفقات باهظة ، مع تقدم صناعة الطباعة ، واستخدامها للألكترونيات .

وإلى جانب نشر هذه الأصول التراثيّة ، عنيت مطبعة بولاق بنشر الكتب المترجمة يومئذ إلى العربية ، فى أنواع العلوم ، كالطب والهندسة والرياضيات والعلوم الحربية .

---

(١) التراث العربى ص ٤٩

(٢) هكذا يأتى اسمه مختصرا ، وتمامه : الفتح بن محمد بن خاقان . أبو نصر ، وهو كاتب مؤرخ ، من أهل إشبيلية . توفى سنة ٥٢٨ هـ ، ويلتبس عند بعض الناس بالفتح بن خاقان ، أبى محمد ، الأديب الشاعر ، وهو فارسى الأصل ، اتخذه الخليفة المتوكل أخاً له ، وعيَّنه وزيرا . توفى سنة ٢٤٧ هـ .

الحقيقة الثانية : تزامُن نشاط مطبعة بولاق مع الدعوة إلى العاميّة ، والتى تولّى كِبْرها نَفرٌ من خبثاء الأجانب الذين حلُّوا بمصر ، منهم ولهلم سبيتا ، وكارل فولرس ، وويلكوكس ، وسلدن ولمور ، وزويمر . وقد جاهد هؤلاء فى الترويج لدعوتهم الخبيثة جهاداً لاهثا ، يصانعهم ويظاهرهم قومٌ أغبياء من أهل جِلْدتنا (١) ، لكنّ هذه الدعوة لم يُقدَّر لها أن تبلغ مبلغها فى تلك الأيام ، إذ كانت حركة إحياء التراث التى نهضت بها مطبعة بولاق ، تشقُّ طريقها فى سرعة ومضاء ، ثم كان أن خَبَتْ هذه الدعوةُ أيضا حين أنشئت مدرسة دار العلوم سنة ١٨٧٢ م ، وتولّى التدريسَ فيها أفذاذ الرجال ، وكان على رأسهم الشيخ حسين المرصفى ، هذا الأزهرىّ الضرير ، الذى تولى التدريس بالأزهر ، ثم كان أستاذا للأدب العربى وتاريخه بمدرسة دار العلوم ، وكان يعرف الفرنسية ، وهو من عظماء رجال الإحياء ، وألف كتابه « الوسيلة الأدبية » ، وهو مجموع محاضراته على طلبة دار العلوم ، ولهذا الكتاب أثر ظاهر فى إحياء اللغة وآدابها ، وقد انتفع به كل من تخرج فى دار العلوم وكل أبناء ذلك الجيل عامة . توفى رحمه الله ورضى عنه سنة ١٣٠٧ هـ = ١٨٨٩ م .

ويقول شيخنا محمود محمد شاكر : « واقترن وجودُ المرصفى ، بظهور شاعرٍ فذّ ، نقل اللغةَ يومئذ من حالٍ إلى حال ، فأسقط عن الهمم تلك الأغلالَ التى كانت تُمسكها إلى الأرض ، وتُقعدها بالعجز عن توهّم إدراك الأوائل ، فى نصاعة العبارة وتجويد الشعر ، وهو الإمام محمود سامى

---

(١) كشف هؤلاء وهؤلاء شيخنا محمود محمد شاكر ، فى كتابه الفاضح الدامغ « أباطيل وأسمار » وانظر منه الصفحات ١٥٤ ــ ١٩٥ ، فتدبَّرْ ما قاله ، واصرِفْ إليه عقلك وقلبك .

البارودى ، المولود سنة (١٨٤٠) ، وظهر اسمه وشعره فى نحو هذا الوقت ، أى (١٨٧٠) ، وبدأت العربية من يومئذ تستعيد شبابها وقوّتها ، وانطلقت الألسنة من عِقال العجز ، بفضل هذين الرجلين » [١] .

وممَّا لا شكَّ فيه أن طبعات بولاق من التراث قد غذّت عقول جماعةٍ من ورثة المرصفى والبارودى ، حين وضعت أمامهم زادا شهيًّا من آداب الأوائل وعلومها ، مما أمدَّهم بفيضٍ زاخر ، أعانهم على ما هم بسبيله من الإبداع والإحسان . « فظهر من الكتّاب والشعراء من مهّدتْ لهم قُواهم أن يتصدَّروا قيادةَ الطريق إلى إحياء العربية فى الجماهير الباقية المحبّة للغة بلادها ، دون معونة تُحدثها المدارس ، من تخريج جمهور محبٍّ للغة بلاده ، يتكاثر به عددُ هذه الجماهير ، وكان فى مقدّمة ورثة البارودى ، فى باب الشعر خاصة ، جماعةٌ تكاثروا ، تقدّم منهم شوقى ، وحافظ ، ومَطْران ، وعشراتٌ من نوابغ الشعر من بعدهم » [٢] .

وقد سطع هذا النورُ وتألَّق ، ومدَّ إشعاعه إلى أرجاء الوطن العربى كلِّه ، مشرقِه ومغربِه [٣] ، ثم تناغمت الأصواتُ العربيّة ، وتوحَّدت مع حَفِيف الأوراق الصفراء التى تجود بها مطبعةُ بولاق مع إطلالة كلِّ صباح .

والحقيقة الثالثة : أن الأزهر كان موجِّهاً لكثيرٍ من نشاط مطبعة بولاق ، ومُهَيْمِناً عليه ، على عكس ما رأيناه فى مطابع لبنان ، فى نشأتها الأولى ، وتوجيه القساوسة والرُّهبان لنشاطها ، وقد جرى الأمرُ فى مطبعة

---

(١) أباطيل وأسمار ص ١٦١

(٢) المرجع نفسه ص ٢٦٠ ، وهذا الكلام ذكره شيخنا فى سياقٍ غير السياق الذى أنا فيه ، ولكنّ كلام شيخنا حفظه الله صالحٌ لكلِّ سياق ، فهو مِثْلُ التِّرياق النافع لجميع العِلَل والأدواء .

(٣) انظر ما يأتى من حديث نشر التراث العربى فى تركيا ، والمغرب الأقصى .

بولاق على غير هذا ، فكان محرِّرُو المطبعة من الطلبة الأزهريين ، الذين دُرِّبوا لذلك تدريباً خاصاً ، استغرق نحو ستّ سنوات ، ثم كان إسناد رئاسة تصحيح مطبعة بولاق إلى الشيخ نصر الهورينى الأزهرى الشافعىّ ، آيةً كبرى ، على هيمنة الأزهر ، على هذه المطبعة الكبيرة .

وهذا الشيخ نصر الهورينى ، من علماء الأدب واللغة . تعلَّم بالأزهر ، ثم أرسلته الحكومة المصرية إلى فرنسا ، إماماً لإحدى بعثاتها ، فأقام مدة ، تعلَّم فيها الفرنسية ، ولمّا عاد إلى مصر ولى رئاسة تصحيح مطبعة بولاق ، فصحَّح كثيراً من كتب العلم والأدب والتاريخ واللغة ، وصنَّف كتبا كثيرة ، منها : المطالع النصرية للمطابع المصرية ، فى أصول الكتابة ، أى الإملاء بالمعنى الحديث للكلمة ، وشرح ديباجة القاموس المحيط للفيروزابادى ، الذى طبع فى مقدمة القاموس . وكانت للشيخ نصر رحمه الله ، مشاركاتٌ أخرى ، فى غير مطبعة بولاق ، فقد صحح كتاب شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل ، للشهاب الخفاجى ، وعلَّق بهامشه تعليقات نفيسة ، وطبع الكتاب بالمطبعة الوهبية بالقاهرة ، سنة ١٢٨٢ هـ ، وقد نشر أحدُ المعاصرين كتاب شفاء الغليل هذا ، ونقل فى حواشيه تعليقات الشيخ نصر ، دون أن يعزُوَها إليه . توفى رحمه الله سنة ١٢٩١ هـ = ١٨٧٤ م [١] .

ومن مصحِّحى مطبعة بولاق المشاهير : الشيخ محمد بن عبدالرحمن ، المعروف بقُطَّة العَدَوىّ ، المتوفى سنة ١٢٨١ هـ = ١٨٦٤ م ، وكانت له عناية بالنحو ، ومن مؤلفاته المطبوعة : فتح الجليل بشرح شواهد

(١) الأعلام ٢٩/٨

ابن عقيل . ونسخ بعضَ الكتب بخطه ، وبعضها محفوظ بدار الكتب المصرية [١] .

وأشير هنا إلى أن بعض مطبوعات بولاق كانت تُنشَر على نفقة بعض الناس من محبّى العِلم ، ومن ذلك كتاب الدرّ المنثور فى طبقات ربّات الخدور ، للسيدة زينب بنت يوسف [٢] فوّاز العاملى ، المتوفاة سنة ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤ م وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة بولاق سنة ١٣١٢ هـ ، على نفقة محمد زهران .

ومن ذلك كتاب خزانة الأدب ، لعبد القادر البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ ، والخزانة من مفاخر التأليف العربى ، وقد تمَّ طبعُها بمطبعة بولاق ، سنة ١٢٩٩ هـ ، وجاء بخاتمتها ، بقلم مصحّحها الشيخ محمد قاسم ، قال رحمه الله :

« هذا وكان حُسنُ طبعه ، وزهر ثمر طَلْعه ، على ذمّة عصابة أجلّة [٣] نبلاء ، لهم فى نشر العلوم والمعارف اليدُ البيضاء ، فاستحقّوا بذلك الثناءَ الجميل . وهاك مقادير حِصَصهم ، على هذا التفصيل : فقيراط ونصف لتاج المُفْتين حضرة العلاَّمة الشيخ عبد الرحمن سراج ، مفتى بلدِ الله الأمين ، وثلاثة قراريط لحضرة الفاضل الشيخ عبد الرحمن الشّيبى ، عمدة الأماثل ، وقيراط ونصف للسّامى الماجد حضرة الشيخ أحمد المَشَّاط ، عينِ

---

(١) الأعلام ١٩٨/٦

(٢) تمام اسمها : زينب بنت على بن حسين . ولدت فى سوريا ، ونشأت وتعلمت وماتت بمصر . الأعلام ٦٧/٣ ، ويقول الزركلى عن كتابها المذكور إنه من أفضل ما صنّف فى بابه .

(٣) هكذا جاء ، والصواب : « جِلّة » بإسقاط الألف ، وهو جمع جليل مثل صبىٍّ وصبية .

الأماجد ، وثلاثة قراريط لذى القَدْر السَّنِىّ حضرة الحاج عبد الواحد الميمنىّ ، وثلاثة قراريط لذى المَوْرد الهنىّ حضرة الحاج حسين بن عبد الله الميمنىّ ، وستّة قراريط لذى المَشْرَب الأدبىّ حضرة الفاضل الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد الباز الكتبىّ ، وستّة قراريط للمستعين بربّه الغنىّ حضرة الحاج أبى طالب الميمنىّ » (١) .

وقد أطلتُ بذكر هذا النقّل ؛ لأنه تاريخ ينبغى أن يُسَجَّل ، ويظهر من قائمة هذه الأسماء الكريمة عددٌ من أهل مكة المكرمة ، زادها الله تشريفا .

وقد تولى نظارة مطبعة بولاق نفرٌ مِن عِلْيةِ القوم ، وكان من أبرزهم حسين حسنى باشا ، الذى بدأ أمره مصححا وكاتبا بالتركية فى الوقائع المصرية سنة ١٨٥١ م ، ثم عمل فى مطبعة بولاق ، إلى أن ولى نظارتها سنة ١٨٨٠ م ، وهو أول من أنشأ مصنعاً للورق فى مصر ، وكان معظمه قبل ذلك يستورد من إيطاليا .

واستمرت مطبعة بولاق فى عملها أكثر من تسعين سنة ، لم تركد فى

---

(١) خزانة الأدب ٤٩٩/٤ ، وينبغى على طلبة العلم قراءة خواتيم قراءة الكتب المطبوعة فى تلك الأيام ، ففيها فوائد كثيرة . وقد شاعت ظاهرة طبع الكتب على نفقة محبى العلم ، فمن ذلك أمالى أبى على القالى ، التى طبعت بدار الكتب المصرية عام ١٣٤٤ هـ ــ ١٩٢٦ م ، على نفقة إسماعيل يوسف بن دياب . وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع ، للمقريزى ، الذى طبع الجزء الأول منه بتحقيق شيخنا محمود محمد شاكر ، عام ١٩٤١ م ، على نفقة السيدة قوت القلوب الدمرداشية . إحياء لذكرى والدها السيد عبد الرحيم باشا الدمرداش ، وقد طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر وانظر ما يأتى فى الحديث عن دار الكتب المصرية .

فى أثنائها إلاَّ بضع سنوات ، فى الفترة التى انقضت بين عهد محمد على ، وإسماعيل [١] .

ولا تزال هذه المطبعة العتيدة باقية إلى يومنا هذا ، على النيل ، مقابل منطقة بولاق ، فى مبنىً جديد ، وتقوم على طبع المنشورات الحكومية ، وبعض مطبوعات مجمع اللغة العربية .

والحديث عن مطبعة بولاق ، ونشاطها فى نشر عيون التراث ، حديث طويل ، وحسْبنا منه هذه اللمحة فى ذلك المدخل الموجز .

* * *

(١) التراث العربى ص ٤٧

نشاط المطابع الأهلية بمصر

لم تظهر هذه المطابع فى مصر ، إلاّ بعد مضىّ نحو أربعين سنة ، من إنشاء مطبعة بولاق .

وأول هذه المطابع : المطبعة الأهلية القبطية التى عرفت فيما بعد بمطبعة الوطن ، وقد أنشئت سنة ١٨٦٠ م ، بعد أن تدرّب عمّالُها فى مطبعة بولاق ، بإذن من سعيد باشا ، حاكم مصر ، وقد نشرت هذه المطبعة عددا من كتب التراث ، منها أدب الكاتب لابن قتيبة ، وحلبة الكميت للنَّوَاجى . ثم تلتها مطبعة وادى النيل ، سنة ١٨٦٦ م ، وقد أنشأها عبد الله أبو السعود افندى ، وطبع فيها صحيفة وادى النيل ، إلى جانب بعض كتب التراث . وفى هذه المطبعة تم طبع كتاب الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفى ـــ الذى أشرت إليه من قبل ـــ سنة ١٢٩٦ هـ ، وكان قد بدأ طبعه بمطبعة المدارس الحكومية بدرب الجماميز ، سنة ١٢٩٢ هـ . وفى مطبعة وادى النيل طبع كتاب : كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ ، لابن الأجدابى ، سنة ١٢٨٧ هـ .

وعبد الله أبو السعود هذا ، هو أول صحفى سياسى فى تاريخ مصر الحديث ، وكان يتقن مع العربية الفرنسية والإيطالية ، وعين ناظرا لقلم الترجمة ، فأستاذا للتاريخ بدار العلوم . وله مؤلفات كثيرة . ولد فى دهشور قرب الجيزة بمصر ، سنة ١٢٣٦ هـ = ١٨٢٠ م ، وتوفى سنة ١٢٩٥ هـ = ١٨٧٨ م (١) .

---

(١) الأعلام ٤/١٠٠

ومن أبرز المطابع الأهلية التى سَرَتْ فيها روحُ مطبعة بولاق : مطبعة جمعية المعارف ، واسمها : المطبعة الوهبيّة .

وجمعية المعارف هذه ، أسَّسها محمد عارف باشا ، أحدُ أعضاء مجلس الأحكام بمصر ، سنة ١٨٦٨ م ، وانضمّ إلى هذه الجمعية كثيرٌ مِن سَراة القوم ، ومحبِّى العلم ، وعددهم ٦٦١ عضوا ، ترى أسماءَهم بآخر الجزء الأول من كتاب تاج العروس ، فى شرح القاموس ، الذى طبعت منه الجمعية خمسة أجزاء (١٢٨٥ هـ ـــ ١٢٨٧ هـ) .

وقد لقيت هذه الجمعية العلمية إقبالاً كبيرا واستجابةً سريعة ، من المثقفين وغيرهم ـــ كما يقول شيخنا عبد السلام هارون ـــ وكان لأعضائها ميزة فى أن يحصلوا على الكتب بثمنٍ أقلَّ مما يُطلب من غيرهم .

وقد نشرت الجمعية طائفة صالحة من الكتب القيمة ، فى اللغة والتاريخ والأدب ، منها خمسة أجزاء من تاج العروس ـــ كما سبق ـــ والصحاح ، للجوهرى، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة ، لعز الدين بن الأثير ، والمثل السائر ، لأخيه ضياء الدين ، وألف باء للبَلَوىّ ، وشرح القَسْطلاَّنى على البخارى ، والمزهر ، للسُّيوطى ، وطراز المجالس ، للشهاب الخفاجى ، وشفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل ، له أيضا ـــ وهو من تصحيح العلاَّمة نصر الهورينى ، كما سبق ـــ وخلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، للمحبىّ ، والتعريفات ، للجرجانى ، وتاريخ ابن الوردى . إلى مطبوعات أخرى ، تراها بآخر الجزء الأول من تاج العروس .

ومن أندر ما طبعته جمعية المعارف كتاب « الفتح الوهبى على تاريخ أبى نصر العُتْبى ، وهو ـــ كما يقول شيخنا عبد السلام هارون ـــ من

أعجب كتب التاريخ ؛ إذ هو شرح لكتاب تاريخى ، ألفه أبو نصر العُتْبى (١) ، ليسرد فيه وقائع يمين الدولة محمود بن سُبُكْتُكين الغَزْنوىّ ، فاتح الهند ، المتوفى سنة ٤٢١ هـ . وهذا الكتاب ألفه أبو نصر بأسلُوب أدبى فنّى ، وسماه : اليمينى ، نسبة إلى يمين الدولة هذا ، وقد تتابع عليه كثيرٌ من الشرّاح ، كان أبرزهم وأشهرهم أحمد بن على المنَينى ــ نسبة إلى منَين ، من قرى دمشق ــ المتوفى سنة ١١٧٢ هـ ، وسمى شرحه : الفتح الوهبى (٢) .

وهذا الالتفاف من المثقفين حولَ جمعية المعارف ، ومؤازرتها فى نشر الكتب ، يذكرنا بما حدث فى تلك الأيام ، من قيام جمعية خيرية خاصّة « من فضلاء المصريين وسَراتهم ذوى الهمم العالية » لنشر كتاب المخصَّص لابن سيده ، وذلك فى سنة ١٩٠٢ م ، وكان من أعضائها الشيخ الإمام محمد عبده ، وحسن عاصم باشا ، وعبد الخالق ثروت باشا ، ومحمد النَّجّارى ، ووكلوا تصحيح الكتاب إلى الإمام محمد محمود التركزى الشنقيطى ، بمعاونة الشيخ عبد الغنى محمود ، أحد علماء الأزهر الشريف (٣) .

ومن تلك المطابع الأهلية : المطبعة الخيرية بالجمالية ، وقد أسَّسها عمر حسين الخشاب (٤) ، ومحمد عبد الواحد الطُّوبى . ومن منشوراتها الكثيرة ، ومن أجلِّها : تاج العروس للمرتضى الزَّبيدىّ ، طبعته كاملا فى عشرة أجزاء كبار (١٣٠٦ هـ ــ ١٣٠٧ هـ) بعد طبعة جمعية المعارف التى وقفت عند نهاية الجزء الخامس ، كما سبق .

---

(١) اسمه محمد بن عبد الجبار العُتْبى ، نسبة إلى عتبة بن غزوان ، مؤرخ من الكتاب الشعراء ، أصله من الرىّ ، نشأ فى خراسان ، ثم استوطن نيسابور . توفى سنة ٤٢٧ هـ الأعلام ١٨٤/٦

(٢) التراث العربى ص ٤٨ ، وانظر ترجمة المنينى فى الأعلام ١٨١/١

(٣) التراث العربى ص ٤٨

(٤) أخبرنى الأستاذ رشاد عبد المطلب ، رحمه الله ، أن عمر الخشاب هذا هو جدّ الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب ، الأستاذ المعروف بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، أمدّ الله فى حياته .

وعن هذه الطبعة صدرت مصورّة دار صادر ببيروت . ومن مطبوعاتها : النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لمجد الدين بن الأثير ، سنة ١٣١٨ هـ ، وطبع بأسفله : الدر النثير تلخيص نهاية ابن الأثير ، للسيوطى ، وبهامشه : مفردات القرآن الكريم ، للراغب الأصبهانى . وطبع بها أيضا : الكتاب الكامل للمبرد سنة ١٣٠٨ هـ .

ومن تلك المطابع : المطبعة العثمانية ، وفيها طبع كتاب النهاية لابن الأثير ، سنة ١٣١١ هـ ، طبعة متقنة مضبوطة بالشكل الكامل ، فى أربعة أجزاء . وطبع على هامشها :الدر النثير للسيوطى . وهى بتصحيح عبد العزيز بن إسماعيل الأنصارى الطهطاوى ، وقد أحسن هذا الرجل فى تصحيحه كلَّ الإحسان ، وأثبت على الهامش بعض فروق النسخ المخطوطة . وقد أفدت من هذه المطبوعة ، فى نشرتى للنهاية التى صدرت عن مطبعة عيسى البابى الحلبى سنة ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣ م .

والمطبعة الأزهرية المصرية ، ومما أخرجته كتاب الكامل فى التاريخ ، لعز الدين بن الأثير ، سنة ١٣٠١ هـ ، وبهامشه كتاب عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، للجبرتى .

والمطبعة الشرفية ، أو الكاستلية ، ومن مطبوعاتها كتاب الصداقة والصديق ، لأبى حيان التوحيدى ، سنة ١٣٢٣ هـ ، وقد طبع باسم : الأدب والإنشاء فى الصداقة والصديق . ومما طبع فيها أيضا : فرائد القلائد فى مختصر شرح الشواهد [1] للعينى سنة ١٢٩٧ هـ .

والمطبعة الرحمانية ، وهى التى طبع بها العلامة الشيخ محمد بهجة

---

(١) وهو المعروف بالشواهد الصغرى . أما الشواهد الكبرى فهى المسماة : المقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفية وقد طبعت بهامش الخزانة .

الأثرى ــ أطال الله حياته ــ كتاب بلوغ الأرب فى أحوال العرب ، للسيد محمود شكرى الآلوسى ، سنة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ م ، وقد عنى بنشره محمد جمال ، صاحب المكتبة الأهلية بشارع عبد العزيز . وطبع بها أيضا كتاب الضرائر ، للمؤلف نفسه ، وكتاب المصاحف للسجستانى ، نشره جفرى سنة ١٩٣٦ م .

ومطبعة الجمالية الكائنة بحارة الروم ، بحىّ الغورية ، ومن مطبوعاتها : كتاب الروض الأنف للسهيلى ــ شرح السيرة النبوية لابن هشام ــ سنة ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤ م وكان طبعه على نفقة مولاى عبد الحفيظ سلطان المغرب الأقصى ، بعناية وكيله الحاج محمد بن العباس شقرون ، وولده الحاج عبد السلام بن شقرون . ومن مطبوعاتها أيضا كتاب تيسير الوصول إلى جامع الأصول ، لابن الدَّيْبَع الشيبانى ، سنة ١٣٣٠ هـ . ومن الطريف أن هذه الطبعة قد عنى بتصحيحها ، ومراجعة أصولها الخطّية الشيخ محمد هارون ، وكيل مشيخة علماء الإسكندرية ، وهو والد شيخنا الجليل عبد السلام محمد هارون ، أطال الله فى الخير بقاءه :

*ومِنْ عِضَةٍ ما يَنْبُتَنَّ شَكِيرُها (١) *

ومطبعة كردستان العلمية ، التى أنشأها فرج الله زكى الكردى ، نحو سنة ١٩١١ م ، ونشر فيها طائفة صالحة من كتب التراث ، على منهج

---

(١) العضة : كل شجرة عظيمة . والشكير : الورق الصغار ينبت بعد الكبار . يضرب مثلا للرجل يشبه أباه ، ومثله :

وهل يُنْبِت الخَطِّىَّ إلاَّ وشَيجُه ... وتُغْرَسُ إلاَّ فى منابتها النخل

والخَطّى : الرمح المنسوب إلى الخَطِّ ، وهو مرفأ السفن بالبحرين ، تباع به الرماح . والوشيج : شجر الرماح .

علمى مقارِب ، منها كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة [١] .

ومطبعة هندية بالموسكى . ومن منشوراتها : كتاب نظام الغريب للربعيّ ، سنة ١٩١٢ م . والرَّبعيّ هذا هو أبو محمد عيسى بن إبراهيم . من أهل أُحاظة باليمن . توفى سنة ٤٨٠ هـ ، وهو غير الرَّبعيّ اللغويّ النحوى ، أبى الحسن على بن عيسى المتوفى ببغداد سنة ٤٢٠ هـ ، وبعض الناس يخلط بينهما . وكتاب شرح غريب السيرة النبوية لابن هشام . تأليف أبى ذر الخشنى . سنة ١٣٢٩ هـ ، وقد قام على تصحيح هذين الكتابين المستشرق الألمانى الدكتور بولس برونله . ومن مطبوعاتها أيضا معجم الأدباء لياقوت الحموى ، سنة ١٩٣٠ م بتصحيح المستشرق مرجليوث .

ومن المطابع الأهلية الصغيرة : مطبعة التقدم العلمية ، بدرب الدليل ، بحيّ الدرب الأحمر . ومن منشوراتها كتاب الكامل للمبرد ، سنة ١٣٢٣ هـ .

وبالقرب من تلك المطبعة : مطبعة الفتوح الأدبية ، بشارع النبوية ، بحيّ الدرب الأحمر أيضا ، ومن مطبوعاتها كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة سنة ١٣٣٢ هـ ، وكتاب الكامل للمبرد ، سنة ١٣٣٩ هـ ، بتصحيح الشيخ إبراهيم الدلجمونى الأزهرى . ولازلت أذكر هذه المطبعة العتيقة ، إذ كنّا صغاراً من أبناء ذلك الحيّ ، نلهو حولَها ، ونجمع الحروف الطباعية القديمة التى يلقى بها خارجَ المطبعة ، نلتقطها ، ونضمّ بعضها إلى بعض ، لنصنع منها أسماءَنا ، ونكوِّن منها البسملة ، وكان السعيد منّا الذى يلتقط

---

(١) التراث العربى ص ٦٠ ، وانظر ما يأتى فى الحديث عن تقييم أعمال تلك المرحلة الأولى من تاريخ نشر التراث .

ذلك الحرف الكبير ، الذى يشبه الأكلشيه ، والمكتوب عليه جملة « صلى الله عليه وسلم » بالشكل القديم المركّب هكذا : ﷺ . وكان لذلك أثر كبير فى تحسين خطوطنا .

وهذا حىّ النبوية : ينسب إلى السيدة فاطمة النبوية بنت الحسين ، رضى الله عنهما ، ويقال : إنها مدفونة فى هذا المكان الذى أقيم حوله مسجدٌ جامع . وفى هذا المسجد كنا نذاكر دروسَنا ، ونجد رَوْحاً وأُنْساً ، لا نكاد نجدهما فى بيوتنا . وفى هذا المسجد عرفْنا كبار العلماء الذين كانوا يُلقُون الدروس حِسْبَةً ، ثم عرفنا أيضا كبار القرّاء وأئمتهم ، من أمثال الشيخ عبد الفتاح الشعشاعى والشيخ محمد الصيفى ، والشيخ كامل يوسف البهتيمى ، هؤلاء القراء الذين كانوا يجمعون إلى حلاوة الصوت خشوعَ الأداء ، والتزام قواعد التجويد . وكان قارئ السورة يومَ الجمعة فى هذا المسجد ، الشيخ محمد سلامة ، وكان عجباً من العجب ، فى قوة الصوت ، وعذوبة الأداء ، وكان من غريب أمره ، أنه يمتنع عن القراءة فى الإذاعة ، مع شدة الطلب والإلحاح عليه فى ذلك . وفى تلك الأيام كان الشيخ العظيم مصطفى إسماعيل ، يشقّ طريقه بقوّة فى تلاوة القرآن الكريم ، باسطاً سلطانه على عرش التلاوة ، مخلياً مساحةً كبيرة بينهَ وبين معاصريه ، وقد آتاه الله ما لم يؤت أحداً منهم ، فى الحُسْن والإحسان . رحم الله الجميع ، وجمع بيننا وبينهم فى بَرْدِ العيش ، وقَرَارِ النعمة : جنّاتِ عَدْنٍ التى وعد الرحمنُ عبادَه .

والحديث عن القرآن الكريم يقودنا إلى الحديث عن المطابع المصرية ، التى تخصّصت فى طبع المصاحف الشريفة . ومن أشهرها مطبعتان : الأولى مطبعة عبد الرحمن محمد (١) . والثانية : مطبعة الشمرلى ، وأصحابها

(١) هو والد المحامية الشهيرة الفاضلة السيدة مفيدة عبد الرحمن .

أولاد المرحوم حسين محمد عبد الله . وقد اشتهرت هذه المطبعة بطبع المصحف المكتوب بخط السيد مصطفى نظيف الشهير بقدرغه لى . وقد أشرف على طبع بعض هذه المصاحف شيخنا العلاَّمة ، أستاذ الأستاذين ، مقرىء الوقت ، الشيخ عامر السيد عثمان ، وهذا الرجل الذى قطع الثمانين من عمره الآن ، لا يزال يقرىء ويفيد ، وأوقاته كلها مشغولة بالإقراء ، وقد تخرَّج على يديه مئاتٌ من مختلف فئات الناس ، انتشروا فى القاهرة والبلدان العربيّة والإسلامية ، ينشرون النور والهدى . وله ــ رضى الله عنه وأطال فى عمره ــ فوق علمه بفنّ القراءات وطُرُقها ، حِسٌّ دقيق ، فى صفات الحروف ، ومخارجها ، وتخليصها ، والوُقُوفِ ومواقعِها .

ثم نعود إلى المطابع الأهلية ، فنذكر من أشهرها : مطبعة السعادة ، الكائنة بجوار محافظة مصر ، بميدان باب الخلق . ومن مطبوعاتها القديمة : البحر المحيط ، لأبى حيان ، سنة ١٣٢٩ هـ ، على نفقة مولاى عبد الحفيظ سلطان المغرب الأقصى ، الذى أشرت إليه قريبا . وكثير من تحقيقات الشيخ الجليل محمد محيى الدين عبد الحميد ، خرجت من هذه المطبعة ، وكذلك مطبوعات الخانجى .

ومطبعة مصطفى محمد ، صاحب المكتبة التجارية بأول شارع محمد على ، وهى الآن بميدان العتبة . وقد نشرت هذه المطبعة كثيرا من كتب التراث . وطبع بها الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد كثيرا من تحقيقاته ، ولى عن هذا الشيخ الكبير ، كلمةٌ تأتى إن شاء الله ، فى الحديث عن المرحلة الثانية ، من مراحل نشر التراث فى مصر .

ومطبعة محمد على صبيح وأولاده ، ولا زالت كعهدها القديم بميدان الأزهر ، وقد نشرت كتباً ذواتِ عدد ، من التراث ، ومعظم ما طبعت من المتون والحواشى المتصلة بمقررات الدِّراسة ، بالأزهر الشريف ، وقد اتَّسَمت

بعض مطبوعاتها بالسُّرعة والعجلة ، مما زهَّد الناسَ فيها ، وقد أشار إلى ذلك العلاَّمة الشيخ أحمد محمد شاكر — رحمه الله — فقال فى ختام مقدمته لكتاب الباعث الحثيث ، شرح اختصار علوم الحديث (١) . لابن كثير :

« وبعد ؛ فإنى أجد من الواجب علىَّ أن أقول كلمةَ عدل وإنصاف ، تتّصل باختيارى طبعَ هذه الطبعة لحساب (مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده) ، وقد ساء ظنُّ الناس بها ، من جهة التهاون فى طبع الكتب وتصحيحها . ولعل الإنصاف يقضى بأن تكون التَّبعةُ فى هذا التهاون على العلماء ، الذين يقومون على تصحيح الكتب ، وتوضع عليها أسماؤهم ، لا على المكتبة وأصحابها ، فإنما هم تجّارٌ وناشرون فقط . وأرجو أن يجد القراءُ فى هذه الطبعة مصداقَ هذا القول ، إن شاء الله » .

وتبرز من بين هذه المطابع الأهلية : المطبعة الميمنيّة ، بمنطقة الكحكيِّين ، المتفرع من شارع الغوريّة فى دائرة ضوء الأزهر الشريف ، وصاحبها أحمد الحلبى ، وقد نشرت هذه المطبعة كثيرا من عيون التراث ، منها : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، سنة ١٣١٣ هـ — فى ستة أجزاء كبار — وبهامشه كتاب منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال ، لعلاء الدين التقىّ الهندى . وإتحاف السادة المتّقين بشرح إحياء علوم الدين ، للمرتضى الزَّبيدى ، سنة ١٣١١ هـ — فى عشرة أجزاء من القَطْع الكبير . وشرح نهج البلاغة . لابن أبى الحديد ، سنة ١٣٣٠ هـ ، فى أربعة أجزاء ضخام . والدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ، سنة ١٣١٤ هـ .

وكان يتولى التصحيحَ فى هذه المطبعة شيخٌ فاضل ، من كبار

---

(١) الطبعة الثانية ١٣٧٠ — = ١٩٥١ م .

المُصَحِّحين فى ذلك الزمان هو الشيخ محمد الزهرى الغمراوى ، وكانت تتقدّم اسمَه فى ختام المطبوعات هذه العبارةُ : « يقول راجى غفران المساوى » .

وهذه المطبعة الميمنية ، هى أصل مطبعة الحلبى ، التى اقترن اسمُها بالأعمال الجليلة ، وقد تفرعت بعد ذلك إلى مطبعتين كبيرتين : الأولى مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، الكائنة خلف الأزهر الشريف ، واتخذت مقرًّا لها الآن ، عند نهاية منطقة الدرَّاسة ، والالتقاء بمنطقة العباسيَّة بالقرب من إدارة المرور ، وخُصِّص المكان القديم لبيع المطبوعات .

والثانية : مطبعة عيسى البابى الحلبى ، التى تسمَّت باسم « دار إحياء الكتب العربية » وتوجد بشارع خان جعفر ، بمنطقة خان الخليلى .

وقد أمدَّت هاتان المطبعتان المكتبة العربية بفيضٍ زاخر من نفائس التراث ، وتتميز مطبعة عيسى بالتدقيق فى اختيار ما تنشر ، وقد اجتذبت عدداً من كبار المحققين ، منهم الأساتذة : عبد السلام هارون ، والسيد أحمد صقر ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ــ وجمهور كبير من تحقيقاته رحمه الله ، خرج من هذه المطبعة ــ وحسن كامل الصيرفى [١] ، الشاعر المبدع ، ومحمد فؤاد عبد الباقى ، صاحب الأثر الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . وعبد الستار فراج ، وعلى محمد البجاوى . ومن الجيل التالى : أخى الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو .

(١) توفى رحمه الله ، فى شعبان ١٤٠٤ هـ = يونيه ١٩٨٤ م . وكان من كبار شعراء مدرسة أبولو المجدِّدة . وله فى نشر التراث جهود مذكورة ، فمما نشره : طيف الخيال ، للشريف المرتضى ، ولطائف المعارف ، للثعالبى ، ودواوين عمرو بن قميئة ، والمثقب ، والمتلمس . ومن أعظم أعماله : تحقيق ديوان البحترى (خمسة أجزاء) وكان آية فى الطهر والنقاء ، كما كان من ظرفاء العصر . رحمه الله رحمة واسعة سابغة .

وقد عملت مصحّحاً بهذه المطبعة ، فى صدر شبابى ، ثلاث سنوات ، كانت كلُّها خيراً وبركةً علىّ ، فقد تعلَّمت من تصحيح الكتب الشئَ الكثير ، وعرفت من العلماء المتردِّدين على المطبعة ، العددَ الكثير ، وخرجت أعمالى العلميةُ الأولى منها ، فلها فضلٌ علىَّ ظاهر .

وكان صاحب المطبعة محمد عيسى الحلبى ــ رحمه الله ــ من فضلاء الناشرين ، وكان يدقِّق كثيراً فيما يطبع ، ثم كان يلجأ إلى أهل الشأن والخبرة ، يستفتيهم ، وكان أكثر تعويله على خبير المخطوطات والمطبوعات الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب ، رحمه الله (١) .

وبعد : فلا سبيل إلى حصر المطابع الأهلية بمصر ، فى ذلك المدخل الموجز ، ولكن حسْبنا أن نعلم أنه قد تناثرت حول الأزهر ، وباب الخلق ، ودرب الجماميز (شارع بورسعيد الآن) ، وشارع محمد على ، والأزبكية ، والفجالة ، مطابع كثيرة ، تُخرج كلَّ يوم نفائسَ الكتب ونوادرها . ومن أراد الإحاطة بهذه المطابع فعليه بمعجم المطبوعات العربية والمعربة ، ليوسف إليان سركيس .

وقبل أن نغادر تلك المرحلة الأولى (٢) ، من تاريخ نشر التراث فى

---

(١) كان رحمه الله ، من العلماء بالمخطوطات وأماكن وجودها ، وكان لا يُجارَى فى معرفة المطبوعات ، وأماكن طبعها شرقا وغربا ، وفرق ما بين الطبعات ، وعدد طبعات الكتاب المختلفة ، ومن وراء ذلك كانت له صلاتٌ وثيقة بعلماء الدنيا ، من عرب وعجم . كنت لصيقاً به ، ملازِماً له عشر سنوات ، فى معهد المخطوطات ، وسافرت معه ، فى بعثة المعهد إلى تركيا والمغرب ، وتعلمت منه الكثير . توفى رحمه الله فى غرّة المحرم ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م ، وقد كتبت عنه كلمة جامعة غداة وفاته بمجلة الثقافة المصرية . ويقول عنه الأستاذ الزركلى رحمه الله : « وكان شعلة نشاط انطفأت فجأة بإصابة قلبية ، فى القاهرة » الأعلام ٣/٢١

(٢) سيرى القارئ الكريم أنى قسمت تاريخ نشر التراث فى مصر ، إلى أربع مراحل ، وهذا التقسيم قائم على اعتبارات فنية ، وليس للزمن دخلٌ حاسِمٌ فيه ، فإن هذه المراحل قد تداخلت زمنياً كما سيأتى ، إن شاء الله .

مصر ، نقف عند ثلاثة أمور جديرة بالتأمل ، فى تقييم أعمال تلك المرحلة :

الأول : أن المطابع فى تلك الأيام ــ وبخاصة الكبرى منها ــ كانت تحرص فى كثير من منشوراتها ، على طبع كتاب أو أكثر ، بهامش الكتاب الأصلى ، أو بآخره لصلة ذلك بالكتاب ، أو لمجرد الرغبة فى نشر الكتب على أوسع نطاق . ومن ذلك ــ وهو كثير جدا ــ كتاب تحصيل عين الذهب ، فى شرح شواهد سيبويه ، للأعلم الشنتمرى ، المطبوع بحاشية الكتاب ، والسيرة النبوية لابن هشام ، المنشور بهامش الروض الأنف . والمقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفية ، لبدر الدين العينى ، المطبوع بهامش خزانة الأدب . ومروج الذهب للمسعودى ، المنشور بهامش إحدى طبعات الكامل فى التاريخ ، لعز الدين بن الأثير ، وتاريخ الجبرتى ، المنشور بهامش طبعة المطبعة الأزهرية ، من الكامل ، أيضا ، سنة ١٣٠١ هـ ، والكافى الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف للزمخشرى ، تأليف الحافظ ابن حجر العسقلانى ، الذى طبع بآخر الكشاف ، بمطبعة مصطفى محمد (المكتبة التجارية) سنة ١٣٥٤ هـ وطبع معه أيضا شرح شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان المرزوقى ، المتوفى سنة ١٣٥٥ هـ ، واسم شرحه هذا : مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف . أما شرح شواهد الكشاف لمحمد بن أبى بكر بن داود العلوانى الحموى المعروف بمحب الدين افندى المتوفى سنة ١٠١٦ هـ ، فقد طبع بآخر طبعة مصطفى الحلبى من الكشاف ، سنة ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٦ م . وطبع على هامش هذه الطبعة أيضا : حاشية السيد الشريف على الكشاف ، والإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ، لابن المنيّر الإسكندرى .

ومن ذلك أيضا : الرحمة الغيثيّة بالترجمة الليثيّة ــ ترجمة الليث بن سعد ــ وتوالى التأسيس بمعالى ابن إدريس ــ الشافعى ــ كلا الكتابين

لابن حجر العسقلانى ، طبعا بآخر كتابه : فتح البارى بشرح صحيح البخارى . طبعة بولاق ١٣٠٠ هـ .

ومن الطريف حقاً أن نرى خمسة كتب ، مطبوعةً فى كتاب ، وفى صفحة واحدة اجتمعت الخمسة الكتب ، فى الصُّلب والهامش ، مفصولةً بجَدَاول ، دون أن يختلط بعضها ببعض . وذلك كتاب شروح التلخيص ، فى علوم البلاغَة ويشتمل على :

١ ــ شرح سعد الدين التفتازانى ، على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى .

٢ ــ مواهب الفتّاح فى شرح تلخيص المفتاح ، لابن يعقوب المغربى .

٣ ــ عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح ، لبهاء الدين السُّبكى .

٤ ــ الإيضاح ، للخطيب القزوينى .

٥ ــ حاشية الدُّسوقى على شرح السَّعد .

والثلاثة الأولى طبعت فى صُلب الكتاب ، والاثنان الباقيان بهامشه . وكانت الطبعة الأولى للكتاب بمطبعة بولاق سنة ١٣١٧ هـ ، على نفقة مصطفى افندى المكاوى ، المحامى (١) بمدينة الفيوم ، والشيخ فرج الله زكى الكردى وكيل الشركة الخيرية لنشر الكتب العالمية الإسلامية ، من طلبة العلم بالأزهر الشريف ، وعبد الحميد افندى الصمدانى .

وقد أعيدت هذه الطبعة كما هى ، بمطبعة السعادة ، سنة ١٣٤٣ هـ بإذن ملتزمها الأول فرج الله زكى الكردى . ثم كانت طبعة ثالثة بمطبعة

---

(١) أرأيتَ إلى همم الرجال واهتماماتهم فى تلك الأيام ؟ رجل من رجال القانون ينهض للمشاركة فى نشر كتاب من كتب البلاغة ! وأدَعُ لك أيها القارئ الكريم التدبُّر فى هذا الذى كان ، وما نحن عليه الآن .

عيسى البابى الحلبى ، سنة ١٩٣٧ م ، بتنازل فرج الله زكى الكردى أيضا .

وظاهرة طبع الكتب بهامش كتب أخرى ، ظاهرة عجيبة فريدة ، وهى دالَّةٌ بوضوح على أن القوم كانوا فى سباق لنشر العلم وإذاعته ، وما أعلم أنها عُرِفت فى مطابع غير مطابع مصر ، فى بداية الطباعة العربية على الأقل .

والأمر الثانى : أن الذين قاموا على طبع الكتب ، وتصحيحها فى ذلك الزمان ، كانوا من طبقة مشايخ [1] الأزهر الفضلاء ، وكانوا يقومون بعملهم هذا ، فى أمانة تامة ، وحرصٍ شديد ، فندر فى مطبوعاتهم التصحيف والتحريف ، وجاءت النصوص كاملة موفورة ، لاسقط فيها ولا خلل ، وكان لكثيرٍ منهم تآليف خاصة ، فوقَ اشتغالهم بتصحيح الكتب . ويذكر التاريخ منهم : نصر الهورينى ، ومحمد قطة العدوى ، ومحمد الحسينى ، وطه محمود ، ومحمد عبد رب الرسول ، ومحمد قاسم ، ومحمد الزهرى الغمراوى ، وعبد الغنى محمود .

غير أن مما يؤخذ على هؤلاء العلماء ، أنهم لم يُعْنَوا بذكر الأصول المخطوطة التى اعتمدوها فى إخراج الكتب ، فنحن لا نعرف تاريخاً ، أو وصفاً للنُّسَخ المخطوطة التى طبعت عليها أمّهات كتب التراث فى ذلك الزمان ، وقد شذّ عن ذلك ما تراه فى بعض الكتب ، ومنه ما جاء فى آخر

---

(١) عدلت عن كلمة « شيوخ » مع ميلى إليها ، لأمرين : الأول : أن العُرْف اللغوىّ يكاد يقصر كلمة « شيوخ » على من تولَّوْا مشيخة الأزهر ، مثل الشيخ محمد مصطفى المراغى ، والشيخ عبد المجيد سليم ، ومن إليهما ، وما إلى هذا أردت . والأمر الثانى : أن كلمة « مشايخ » وإن كانت جمعاً صحيحاً من جموع « شيخ » فإن بعض أهل زماننا يستعملها فى مقام الاستخفاف والهُزْء ، فأردت أن أكبِتَهُمْ بذلك ، وأستعملَها مقرونةً بالفضل والجلال .

لسان العرب ، المطبوع فى مطبعة بولاق ، سنة ١٣٠٠ هـ ـــ ١٣٠٨ هـ ، حيث ذكر مصححه الشيخ محمد الحسينى أن هذه الطبعة اعتمدت على نسخة بخط ابن منظور نفسه ، كانت فى وقف السلطان برسباى بن شعبان ، ونسخة أخرى أحضرت من مكتبة راغب باشا ، باستانبول . ومنه ما ذكره الشيخ إبراهيم عبد الغفار ، مصحح ديوان مجنون ليلى ، المطبوع ببولاق سنة ١٢٩٤ هـ ، حيث ذكر تاريخ النسخة التى طبع عليها الديوان ، وهو : أواخر شهر جمادى الآخرة من سنة سبعمائة واثنتين وتسعين ، ومنه ما ذكره الشيخ محمد الزهرى الغمراوى ، فى آخر الطبعة الميمنيَّة من مسند الإمام أحمد بن حنبل ، من الاعتماد على نسخة من « المسند » مخطوطة بخزانة السادات الوفائية بمصر . ومثل هذه الإشارات العامّة المطلقة لا تغنى شيئا ، إذ أنها سكتت عن وصف هذه النُّسَخ ، من حيث تاريخُ النَّسْخ ، ونوع الخط ، وعدد الأوراق ، والأسطر ، وما قد يكون على المخطوطة من إجازات أو سماعات أو تملّكات . لكنهم مع ذلك قد حرصوا على جَلْب أكثر من نسخة لإخراج الكتاب ، وتنبَّهوا أيضاً لذكر فُروقِ النُّسَخ بالهامش . وذكر الروايات المختلفة ، كالذى تراه فى حواشى صحيح البخارى ، المطبوع بمطبعة بولاق ، وقد تعدَّى ذلك إلى ذكر روايات الكتب الأخرى كالذى تراه فى حواشى لسان العرب ، من الرجوع إلى التهذيب للأزهرى ، والمحكم لابن سيده ، والنهاية لابن الأثير . كما أنهم كانوا يقفون عندما يشكل عليهم شئ من النصّ ، ويكتبون أمامه فى الهامش : « هكذا بالأصل وحرِّرْ ، أو تنبّهْ » (١) ونحو ذلك .

---

(١) أشير هنا إلى أن إغفال وصف الأصول والمراجع ، مما لم يُعن به العلماء فى ذلك الزمان ، وقد رأينا أفذاذ العلماء يغفلون ذلك فى تآليفهم ، كالذى تراه فى كتاب المواهب=

والأمر الثالث : أن القوم فى تلك المرحلة ، لم يُعْنَوْا بالفهارس الفنّيّة الكاشفة عن كنوز الكتاب المنشور ، واكتفوا بذكر فهارس موجزة لمباحث الكتاب ، وأبوابه وفصوله . غير أنه قد ظهرت فى تلك الأيام بوادرُ لهذه الفهارس الفنيّة ، ومن ذلك ما تراه فى طبعة مقامات الحريرى ، من فهرس شامل للكلمات اللغوية والأمثال العربية التى تضمنّتها المقامات ، وهذه النشرة صدرت عن مطبعة بولاق سنة ١٣١٧ هـ ، على نفقة محمد عبد القادر سعيد الرافعى ، ومثل هذا الفهرس جاء فى طبعة مصطفى البابى الحلبى ، سنة ١٣٣٣ هـ .

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت تلك المرحلة من أغنى وأخصب مراحل نشر التراث العربى وإذاعته ، وهى بكلِّ خيرها وعطائها قد أسلمت إلى ما تبعها من مراحل .

=الفتحية ، للشيخ حمزة فتح الله المصرى المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ ، وكتاب رغبة الآمل من كتاب الكامل ، للعلامة الشيخ سيد بن على المرصفى الأزهرى المتوفى سنة ١٣٤٩ هـ .

أما عدم عنايتهم بالفهارس فترجع إلى ثقتهم فى قارئ ذلك الزمان ، الذى كان يأخذ فى الكتاب من أوله إلى آخره ، فيقف على كنوزه وفوائده بنفسه .

المرحلة الثانية

وهى مرحلة الناشرين النابهين . وهم طبقة من عظماء الرجال ، جاهدوا فى سبيل نشر التراث ، جهاداً صادقاً دَءُوبا . عَنَيْتُ : محمد أمين الخانجى ، ومحب الدين الخطيب ، ومحمد منير الدمشقى ، وحسام الدين القدسى . ومن عجائب الاتفاق أنهم كلهم من أهل الشام ، اجتذبتهم مصر إليها ، وأعْتَدَتْ لهم مُتَّكَأً ، فنشروا علماً ، وأذاعوا تراثا ، ثم كان لهم من وراء ذلك أثرٌ بارز ، فى جمع المخطوطات وتيسيرها للعلماء ، كما كانوا على صلة وثيقة بكبار رجال الفكر والأدب فى مصر ، ممّن لهم عناية بعلم المخطوطات ، من أمثال أحمد تيمور باشا ، وأحمد زكى باشا ، بجانب كبار رجال الفكر ، الذين نزلوا مصر ، واستقرّوا فيها ، من طبقة محمد محمود بن التلاميد التركزى الشنقيطى ، والشيخ محمد الخضر حسين التونسى ، والشيخ إبراهيم اطفيّش الجزائرى ، والشيخ مصطفى صبرى ، والشيخ محمد زاهد الكوثرى ، العالمين التركيّيْن الجليلين ، الفارّين بدِينهما إلى مصر . إلى جانب كبار رجال الاستشراق ، الذين وفدوا على مصر ؛ للإفادة من مكتباتها ، أو للتدريس فى الجامعة المصرية ، من أمثال جويدى ونللينو ، الأيطاليين ، وماسينيون الفرنسى ، وبراجستراسر الألمانى ، وجولدزيهر المجرى . وصلة المُفكِّر بالناشر ، مما يزكو به العلم ويحيا .

وهذه الطبقة من الناشرين تأثَّرت بتلك الروح التى سرت فى مطبعة بولاق ، من نشر الأصول والأمهات ، مع العناية بدقّة التصحيح ، وأمانة الأداء ، وإن كانت قد تخلّصت من الشكل الطباعىّ القديم ، المتمثل فى طبع الكتب بهامش الكتاب الأصلىّ .

وأهم ما يميّز منشورات هذه الطبقة الحرصُ على ذكر مخطوطات الكتاب ، ووصْفِها ؛ إلاَّ أنها لم تُعْنَ بالفهارس الفنّية لما تنشره ، إلاّ ما تراه من بعض مطبوعات الخانجى ، ومحب الدين الخطيب (١) .

وإليك كلمة موجزة ، عن هؤلاء الأربعة العظام :

محمد أمين بن عبد العزيز الخانجى

ولد فى حلب سنة ١٢٨٢ هـ = ١٨٦٥ م وتعلم بها ، ثم عمل كاتباً فى ديوان ولايتها ، واشتغل فى صباه بنْسَخ المخطوطات ، فأحبَّها وأُولِع بها . وانتقل إلى القاهرة ، وهو فى العشرين من عمره ، فأنشأ فيها « مكتبة الخانجى » ، وزار العراق والآستانة ، باحثاً عن نوادر المخطوطات ، فجمع منها كتباً ذواتِ عدد ، نشر منها ما نشر ، وأتاح كثيراً منها لمحبِّى العلم . توفى رحمه الله بالقاهرة سنة ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م .

يقول عنه شيخى محمود محمد شاكر : « عرفته فى أول أيامى ، طالبًا للعلم ، كان رجلا براًّ ، نبيل النفس ، فوجدت من عطفه وكرمه ، ومن تأييده وحثّه ، ما أعاننى على أن أتزوَّد من العلم ما شاء الله أن أتزوّد ، لم يكن عالما ، ولكنه كان يجمع للعلماء أصول علمهم ، وينشرها بين أيديهم ، ويغريهم بالحرص عليها ، فقلَّ أن تجدَ عالماً أو أديباً فى زمنه ، لم يكن لهذا الرجل النحيف الضئيل الخافت فضلٌ عليه ، يذكره الذاكر محسناً فى ذكره ،

---

(١) ومن ذلك كتاب جواهر الألفاظ ، لقدامة بن جعفر ، الذى نشره الخانجى ، سنة ١٣٥٠ هـ بتحقيق الشيخ الجليل محمد محيى الدين عبد الحميد ، الذى صنع له فهرساً نافعا للألفاظ ، استغرق ستاًّ وثلاثين صفحة . وكتاب الميسر والقداح ، لابن قتيبة ، الذى نشره الشيخ محب الدين الخطيب سنة ١٣٤٢ هـ ، وصنع له فهارس جامعة .

وينساه الناس مسيئاً فى نسيانه . ذلك هو أمين الخانجى ، الكتبى الذى أحبّ الكتاب العربىَّ ، كأنه تراث أبيه وأمه » (١) .

ويقول شيخى عبد السلام هارون : « وقد رأيت هذا الرجلَ فى صِباى ، وعرفت فيه الإخلاص للعلم وحده ، إذ لم يكن المال عنده إلاَّ فى المرتبة الثانية ، كما لمست فيه الإخلاص فى نشر التراث العربى ، لا يكاد يعترف بغيره » (٢) .

وقد نشر محمد أمين الخانجى ، رحمه الله (٣٧٨) كتاباً ورسالة ، على ما ذكر الأستاذ خير الدين الزركلى ، رحمه الله (٣) . أذكر من نفائسها ، على سبيل المثال : تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادى ، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبى نعيم الأصبهانى ، ومعجم البلدان ، لياقوت الحموى الرومى ، مع ذيله المسمَّى : منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان ، وغاية النهاية ، المعروف بطبقات القراء ، لابن الجزرى ، وجواهر الألفاظ ، لقدامة بن جعفر ، واللزوميات ، لأبى العلاء المعرّى ، وبدائع الصنائع ، للكاسانى ، والإصابة فى تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلانى ، وتيسير الوصول إلى جامع الأصول ، لابن الديبع الشيبانى ، الذى قدمت خبره ، فى الحديث عن مطبعة الجمالية . كما نشر طبعة مختصرة من كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (٤) .

---

(٢) مقدمة تحقيق طبقات فحول الشعراء ص ٩

(٢) التراث العربى ص ٥٦

(٣) الأعلام ٦/٤٤

(٤) نشره عام ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ م ، مع تعليقات للسيد محمد بدر الدين النعسانى ، الآتى ذكره قريبا .

وكان محمد أمين الخانجى من أسبق الناشرين إلى إذاعة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ، ولم يكن يدفعه إلى ذلك إلاّ إيمانه بإمامة هذا العالم الجليل ، وجهاده فى سبيل الحق ، وتصحيح العقيدة ، ومما نشره من تراث شيخ الإسلام : اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم . نشره عام ١٣٢٥ هـ . ويقول الشيخ محمد حامد الفقى رحمه الله : « وكان للسيد الأمين الخانجى فضلٌ عظيم فى نشر كتب شيخ الإسلام ؛ لما كان يعرف لمؤلفها من الإمامة والهدى ، والإخلاص والتوفيق ، ولما يعرف أن الناس بحاجة إلى ما فيها ، من الخير والعلم النافع ، والهدى الصادق » [١] .

ومن أعلام المصحِّحين الذين استعان بهم السيد محمد أمين الخانجى فى نشر كتبه : الشيخ بدر الدين النعسانى ، وهو محمد بن مصطفى بن رسلان النعسانى الحلبى ، وهو أديب شاعر ، ولد فى حلب سنة ١٢٩٨ هـ ، وتوفى سنة ١٣٦٢ هـ ، وقد نزل مصر ، وأقام فى الأزهر ثمانى سنين (١٣١٠ هـ ـــ ١٣١٨ هـ) [٢] واشتغل بتصحيح الكتب ، إلى تآليف أخرى ، منها شرح شواهد المفصل ، وصحح بعضاً من مطبوعات الخانجى ، كما ساعده فى تأليف منجم العمران ، وهو المستدرك على معجم البلدان . ومن أعمال السيد بدر الدين النعسانى الجيدة تعليقاته على شرح المفصل ، لابن يعيش ، الذى نشره الشيخ محمد منير الدمشقى ومن أقدم النصوص التى نشرها الخانجى : كتاب الصناعتين ، لأبى هلال العسكرى نشره بالآستانة عام ١٣٢٠ هـ . وفى صفحة الغلاف إشارة إلى

---

(١) مقدمة الشيخ محمد حامد الفقى لطبعته من كتاب اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٦ ـــ مطبعة السنة المحمدية ـــ الطبعة الثانية ١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م

(٢) انظر ترجمته فى الأعلام ١٠٢/٧

أنه قام بتصحيح الكتاب بنفسه ، ومقابلته على بعض النُّسَخ المخطوطة ، كما أشار إلى أنه قد صنف كتاباً حولَ أعلام الكتاب سماه : « كتاب الصياغتين فى أعلام رجال الصناعتين » ولا أعلم شيئا عن هذا الكتاب وقد سألت حفيده الأخ محمد أمين ، فذكر أنه لا يعرف عنه شيئاً أيضا .

وبعد وفاته رحمه الله ، قام مقامه ولده الأستاذ محمد نجيب الخانجى ، وقد ورث عن أبيه حبَّ التراث ، وإحياءَه . ومن منشوراته مما حققه شيخنا عبد السلام هارون : البيان والتبيين ، للجاحظ ، والاشتقاق ، لابن دريد ، ورسائل الجاحظ ، ونوادر المخطوطات ، ومعجم شواهد العربية ، وطبقات الصوفية ، للسُّلَمى ، والإحاطة فى أخبار غرناطة ، للسان الدين بن الخطيب ، وطبقات الأولياء ، لابن الملقّن .

وبعد وفاته رحمه الله ، منذ أربعة أعوام ، تولى أمر المكتبة ولدُه الأخ الصديق الأستاذ محمد أمين الخانجى ، وقد تسمَّى باسم جدِّه ، وهذا الصديق العزيز مدعوٌّ إلى أن يحافظ على هذا الإرث العظيم ، وأن يصونه كما يصون كِرامُ الأبناء ودائعَ الآباء ، وهو مرجوٌّ لخيرٍ كثير ، إن شاء الله ، وكان من توفيق الله إيّاه أن يبدأ نشاطه بعد وفاة والده ، باستكمال طبع كتاب عظيم ، من كتب التراث ، هو : خزانة الأدب للبغدادى ، بتحقيق شيخنا عبد السلام هارون ، والذى وقفت به الهيئة العامة للكتاب عند تمام الجزء السابع ، وقد تمّ الكتاب بطبع الجزء الحادى عشر ، وما بقى إلاّ فهارسه ، سهَّل الله إتمامها .

* * *

محبّ الدين الخطيب

ولد فى دمشق سنة ١٣٠٣ هـ = ١٨٨٦ م ، وتعلّم بها ، وبالآستانة . وهو من كبار الكتاب المسلمين والمجاهدين . تقلّبت به الدنيا وصروفُ الأيام ، إلى أن استقرّ فى القاهرة سنة ١٩٢٠ م ، وعمل محررا فى جريدة الأهرام ، وأصدر مجلتيه الزهراء والفتح ، وكان من أوائل مؤسِّسى جمعية الشبّان المسلمين بالقاهرة ، وتولى تحرير مجلة الأزهر ستّ سنوات ، وألَّف عدداً من الكتب ، منها « الحديقة » وهى مجموعة كبيرة ، فى أجزاء صغيرة ، صدر منها ثلاثة عشر جزءا ، وضمّت خزانة كتبه نحو عشرين ألف مجلد مطبوع ، تغلب فيها النوادر . توفى سنة ١٣٨٩ هـ = ١٩٦٩ م [١] .

وقد أنشأ المطبعة السلفيّة ومكتبتها ، بالقاهرة ، سنة ١٩٢٠ م ، بمشاركة عبد الفتاح قتلان ، ثم استقلّ بها .

وكانت المكتبة السلفية منارة علم كبيرة ، صدر عنها كثير من كتب التراث ، منها : الأدب المفرد ، للبخارى ، وعلل الحديث ، لابن أبى حاتم الرازى ، والميسر والقداح ، وأدب الكاتب ، كلاهما لابن قتيبة ، وقد شارك فى تصحيح أدب الكاتب شيخاى الجليلان محمود محمد شاكر ، وعبد السلام هارون ، وكان ذلك سنة ١٣٤٦ هـ ، وأيمان العرب فى الجاهلية للنجيرمى ، وكتاب الملاحن ، لابن دريد . كما صدر عن المكتبة السلفية الثلث الأول من خزانة الأدب للبغدادى ، وظهر هذا الثلث فى أربعة أجزاء ،

---

(١) الأعلام ٥/٢٨٢ . والشيخ محب الدين رحمه الله ، هو خال الكاتب الأديب الواسع الاطلاع الشيخ على الطنطاوى ، أطال الله عمره .

بتحقيق شيخى عبد السلام هارون ــ وكان يومئذ طالبا فى دار العلوم ، وإضافة تعليقات لأحمد تيمور باشا والعلامة عبد العزيز الميمنى الراجكوتى .

ومن أوسع ما نشر محب الدين الخطيب ، كتاب فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، لابن حجر العسقلانى ، الذى طبع من قبل بمطبعة بولاق . وصدرت هذه الطبعة السلفيّة بمقدمة لسماحة الشيخ عبد العزيز ابن عبد الله بن باز ، فى شهر شعبان سنة ١٣٧٩ هـ ، وذكر ــ تقبّل الله منه صالح عمله ــ أنه قابل المجلد الأول على الطبعة الأميرية وعلى نسختين خطيّتين . ثم علَّق على ما وجده من أخطاء للشارح ، لا يحسن السكوت عنها .

وتمتاز هذه الطبعة بعمل نافع جليل ، قام به الشيخ محمد فؤاد عبد الباقى ، رضى الله عنه ، وهو ترقيم الكتب والأبواب والأحاديث ، واستقصاء الأطراف ، وذكر أرقامها فى كل حديث .

وبعد وفاة الشيخ محب الدين ، أجزل الله له المثوبة ، انْتَدَبَ ولدُه الأستاذ قصىّ لإعادة طبع ما نشره والدُه .

* * *

محمد منير الدمشقى ــ وعُرِف بالشيخ منير الدمشقى الأزهرى .

وهو دمشقى . تفقّه فى الأزهر الشريف ، سلفياً ، وأصبح من علمائه .

أنشأ دار الطباعة المنيرية بالقاهرة ، سنة ١٣٣٧ هـ ، ونشر بها كثيراً من المصنَّفات القديمة والحديثة . ومن تصانيفه هو : نموذج من الأعمال الخيرية فى إدارة الطباعة المنيرية . وإرشاد الراغبين فى الكشف عن آى القرآن المبين .

وللشيخ منير الدمشقى فضلٌ مذكور فى نشر موسوعات التراث : منها عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى ، لبدر الدين العينى ، والمحلّى ، لابن حزم ، والمجموع فى شرح المهذب ، للنووى ، وشرح المفصل ، لابن يعيش ، والكامل فى التاريخ ، لعز الدين بن الأثير ، وتهذيب الأسماء واللغات ، للنووى . وروح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى . لشهاب الدين الآلوسى ، ونيل الأوطار ، للشوكانى ، وبدائع الفوائد ، لابن قيم الجوزية .

وكان ، رحمه الله ، يتأنّق فى طبع الكتب ، ويختار لها الورق الناعم المصقول .

توفى بالقاهرة سنة ١٣٧٦ هـ = ١٩٤٨ م [١] وبموته ماتت مكتبتُه ، ولم يخْلُفه أحدٌ من أولاده فى إدارة المطبعة ، غير أنى رأيت له ولداً ، يشبه أن يكون معتوها ، عرفته منذ نحو عشر سنوات ، يتجوَّل بين مكتبات ومطابع الأزهر ، يحمل الكتب بين هذه وتلك ، ويعرف له أصحابُ هذه المكتبات سابقةَ والده وجهادَه فى نشر التراث ، فيصلونه ببعض أنواع البِرّ .

* * *

حسام الدين القدسى

وهذا رجل من أصحاب الهمم العالية ، جاهد فى نشر التراث جهادَ الأبطال . ومِن دُكّانٍ له صغير ، خلف محكمة الاستئناف ، بحىّ باب الخلق ، بالقاهرة ، خرجت نفائسُ وروائعُ من التراث ، معظمها من الموسوعات .

ومن تاريخ هذا الرجل ، أنه ولد بمدينة دمشق عام ١٣٢١ هـ = ١٩٠٣ م

---

(١) الأعلام ٣١٠/٧ ، ولم يعرف له الزركلى تاريخ مولد ، ولم أعرفه أنا أيضا . وتاريخ الوفاة هذا ، حكاه الزركلى عن الأستاذ الدكتور شكرى فيصل .

وأنه كان يحمل إجازة الليسانس من جامعة دمشق عام ١٩٢٧م [١] ثم بدأ نشاطه هناك بنشر بعض الكتب ، منها : تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى ، للحافظ ابن عساكر ، نشره سنة ١٣٤٧ هـ ، وذيول تذكرة الحفاظ للذهبى ، من تأليف الحسينى ، وابن فهد ، والسيوطى ، وقد نشره فى السنة نفسها ، والمبهج فى تفسير أسماء شعراء الحماسة ، لابن جنى ، سنة ١٣٤٨ هـ ، والإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، لشمس الدين السخاوى ، سنة ١٣٤٩ هـ .

ثم نزل القاهرة ، وأخذ يواصل فيها نشاطه . ومن عجيب أمره أنه كان ينسخ الكتاب بقلمه ، ثم يجمع حروفه الطباعيّة بيده ، ويدفع به إلى المطبعة ، ويتولى تصحيحه بنفسه .

ومما نشر بالقاهرة : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلى (ثمانية أجزاء) سنة ١٣٥٠ هـ ، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، لشمس الدين السخاوى (اثنا عشر جزءا) سنة ١٣٥٣ هـ ، واللباب فى تهذيب الأنساب ، لعز الدين بن الأثير (ثلاثة أجزاء) سنة ١٣٥٦ هـ ، وعيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسِّيَر ، لابن سيد الناس اليعمرى . (جزءان) فى السنة نفسها .

ومما نشره وغاب عنى تاريخُ طبعه ، لبعدى عن مكتبتى فى القاهرة : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، لنور الدين الهيثمى (عشرة أجزاء) ، فتاوى تقى الدين السبكى (جزءان) ، ديوان المعانى (جزءان) ، الفروق اللغوية ، كلاهما لأبى هلال العسكرى ، كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، للقاضى العجلونى (جزءان) . معجم

(١) انظر ما كتبه عنه صديقه الورّاق ، الشيخ زكى محمد مجاهد ، رحمه الله ، فى كتابه : الأخبار التاريخية فى السيرة الزكية ص ٨٦ — القاهرة ١٣٩٦ هـ = ١٩٧٦ م

الشعراء ، للمرزبانى ، ومعه المؤتلف والمختلف ، للآمدى ، المسائل والأجوبة ،والاختلاف فى اللفظ ، كلاهما لابن قتيبة ، التطفيل و أخبار الطفيليين وأشعارهم ، للخطيب البغدادى ، وشرح أدب الكاتب ، للجواليقى ، والكشف عن مساوئ المتنبى ، للصاحب ابن عبَّاد ، ومعه ذم الخطأ فى الشعر ، لابن فارس ، وديوان السّرِىّ الرفّاء . ومنجد المقرئين ، لابن الجزرى ، وجنى الجنتين فى تمييز نوعى المثنيين ، للمحبى . وله غير ذلك كثير .

وكان الشيخ حسام الدين ، رحمه الله ، قد طبع منذ زمن ، خمسة أجزاء من كتاب تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير الأعلام ، للحافظ الذهبى ، ثم توقَّف ، إذ كان مثل هذا العمل الضخم يحتاج إلى مالٍ وجهد ، قصرت يدُ الشيخ عنهما ، وقد سعى ، فى أواخر أيامه لاستكمال طبعه ، بعد أن أخذ وعداً من شيخ الأزهر ، الشيخ عبد الحليم محمود ، بعونه ومساعدته ، وطبع شيئا من أول الكتاب ، ولكن المنيّة أعجلت الرجلين معاً ، رحمهما الله .

وكانت للشيخ حسام الدين ، علاقاتٌ وثيقة بعلماء وأدباء العصر ؛ وبخاصة أحمد تيمور باشا ، ومصطفى صادق الرافعى ـــ الذى قدَّم له شرح أدب الكاتب ، للجواليقى ، وخير الدين الزركلى . ثم كان من ألصق الناس بالشيخ محمد زاهد الكوثرى .

وكان رحمه الله ، يتردَّد علىَّ كثيرا ، فى معهد المخطوطات ، حين صحَّ عزمه على استكمال طبع تاريخ الإسلام ، للذهبى . وكان فى كل زيارة يحرص على أن يحكى لى شيئا ، عن ذكرياته فى نشر الكتب ، وعن طرائف ما يقع عليه فى الكتب ، من تحريف أو تصحيف ، أو سقط ، ثم كان يسوؤه كثيراً ، أن يتناول أحدُهم شيئاً من منشوراته بالنقد أو التعقيب ، ويقول :

إن الناس لا يعلمون ما عانيته وكابدته فى نشر الكتب ، ويعيد ما ذكره لى كثيرا ، من أنه كان ينسخ ويجمع ويصحّح وحده ، دون مُعِين أو شريك .

ومن نوادر ما حكاه لى : أن أديب العربية الكبير ، مصطفى صادق الرافعى ، زاره يوماً فى مكتبته الصغيرة بباب الخلق ، وقال له : أريد أن أتغدّى غداء أزهريا ـــ يعنى الفول والطعميّة ـــ هكذا قال . يقول الشيخ حسام الدين : « فأحضرت له ما طلب ، وبعد الغداء سألته : ترى من يخلفك فى الكتابة ؟ فلم يقل لى : أحمد حسن الزيات ، ولا صادق عنبر [1] ، وإنما قال : محمود محمد شاكر » .

وجاءنى عقب وفاة الأستاذ خير الدين الزركلى ، رحمه الله ، فى ذى الحجة ١٣٩٦ هـ ، وقصَّ على رؤيا ، مفادها أن الزركلى ممَّن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

توفى رحمه الله ، منذ نحو ستّ سنوات ، بالقاهرة .

ومكتبته لا تزال مفتوحة ، وله أولادٌ يقومون عليها ، ويحاولون أن يستنقذوا جهدَ أبيهم من سطو تجار بيروت .

وخير ما أختم به هذه الكلمة الموجزة عن ذلك الرجل العظيم ، ما قاله شيخنا محمود محمد شاكر ، عنه ، قال حفظه الله : « كان فى الناس رجلٌ فاضل ، نشأ صغيراً بأرض الشام ، وشدا من العلم ما شدا ، وكان مجتهداً صبورا ، ثم كتب الله له أن يشتغل بطلب الرزق ، فطلبه فى تجارة

---

(١) أحمد حسن الزيات ، صاحب « الرسالة » معروف ، توفى سنة ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م . أما صادق عنبر ، فهو محمد صادق عنبر ، من أدباء مصر ، له مؤلفات ، تدور كلُّها حول الأدب . توفى سنة ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٨ م . الأعلام ١٦١/٦

الكتب ، فظل يطبع إلى آخر حياته ، كتباً لم تنشر من قبل ، وهى من ذخائر الكتب العربية ، استفاد منها كلُّ طالب علم ، فى أرض اللسان العربىّ ، أو فى غير أرضه ، وأسدى إلى كلّ عالِمٍ معروفاً لا يُنْسَى » (١) .

* * *

وممَّن يتصل بهذه الطبقة من الناشرين النابهين المجاهدين ، وإن كان يقلُّ درجةً من حيث الاهتمامُ بجمع مخطوطات الكتاب المراد نشره : شيخان فاضلان ، وعالمان جليلان ، هما الشيخ محمد حامد الفقى ، والشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد .

أما الشيخ محمد حامد الفقى ، فكان رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية ، وحامل لواء السلفيّة بمصر ، وكان من أشدّ الناس ذكاءً وفطنة ، وهو صاحب معارك وصولات ، وقد كان بينه وبين العلامة الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر ، ما يكون بين الأقران والمتعاصرين .

وقد أنشأ الشيخ الفقى مطبعة السنة المحمدية ، ونشر فيها كثيراً من تصانيفه ، ثم نشر فيها أيضا كثيراً من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزيّة ، وكتب الحنابلة ، وطبقات رجالها ، وقد لقى عوناً ظاهراً من حكومة المملكة العربية السعودية ، ومن رجالاتها البارزين ، وعلمائها الأفاضل ، من أمثال الشيخ سليمان الصنيع ، والشيخ محمد نصيف ، والشيخ محمد سرور الصبان ، رحمهم الله .

---

(١) برنامج طبقات فحول الشعراء ص ١١٨ ، وقد ذكر شيخى كلاماً عالياً نفيساً ، بعد ذلك ، فى المقارنة بين طبعة الشيخ حسام الدين القدسى ، لكتاب « الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ » لشمس الدين السخاوى ، وبين طبعة الكتاب التى قام عليها المستشرق فرانز روزنتال . ولولا ما أخذت به نفسى من الوجازة والاختصار ، لنقلت ذلك الكلام كلَّه ، فهو إلى النفاسة ما هو ! على عادة شيخى فى جميع ما يكتب .

ومن الموسوعات التى نشرها الشيخ الفقى ، كتاب جامع الأصول من أحاديث الرسول . ﷺ . لمجد الدين بن الأثير ، نشره بمشاركة الشيخ عبد المجيد سليم ، شيخ الأزهر ، سنة ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م (اثنا عشر جزءا) [١] .

وشرع قبيل وفاته ، فى نشر كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، لتقى الدين الفاسى ، على نفقة الشيخ محمد سرور الصبّان ، فأصدر منه الجزء الأول ، ثم انتقل إلى رحمة ربه ، فأتمه من بعده الأستاذ فؤاد سيد ، رحمه الله ، ولكنه توفى بعد تمام الجزء السابع ، وبقى الجزء الأخير ، فكان لى شرفُ تحقيقه ، بإشارة أخى الكريم الأستاذ أحمد بن محمد بن مانع ، سنة ١٣٨٨ ه = ١٩٦٩ م .

وكانت وفاته رحمه الله سنة ١٣٧٩ هـ = ١٩٥٩ م [٢]

ومطبعة السنة المحمدية لا تزال قائمةً بأرض شريف بين شارع محمد على وشارع عبد العزيز ، ويقوم عليها أحفادُه ــ بعد وفاة ولده محمد الطيب ــ ولكن ليست لهم عنايةٌ بكتب التراث .

وأما الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، فهو صفحة حافلة من تاريخ نشر التراث العربى . قدّم وحده للمكتبة العربية ما لم تقدمه هيئة علمية ، مدعومةٌ بالمال والرجال .

---

(١) وهى طبعة ناقصة ، أتمُّ منها وأصح ، طبعة دمشق ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م ، بتحقيق الأستاذ عبد القادر الأرناءوط ، وإن كانت هذه الطبعة أيضا قد أخلّت بشئ من آخر الكتاب .

(٢) أفادنى هذا التاريخ أخى الأستاذ الدكتور السيد رزق الطويل ، زميلى بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى . وهو من تلاميذ الشيخ الفقى ، ورئيس جماعة دعوة الحق بمصر .

وقد تعرّض هذا العالمُ الجليل ، فى حياته وبعد مماته لسَيْلٍ طاغٍ من التنقُّص والحَيْف . وقد آن الأوان لكى يوضع هذا الرجل فى موضعه الصحيح ، وأن تُعرف يدُه السابغة الكريمة ، على أهل هذا اللسان العربىّ ، وعلى غير أهله ، ممّن عمل فى رحابه ، واشتغل بعلومه .

ولقد كان من أشدِّ ما رُمى به الشيخ ، فى ميدان تحقيق النصوص : أنه أعاد طبعاتٍ سابقةً عليه ، مما أخرجته مطبعة بولاق ، ومطابع أوربا ، وأنه لم يعبأ بجمع مخطوطات الكتاب الذى ينشره ، وأنه لم يُعْنَ بصنع الفهارس الفنية الجامعة لمسائل الكتاب المنشور .

وهذا حقٌّ كلُّه ، وإنّا نعرف أن الإخلالَ بجمع مخطوطات الكتاب ، وفهرسته فهرسة كاملة ، لا يُقْبَل فى علم تحقيق النصوص ، ولكنّ هذا الإخلالَ لا ينبغى أن يطمسَ تاريخ الرجال ، ويمحوَه محوا . ثم إنه ينبغى أن توضع جهود الشيخ محيى الدين فى إطار هذه المرحلة الثانية ، التى قامت على جهود الأفراد ، والتى كانت تُعْنَى بنشر أكبر عدد متاح من الكتب ، مستخدمةً الشكل الطباعىّ الحديث ، من الورق الأبيض ، والعناية بالضبط ، وعلامات الترقيم .

على أنّ جمْعَ النسخ المخطوطة للكتاب وفهرستَه فهرسةً فنية ــ مع الإقرار بأهمّيتهما وضرورتهما ــ ليسا هما وحدَهما تحقيق النصوص ؛ فإنّا نرى فى هذه الأيام مِن المحقِّقين من يحشد خمس نُسَخ للكتاب ، أو ستاًّ ، ويشغل حيِّزا كبيرا من حواشى الكتاب ، بما دَقَّ وجلَّ ، من فروق هذه النُّسَخ ، ثم يلتوى عليه النصُّ فى بعض المواضع ، ويخفى عليه مكانُ الصواب منه ، فلا يُحِسُّ ذلك ولا يفطن له ، ويترك قارئه يتخبّط فى رموز النُّسَخ ، وفروقها الناجمة عن جهل النُّسَّاخ أو غفلتهم ، ثم إنا نرى أيضا من

يزهو بكثرة فهارسه ، فيضع فى فهرس الأيام : « يوم الجمعة ، ويوم عيد الفطر » ، مع أن المراد بفهرس الأيام : أيام العرب ، أى الوقائع والحروب .

ولقد كان الشيخ محيى الدين ، رحمه الله ، واضحاً صريحاً ، مع نفسه ، ومع الناس ، حين أبان عن خطّته فى نشر الكتب ، وكشف عن غايته التى تغيَّاها فى ذلك ، وهى تلك الخطة التى تقوم على اختيار الحرف الطباعىّ الكبير ، وضبط النصّ ضبطا صحيحا ، لا يبقى معه لبسٌ أو اشتباه ، وإضاءته بالشروح اللغوية التى تنفى عنه الجهالةَ أو الغموض ، مع العناية بعلامات الترقيم ، وأوائل الفقرات ، وعدم تداخل أجزاء الكلام ، كل ذلك فى ثوبٍ زاهٍ قشيب ، من الورق الأبيض الناعم المصقول . وقد أبان الشيخ ، رحمه الله ، عن ذلك ، فى كثير من مطبوعاته ، فيقول فى مقدمة كتاب « العمدة » لابن رشيق ، الذى نشره عام ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م ، فى معرض حديثه عن الطبعات السابقة للكتاب :

« فإن التصحيف والتحريف ليفشُوان فيها ، وإنَّ نظامَ وضعِها ، وتلاحُقَ مباحثِ الكتاب ــ مع تشعُّبها وكثرةِ فنونها ــ لَيباعدُ بينك وبين الإفادة منه . وهذه العيوبُ فاشية فى مطبوعاتنا العربية ، وقلّما يخلو منها ــ مع الأسف الذى يقطّع نياطَ قلوبنا ــ كتابٌ من كتب هذه اللغة المسكينة ، وبخاصة كتب أسلافنا المتقدِّمين . وليس من علةٍ لانصراف الناشئة العربية ــ فيما نعتقد ــ عن هذا التراث الثمين ، إلاّ هذا التشويه الغريبِ الذى يُظهر الناشرون عليه كتب آبائنا .... ونحن نعتقد عقيدة لا تداخلنا فيها خلجةُ شك ، أن الحرف الصغير ، والورق الأصفر ، وحِرصَ التجار على ظهور الكتاب فى أقرب وقت ، وفى أقلّ ما يمكن من عدد الصفحات ، كل أولئك أكبر الفوارق بين الكتب العصريّة ، الشيّقة

الأسلوب ، المتسلّطة على قلوب النَّشء ، وبين كتب العصر القديم » . ثم يقول : « وقد خلق الله فى نفسى حبَّ السَّلَف ، والتفانىَ فى الدفاع عن علومهم وأفكارهم ، والحرصَ على إذاعة فضلهم ، وعظيم مِنّتهم علينا ، وعلى من يأتى بعدُ من الأجيال المتلاحقة » .

ويقول فى مقدمة تحقيق كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، الذى نشره عام ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م ، مشيراً إلى الطبعة التى كان قد بدأ طبعها الأستاذ أحمد يوسف نجاتى ، ولم يتمها . يقول الشيخ رحمه الله :

« وعندى أن التوفرّ على الدقّة فى تحقيق النصّ الأصلى للكتاب ، وإخراجه فى ثوب أنيق ، يوافق رغباتِ هذا العصر ، خيرٌ من التطويل بالحواشى التى قد تطوِّح بالمحقّق والقارئ فى بيداوات المُنْبَتّ الذى لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى » .

على أن الشيخ محيى الدين ، رحمه الله ، لم يُغفل شأن المخطوطات بمرَّة ، فقد رجع فى بعض ما نشر إلى أصول مخطوطة جيدة ، كما ترى فى كتاب « جواهر الألفاظ » لقدامة بن جعفر ، الذى نشره لحساب السيد محمد أمين الخانجى ، وغير ذلك ، كما أنه لم يهمل الفهارس بمرة ، فقد صنع فهرساً جامعاً لألفاظ كتاب « جواهر الألفاظ » المذكور ، وفهْرَسَ شواهد كتب النحو والبلاغة التى أخرجها ، وشواهد شرح الحماسة [١] للتبريزى ، منسوقةً على حروف الهجاء . كما أنه صنع فهارس جيدة لكتاب وفيات الأعيان ، شملت :

---

(١) وهذا الكتاب مِن آنَقِ ما أخرج الشيخ ، ولا يكاد يضاهيه فى جمال إخراجه إلاَّ مطبوعات دار الكتب المصرية .

فهرس أعلام الكتاب ــ أى التراجم ــ بإحالاتها [١] ، فهرس الطبقات الزمنية : علماء كل قرنٍ على حِدة . فهرس الطبقات العلميّة : الخلفاء والوزراء ، القضاة ، وسائر علماء كل فنٍّ وعِلم . فهرس الألفاظ التى نصّ ابن خلكان على ضبطها ، أو شرح معناها ، وسماه : « فهرس التقييدات » ، وهذا من أنفع الفهارس ، لأنّ لابن خلكان كَلَفاً وعناية بضبط الأعلام والأنساب والبلدان ، يذكره فى آخر الترجمة ، وقد أطلعنى شيخى الجليل عبد السلام هارون ، أطال الله فى الخير بقاءه ، على كرّاسة قديمة عنده ، سجّل فيها هذه الفوائد والتقييدات التى نثرها ابن خلكان فى كتابه . وهو الذى أشار على الشيخ محيى الدين بصنع ذلك الفهرس . لكن الشيخ ، رحمه الله ، لم يلتزم ذلك فى كل مطبوعاته ، وقد حدثنى الأستاذ فؤاد سيد ، عالم المخطوطات بدار الكتب المصرية ، رحمه الله ، قال : « سألت ذات يوم الشيخ محيى الدين عبد الحميد : لماذا لا تهتم بفهرسة ما تنشر يا مولانا ؟ فأجاب : أَمِن أجلِ خمسة عشر مستشرقا أضيع وقتاً هو أولى بأن يصرف إلى تحقيق كتاب جديد ؟ » ، أو كما قال .

ومن ذلك وجد الطاعنون سبيلاً إلى الشيخ ، للتنقُّص من عمله ، وكأنما أحسَّ هو ذلك ، فقال فى مقدمة جواهر الألفاظ ، الذى نشره سنة ١٣٥٠ هـ = ١٩٣٢ م :

« وعَسَيْتَ أن تغمطنى حقّى ، وتجحدَ ما أسلفتُ لك من اليد ، فى إخراج هذا الكتاب ، وتقول : وماذا صنعتَ ؟ وفيم أجهدتَ نفسَك ؟

---

(١) لكنه أهمل التراجم الضمنيّة ، فقد جرى ابن خلكان أحيانا على أن يترجم لبعض الأعلام عرضاً ، فى أثناء الترجمة الأصلية ، وترى ذلك فى فهارس الطبعة التى حققها الأستاذ الدكتور إحسان عباس . أحسن الله إليه .

ولكنك لو علمت أننى عرضت ألفاظ الكتاب على معاجم اللغة ، لفظاً لفظا ، لأثبتها لك صحيحةً موثوقاً بها ، وأننى ضبطت كلماتِه كلَّها ، ورتّبتُ أبوابه ، وجعلت لكلّ بابٍ منها اسماً يجمع شملَه ، وعنواناً يدلُّ عليه ، لأدركت مقدارَ الذى بذلته من الجَهْد ، ولم تستكثر علىَّ أن أطالبك بكفاء هذه الصنيعة من الشكر » .

ومهما اختلف الناسُ فى أمر هذا الرجل ، وتقدير جهوده فى نشر التراث ؛ فلا أظن أن أحداً يُمارى فى أنّ هذا الجيلَ كلَّه ، الذى تعلَّم النحوَ وعلَّمه ، فى شرق الدنيا وغربها ، مدينٌ للشيخ محيى الدين بدينٍ كبير ، يجب أداؤه : شكراً ، ودعاءً له بالمغفرة والرضوان ، فقد غَبَر زمان ، وأتى زمان ، وليس بين أيدى طلبة العلم من كتب النحو ، إلاّ ما أخرجه الشيخ ، محرَّراً مضبوطا ، فى أجمل صورة وأبهاها . وإن كثيراً من المُعْربين الذين يتقنون إعراب الشواهد وتوجيهها ، إنما أفادوا من إعراب ألفية ابن مالك ، وإعراب الشواهد ، اللذين نثرهما الشيخ ، فى حواشى ابن عقيل ، وأوضح المسالك ، وقطر الندى ، وشذور الذهب . ودَعْ عنك ما يقال من أنه أغار على إعراب فلان ، أو سلخ توجيه فلان من الأقدمين ، فقد قرأنا هذا وذاك ، ووجدنا فضل الشيخ ظاهراً ، وجهدَه واضحاً ، فى ذكر الراجح من الآراء والمرجوح ، والأخذ بيد القارىء إلى أرشد الأقوال وأصحِّها ، إلى ما أفاض فيه ، من نسبة الشواهد ، وشرح ما فيها من الغريب ، والتعريف بالشعراء ، وذكر سابق البيت أو لاحقه ، ممّا لا يظهر المعنى إلاَّ به ، كل أولئك بعبارة ، فيها من حُسنِ البيان ، وجمال الأداء ، ما يغرى بقراءتها والاستزادة منها ، بل إن بعض عبارات الشيخ ، رحمه الله ، قد صارت من المحفوظات المأثورات ، مثل قوله : « لم نقف لهذا الشاهد على نسبة إلى قائل معين » .

وقد رُزِقت مطبوعاتُ الشيخ النحويّة ، الحُظْوَة والقبولَ ، والذُّيوعَ والانتشار ؛ لإخلاص النيّة فيها ، وسخاءِ الجهد المصروف إليها . وهذا كتاب « شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك » الذى أخرجه أول مرّة ، سنة ١٣٥٠ هـ ، يطبع الطبعة الخامسة عشرة سنة ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م . وقد أراد بعضهم مزاحمة الشيخ فنشر طبعةً من هذا الشرح ، بتحقيق جديد ، يحمل اسمه ، ولكن هذه الطبعة ماتت فى مهدها ، ولم يكد الناس يسمعون عنها شيئا . فصارت هذه وتلك كالذى قاله النابغة :

بأنك شمسٌ والملوك كواكبٌ   إذا طلعتْ لم يبدُ منهنّ كوكبُ

وقبل أن أذكر لك بعض الكتب ، التى قام الشيخ بتحقيقها ونشرها ، أحبّ أن أعلمك ، أنه ولد سنة ١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م ، بقرية كفر الحمام ، بمحافظة الشرقية ، وتلقى تعليمه بمدينة دمياط ، ثم التحق بالقسم العالى بالأزهر الشريف ، وحصل على شهادة العالمية النظامية سنة ١٩٢٥ م . ودرَّس بالقسم الثانوى بالأزهر ، ودرَّس بالسودان أيضا ، ثم كان أستاذا بكلية اللغة العربية ، فعميداً لها ، وفى أثناء عمادته لكلية اللغة العربية ، سَنَّ سُنّةً حسنة ، حيث زوَّد طلاّب الكلية بطائفة من أمهات كتب التراث ، تكون ملكاً خاصاً لهم ، منها : الكامل للمبرد ، وأمالى أبى على القالى ، ومجمع الأمثال ، للميدانى ، والكشاف للزمخشرى . وانتخب عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، سنة ١٩٦٤ م .

توفى ، رحمة الله عليه ، سنة ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م . وكان آيةً فى الذكاء والفطنة ، وحُسْن السَّمْت ، والغَيْرة على الأزهر ، وتاريخه ورجاله ، كما عُرف عنه القصدُ فى القول ، وصَوْنُ نفسهِ ، وضبطُ تصرفاته ، مما فسَّره بعضهم بأنه من باب الكِبْر والعُجْب بالنفس .

ولم يُنصِفْه الزركلى ، رحمه الله ، حين ترجم له فى الأعلام ٧ / ٩٢ ، ترجمة موجزة ، قال فيها : « واشتهر بتصحيح المطبوعات (أو تحقيقها) فأشرف على طبع عشرات منها » . وهذه كلمة قليلة فى حق الشيخ محيى الدين ، لا تفى بعلمه وجهوده ، ثم إنها كلمة قد تلتقى مع الذين يهوِّنون من أثر الشيخ وجهوده . مع أن الزركلى رحمه الله من المؤرخين المنصفين ، العارفين للناس أقدارهم ، ثم إنه قد خالط علماء مصر زمناً ، أيام إقامته بالقاهرة (١) ، ثم هو أيضا أديب ناقد ، يعرف فرق ما بين الطبعات ، ويستطيع أن يميز الخبيث منها من الطيب .

وقد بدأ اهتمام الشيخ محيى الدين ، بنشر التراث مبكِّراً ، ومن أوائل ما نشر كتاب « شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى » الذى نشر طبعته الأولى عام ١٣٤٢ هـ وكان له من العمر حنيئذ أربع وعشرون سنة ، وشغل أوقاته كلَّها بنشر العلم ، وإذاعته .

وإليك ما يحضرنى من تحقيقاته ، أذكرها لا على سبيل الحصر والإحاطة ، فأنا إنما أكتب من الذاكرة ، لبعدى عن مكتبتى بالقاهرة . وبعض ما أذكر من الكتب ذوات الأجزاء مثل وفيات الأعيان المكون من ستة أجزاء ، ويتيمة الدهر ، والسيرة النبوية ، وشرح الحماسة ، من أربعة أجزاء :

١ ــ التحفة السنيّة فى شرح المقدمة الآجرومية .

---

(١) معلوم ان الزركلى طيّب الله ثراه ، قد أنشأ مطبعة بالقاهرة ، أواخر عام ١٩٢٣ م ، نشر فيها بعض كتبه ، وكتباً أخرى ، إلى أن باعها ، فى سنة ١٩٢٧ م ، ثم قضى بالقاهرة أعواماً ، مستشاراً للمفوضية العربية السعودية ، ووزيرا مفوضا ومندوباً دائما للمملكة العربية السعودية بمصر ، لدى جامعة الدول العربية ، من سنة ١٩٣٤ م إلى سنة ١٩٥٧ م . وله بمصر ، صِهْرٌ ورَحِم . وقد ظهرت الطبعة الأولى والثانية من كتابه العظيم (الأعلام) بالقاهرة .

٢ ـــ شرح المقدمة الأزهرية ، للشيخ خالد الأزهرى .
٣ ـــ شرح قطر الندى وبل الصدى ، لابن هشام المصرى .
٤ ـــ شرح شذور الذهب فى معرفة كلام العرب ، له أيضا .
٥ ـــ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك .
٦ ـــ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، لابن هشام المصرى (الشرح الوسيط فى ثلاثة أجزاء . والشرح الكبير فى أربعة أجزاء) .

وهذه الكتب الستة بهذا الترتيب كانت مقررات الدرس النحوىّ ، فى المرحلتين الابتدائية والثانوية ، بالأزهر الشريف ، إلى عهدٍ قريب ، أدركتُه وانتفعتُ به والحمد لله .

٧ ـــ مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام أيضا .
٨ ـــ المفصل للزمخشرى .
٩ ـــ الإنصاف فى مسائل الخلاف ، لأبى البركات الأنبارى .
١٠ ـــ شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك (لم يتمه) .
١١ ـــ خزانة الأدب ، للبغدادى (نشر منه الجزءين : الأول والثانى ، سنة ١٣٤٧ هـ ، وقد استوعبا المجلد الأول من طبعة بولاق) .
١٢ ـــ شرح شافية ابن الحاجب ، للرضىّ الإستراباذى . بالاشتراك مع الشيخين الجليلين محمد نور الحسن [1] ، ومحمد الزفزاف .

---

(١) كان رحمه الله من فضلاء علماء السودان ، وقد عاش حياته كلَّها فى مصر ، ويذكر تلاميذه من علمه وفضله الشئ الكثير . وكان عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر ، وتولى وكالة وزارة الإرشاد فى أوائل الثورة المصرية ، وبعدها صار وكيلاً للأزهر ، يوم أن كان الشيخ محمود شلتوت شيخاً له . وكان بيته مجمعاً للعلماء والفضلاء .

أما الشيخ محمد الزفاف ، رحمه الله ، فكان من فضلاء العلماء الذين درَّسوا بدار العلوم ، وكان حسَنَ السمت وضيئا . وقد شارك أيضا فى تحقيق الجزء الأول من سر صناعة الإعراب ، لابن جنى .

١٣ ــ شرح شواهد الشافية ، للبغدادى ، مع الشيخين الفاضلين .
١٤ ــ مختصر المعانى ، لسعد الدين التفتازانى .
١٥ ــ معاهد التنصيص فى شرح شواهد التلخيص ، للعباسى .
١٦ ــ سنن أبى داود .
١٧ ــ الموازنة بين البحترى وأبى تمام ، للآمدى .
١٨ ــ العمدة ، لابن رشيق .
١٩ ــ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، لضياء الدين بن الأثير .
٢٠ ــ شرح المعلقات السبع ، للزُّوزَنى .
٢١ ــ شرح القصائد العشر ، للتبريزى .
٢٢ ــ شرح الحماسة ، للتبريزى .
٢٣ ــ أدب الكاتب ، لابن قتيبة .
٢٤ ــ مجمع الأمثال ، للميدانى .
٢٥ ــ المجمل فى اللغة ، لابن فارس (لم يتمه) .
٢٦ ــ ديوان عمر بن أبى ربيعة .
٢٧ ــ ديوان الشريف الرضىّ (لم يتمه) .
٢٨ ــ جواهر الألفاظ ، لقدامة بن جعفر .
٢٩ ــ شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى .
٣٠ ــ السيرة النبوية ، لابن هشام .
٣١ ــ مروج الذهب ، للمسعودى .
٣٢ ــ يتيمة الدهر ، لأبى منصور الثعالبى .
٣٣ ــ وفيات الأعيان ، لابن خلكان .
٣٤ ــ فوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبى .
٣٥ ــ تاريخ الخلفاء ، للسيوطى .

٣٦ ـــ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، للسَّمْهودى .
٣٧ ـــ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، للمقّرى .
٣٨ ـــ الفرق بين الفرق ، لعبد القاهر بن طاهر البغدادى .
٣٩ ـــ المنهج الأحمد فى تراجم أصحاب الإمام أحمد ، لمجير الدين العليمى (لم يتمه) .
٤٠ ـــ المُسَوَّدة فى أصول الفقه ، لآل تيمية .
٤١ ـــ الموافقات فى أصول الأحكام ، للشاطبى .

إلى غير ذلك ، ممّا لست أذكره ، من متون الفقه المقررة على طلبة الأزهر ، وغيرها .

أرأيت ؟ هذا جهاد الرجل ، وتلك جهوده ، فاذكُرْها وادْعُ لصاحبها ، ثم دَعْ عنك ما يقوله « رجلٌ شبعانُ مُتّكئٌ على أريكته » ؛ يقول لك : إن الشيخ محيى الدين رجلٌ جمّاع ! فقد قالوا من قبل : إن السُّيوطىّ جمَّاع ! وهذا منطق العجزة والخاملين ، وليتنا نجمع مثل ما جمعوا ، ثم لا تعبأ بقولهم : إن الشيخ محيى الدين ما فعل إلا أن نقل التراث من الورق الأصفر إلى الورق الأبيض ، ولئن صحَّ هذا ، فإنّ وراء ذلك النقل عالِماً جليلا ، خبيرا باللغة وأسرارها ، عليماً بالنحو وخفاياه .

رحم الله الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، رحمة سابغة واسعة ، وجزاه خير ما يُجْزى به مجاهدٌ عن دينه ولغته .

المرحلة الثالثة

وهى مرحلة النُّضج والكمال ، من حيث استكمالُ الأسباب العلميّة ، واصطناعُ الوسائل الفنّيّة ، المُعينة على إخراج التراث إخراجاً دقيقا ، يقوم على جمع نُسَخ الكتاب المخطوطة ، والمفاضلة بينها ، ثم اتخاذ إحدى النُّسَخ أماً ، أو أصلا ، وإثبات فروق النُّسَخ الأخرى ، وما يتبع ذلك من إضاءة النصّ ببعض التعليقات والشروح ، وصنع الفهارس التحليليّة الكاشفة لكنوز الكتاب ، وما يسبق ذلك كلَّه من التقديم للكتاب ، وبيان مكانه فى المكتبة العربية ، وموضعِه من كتب الفنّ الذى يعالجه ؛ تأثّرا وتأثيرا ، ثم الترجمة لمؤلفه .

ونستطيع أن نسمّىَ هذه المرحلة : مرحلة دار الكتب المصرية . إذ كانت منشوراتها من كتب التراث تحمل كلَّ سمات ذلك المنهج العلمىّ الدقيق ، فى إخراج النصوص .

وبدءة ذى بدء ؛ فلا بُدَّ من الاعتراف بأنّ ذلك المنهج الذى أصَّلَتْه مدرسة دار الكتب المصرية للمحقّقين العرب ، قد تأثّر إلى حدٍّ مّا بمناهج المستشرقين الذين شُغِلوا بتراثنا ، ونشطوا لإذاعته ونشره ، منذ القرن الثامن عشر الميلادى ، أو قبله بقليل (١) .

وكان صاحب الفضل ، فى مَدِّ الجسور بين مصر وأوربّا ـــ فيما يتصل بنشر التراث ـــ أحمد زكى باشا ، الذى اتصل بعلماء الاستشراق ، و مثّل مصر فى مؤتمراتهم .

---

(١) سيأتى ـــ إن شاء الله ـــ حديث مفصَّل عن جهود المستشرقين ، فى نشر التراث العربى .

وهذا أحمد زكى باشا ، كان من كبار الكتّاب والخطباء فى مصر . وُلد بالأسكندرية ، عام ١٢٨٤ هـ = ١٨٦٧ م ، وتخرّج بمدرسة الإدارة والحقوق بالقاهرة ، وأتقن الفرنسية ، وكان يفهم الإنجليزية والإيطالية ، وله باللاتينيّة ، وقام بفكرة إحياء الكتب العربية . وكان رحمه الله وثيق الصلة بعلماء الاستشراق ، وأحكم صلته برجالات العرب فى جميع أقطارهم ، وكان محبًّا للعربية ، فتسمَّى بشيخ العروبة ، وسمىَّ داره بيت العروبة ، وجمع مكتبةً فى نحو عشرة آلاف كتاب ، ووقفها ، فنُقلت بعد وفاته إلى دار الكتب المصرية ، وسُمِّيت فيها : المكتبة الزكيّة ، ورُمز لها فى فهارس الدار ، بالحرف (ز) . توفى سنة ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م . قال الأمير شكيب أرسلان ، فى وصفه : « كان يقظةً فى إغفاءة الشرق ، وهبّةً فى غفلة العالم الإسلامى ، وحياةً فى وسط ذلك المحيط الهامد » [١] .

ويقول عنه شيخى عبد السلام هارون : « ولعلّ أوّلَ نافخ فى بُوق إحياء التراث العربىّ ، على المنهج الحديث فى مصر ، هو المغفور له أحمد زكى باشا ، الذى قام بتحقيق كتاب « أنساب الخيل » لابن الكلبى ، و « الأصنام » لابن الكلبى أيضا ، وقد طبعا فى المطبعة الأميرية (مطبعة بولاق) سنة ١٩١٤ م ، باسم لجنة إحياء الآداب العربية ، التى عُرفت فيما بعد باسم القسم الأدبىّ ، ولعلّ هذين الكتابين مع كتاب « التاج » للجاحظ ، الذى حققه أيضا ، من أوائل الكتب التى كُتِب فى صدورها كلمة « بتحقيق » ، كما أن تلك الكتب قد حظيت بإخراجها على أحدث المناهج العلمية للتحقيق ، مع استكمال المكمّلات الحديثة ، من تقديم النصّ إلى القرّاء ، ومن إلحاق الفهارس التحليلية ، ويضاف إلى ذلك أنه

---

(١) الأعلام ١٢٧/١ ، وذكر له من تصانيفه الشئ الكثير .

أوّل من أشاع إدخال علامات الترقيم الحديثة ، فى المطبوعات العربية ، وألّف فى ذلك كتاباً ، سمّاه « الترقيم فى اللغة العربية » ، طبع فى مطبعة بولاق ، فى زمن مبكر جدا ، هو سنة ١٩١٣ » [١] .

ومما حقّقه شيخ العروبة أيضا ، كتاب « نَكْت الهِمْيان [٢] فى نُكَت العِميان » لصلاح الدين الصفدى ، ونشره عام ١٣٢٩ هـ = ١٩١١ م .

وعلى وقْع خطوات أحمد زكى باشا ، وبهُدًى من توجيهه وإرشاده ، اندفعت دار الكتب المصرية ، فى طريق نشر التراث ، وتكوّن بها القسم الأدبى ، الذى أشرف على إخراج الكتب ، وكان يرأسه المغفور له الأستاذ أحمد زكى العدوى ، وكان هذا القسم مدرسة كبرى فى القدوة المثالية للمحققين المعاصرين ، وكان يضمّ مشيخة جليلة من العلماء الذين أخلصوا لله فيما أُسْنِد إليهم ، ولم يَحْظَوْا بمعشار ما يحظى به أدعياءُ التحقيق ، والراكضون خلف « التراث » ، فى هذه الأيام ، أذكر منهم ، بجانب الأستاذ أحمد زكى العدوى : الشاعر الضرير الشيخ أحمد الزين ، والشيخ عبد الرحيم محمود ، [٣] والشاعر أحمد نسيم ، والأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعى ، والشيخ محمد عبد ربّ الرسول ، والشيخ أحمد عبد العليم البردونى والعالم الجزائرى الشيخ إبراهيم اطفيّش . ومما يجْمُل ذكرُهُ هنا أن الشيخ محمد الخضر حسين ، العالم التونسى الكبير ، وشيخ الأزهر — فى أول قيام الثورة المصرية — عمل مصححاً بدار الكتب المصرية [٤] .

---

(١) التراث العربى ص ٥٣ ، ٥٤

(٢) الهميان ، بكسر الهاء ، وسكون الميم : شِدادُ السراويل ، ووِعاء تحفظ فيه الدراهم .

(٣) سيأتى لهما ذِكْر ، فى محاضرة « التصحيف والتحريف » .

(٤) الأعلام ١١٤/٦ ، وانظر مقدمة الأغانى ص ٥٩

ومن نفائس التراث التى أصدرها القسم الأدبى هذا : صبح الأعشى ، للقلقشندى ، فى أربعة عشر مجلدا ، سنة ١٩٢٠ م ، وقد طبع فى مطبعة بولاق باسم دار الكتب المصرية ، وتعدّ هذه الطبعةَ الثانية ، إذ كان قد طبع ذلك فى مطبعة بولاق ، سنة ١٩٠٥ م .

ثم أنشأت دار الكتب المصرية مطبعة خاصةً بها ، جمعتْ لها كلَّ أسباب الجودة والإتقان ، بحيث صار الكتاب المطبوع بدار الكتب المصرية ، عنواناً على أحسنِ إخراج ، وآنَقِ صورة .

ولعلّ أولَ كتاب صدر عن القسم الأدبى ، بهذه المطبعة ، هو : نهاية الأرب لشهاب الدين النويرى ، الذى بدأت طبعه محقّقا ، سنة ١٩٢٣ م ، وقد والت طبعه إلى الجزء الثامن عشر . ثم أخرجت منه الهيئة المصرية العامة للكتاب ، بعد ذلك ، إلى الجزء الرابع والعشرين ، ولا تزال منه بقية .

وكانت الصيحة المدوّية لدار الكتب المصرية ، تَبَنِّيها لطبع كتاب « الأغانى » ، لأبى الفرج الأصبهانى ، بناءً على اقتراح السيّد على راتب [١] ، الذى تكفّل بنفقات طبعه ، وصدر الجزء الأول منه ، فى سنة ١٩٢٧ م ، وحظى بعناية كاملة ، فى إعداد الأصول ، وصنع الفهارس التحليلية ، فى نهاية كل جزء من أجزائه [٢] . وقد توقفت الدار عند تمام الجزء السادس عشر ، ثم تولت الهيئة المصرية العامة للكتاب ، استكمال طبع بقية

---

(١) هو على راتب بن محمد بن أبى بكر باشا راتب ، من أعيان مصر ، ومن أهل القاهرة ، عنى بالأدب ، وأعان دار الكتب المصرية ، على إعادة نشر « الأغانى » بأن تكفّل بنفقة طبعه ، وأنفق على إعادة طبع كتاب « الأفعال » لابن القوطية . توفى بالقاهرة سنة ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥ م . الأعلام ٣٠٧/٦

(٢) التراث العربى ص ٥٤

الأجزاء ، إلى الرابع والعشرين ، وبه تمّ الكتاب ، وكان ذلك الإتمام بإشراف وهمّة الأستاذ المحقق محمد أبو الفضل إبراهيم ، رحمه الله ، وأجزل له المثوبة .

وفى مطبعة دار الكتب المصرية ، وعلى منهجها القويم ، خرجت هذه النفائس : تفسير القرطبى (عشرين جزءا) ، والنجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة ، لابن تغرى بردى ، الذى وقفت به الدار عند نهاية الجزء الثانى عشر ، وتولّت الهيئة المصرية إتمامه ، فجاء فى ستة عشر جزءا .

وكان صاحب الفضل ، فى نشر هذا الكتاب ، عبد الخالق ثروت باشا ، رئيس وزراء مصر ، سنة ١٩٢٢ م ، فهو الذى أشار على دار الكتب ، بطبع الكتاب . وكان لهذا الوزير عناية بالعلم ونشره ، وقد سبق أنه كان أحد أعضاء الجمعيّة التى قامت على نشر « المخصص » لابن سيده .

وشروح سقط الزند ، لأبى العلاء المعرى (خمسة أجزاء) ، والتعريف بآثار أبى العلاء (مجلد ضخم) ، وعيون الأخبار ، لابن قتيبة (أربعة أجزاء) ، والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، ليحيى ابن حمزة العلوى (ثلاثة أجزاء) ، وأساس البلاغة ، للزمخشرى (جزءان) ، والفاضل ، للمبرد ، والمعرّب ، للجواليقى ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ، للمغفور له ، والمرضيِّ عنه ـــ إن شاء الله ـــ الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى .

ومن دواوين الشعر : ديوان الهذليين [1] (ثلاثة أجزاء) ، وديوان

---

(١) وهذا غير « شرح أشعار الهذليين » صنعة أبى سعيد السكرى ، الذى نشر بتحقيق المرحوم الأستاذ عبد الستار فراج ، ومراجعة شيخنا الجليل محمود محمد شاكر . وقد صدر فى ثلاثة أجزاء أيضا ، عن دار العروبة بالقاهرة ، وينبغى أن يكون تعويلك على هذا الشرح دون سواه .

مهيار الديلمى (أربعة أجزاء) ، وديوان زهير بن أبى سلمى ، وديوان ابنه كعب ، رضى الله عنه ، وديوان حميد بن ثور الهلالى ، رضى الله عنه ، وديوان جران العود ، وديوان نابغة بنى شيبان ، وديوان سحيم عبد بنى الحسحاس ، وديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى .

ومن الموسوعات التى بدأت دار الكتب طبعها ، ولم تتمها : مسالك الأبصار ، لابن فضل الله العمرى — وصدر منه جزء واحد — والمنهل الصافى ، لابن تغرى بردى ، وصدر منه أيضا جزء واحد .

وقد زيَّنتْ دار الكتب المصرية مطبوعاتها بهذه الطبعة الأنيقة المُعْجِبة ، من المصحف الشريف ، الذى عرف فى تاريخ طبع القرآن الكريم باسم : مصحف دار الكتب المصرية . وطبع سنة ١٣٧١ هـ = ١٩٥٢ م ، باشراف لجنة من المشايخ : على محمد الضباع ، ومحمد على النجار ، وعبد الفتاح القاضى ، وعبد الحليم بسيونى ، وأحمد عبد العليم البردونى ، وإبراهيم اطفيّش .

وتدور الأيام ، وتضعُف العزائم بضعف الرجال ، ويُوَسَّدُ الأمرُ إلى غير أهله ، ويدعو الداعى إلى شيءٍ نُكُر ، وهو إلغاء القسم الأدبى . يقول شيخنا عبد السلام هارون :

« ثم ضعفت العناية بهذا القسم إلى أن تولّي الأستاذ أمين مرسى قنديل ، إدارة دار الكتب ، فقام بمجهود ضخم جداً ، لمستُه بنفسى ، إذ حاول أن ينقذ هذا القسم من الفناء ، فدبَّت الحركة فيه ، وحاول أن يخلّص كتاب « الأغانى » من ورطته التاريخية ، فعهد إلى بعض العلماء بإتمام ما بقى من أجزائه (٢) ، ولكن الظروف لم تسعفه بتنفيذ فكرته النشيطة ، وكاد القسم الأدبى فى عهده يرتقى القمّة ، فى نشر موسوعات التراث ، ولكن

---

(١) وكان من نصيب شيخنا تحقيق الجزء الخامس عشر منه .

أطاحت بذلك فكرةٌ خاطئة مغرضة ، تزعم أن ليس من وظائف دور الكتب فى أوربا ، أن تضطلع بنشر التراث ، وكأننا فى جميع خطواتنا إنما نترسَّمُ أوربّا ، فى حقّها وباطلها .

وفى أسفٍ بالغ ودَّع المثقفون هذا القسمَ الأدبيَّ ، الذى قُضِي على نشاطه بعد عهد أمين مرسى قنديل ، أطال الله فى حياته .

ويُعَدُّ إلغاء هذا القسم جريمةً لا تغتفر فى حقّ إحياء التراث العربىّ ، ويجب كلْ الوجوب أن يُبّعثَ ثانيا ؛ ليؤدِّىَ رسالته التى لا يستطيع أداءَها غيرُه ، نظراً إلى وفرة المراجع المخطوطة والمطبوعة ، وإمكان تجنيد طائفة من العلماء ، وإعداد جيلٍ يتلقى فنّ التحقيق بوجهٍ عمليٍّ ، فى رحاب دار الكتب » (١) .

قلت : وحين تولى الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، أشلاء هذا القسم المذبوح ، حاول أن ينفخ فيه ، فصدر فى أيامه : إنباه الرواه على أنباه النحاة ، للقفطى ، بتحقيقه (ثلاثة أجزاء) ثم طبع الجزء الرابع بعد أمدٍ طويل ، والخصائص ، لابن جنى بتحقيق العلاَّمة المرحوم الشيخ محمد على النجار (ثلاثة أجزاء) ، ومعانى القرآن ، للفراء ، أصدرت منه دار الكتب جزءا ، بتحقيق الشيخ النجار ، والأستاذ أحمد يوسف نجاتى ، ثم استكملت الهيئة المصرية العامة للكتاب طبع الجزءين الباقيين ، وكان الثانى بتحقيق الشيخ النجار ، والثالث بتحقيق الأستاذ الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبى ، والمعارف لابن قتيبة ، بتحقيق الدكتور ثروت عكاشة ، وزير الثقافة المصرية فى ذلك الوقت .

---

(١) التراث العربى ص ٥٤ ، ٥٥

وفى السنوات الأخيرة أراد القائمون على دار الكتب ، إعادة القسم الأدبى ، فيما سَمَّوه : « مركز تحقيق التراث » ، ولكن هيهات ! على أنَّ من حسنات هذا المركز ، نشرَ ديوان ابن الرومى ، كاملاً فى ستة أجزاء ، بتحقيق الأستاذ الدكتور حسين نصار ، ومعاونة بعض الشباب الذين أريد تدريبهم على تحقيق النصوص ، ومنهم الأخ الأستاذ منير المدنى ، أحد خرِّيجى دار العلوم النجباء . وكانت أمنيّة غالية .

ومما يُستطرَف ذكرُه هنا ، أن كثيراً من الأدباء والمحقِّقين ، قد حاولوا إخراج هذا الديوان ، ولكنْ صدَّهُم عنه ما أُشيع من أن الاشتغال بآثار ابن الرومى ، مَشْأمةٌ جالِبةٌ للغمِّ والحزن ، فكانت جرأةً وعَزْمةً من عَزَمات الدكتور حسين نصار . ومن العجيب أنه فى أيام اشتغاله بتحقيق الديوان ، ولى عمادة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ثم ولى إلى جانبها رئاسة أكاديمية الفنون ، وفيما بين هذين المنصبين انتخب بالإجماع مديراً لمعهد المخطوطات بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ولا زالت نعم الله تترى عليه ، زاده الله من فضله وإنعامه .

ثم نشر هذا المركز بعض المطبوعات الأخرى ، من أهمها كتاب درء تعارض العقل والنقل ، لشيخ الإسلام ابن تيمية . بتحقيق الأستاذ محمد رشاد سالم [1] . وكتاب المذكر والمؤنث ، للمبرد ، بتحقيق الأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب ، والأستاذ الدكتور صلاح الدين الهادى . وكتاب البلغة فى الفرق بين المذكر والمؤنث ، لأبى البركات الأنبارى ، بتحقيق الدكتور

---

(١) أصدر مركز تحقيق التراث ، منه جزءا واحداً سنة ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م ، ونهضت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، بطبع بقية أجزاء الكتاب ، وقد وفقها الله ، وتم الكتاب ، فى أحد عشر جزءا .

رمضان عبد التواب ، ومقدمة ابن الصلاح ، بتحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) . وكتاب الجواهر وصفاتها ، ليحيى بن ماسوية ، تحقيق الدكتور عماد عبد السلام رءوف . وهو من شباب العلماء فى بغداد .

* * *

المرحلة الرابعة

وهى مرحلة الأفذاذ من الرجال .

ولا أتردَّدُ فى تسميتها باسم : مرحلة أحمد محمد شاكر ، ومحمود محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون ، والسيد أحمد صقر .

وإليك حديثَها :

كان ذلك منذ أكثر من خمسين عاماً [١] . وفى تلك الأيام كانت المسافات قد تقاربت بين الشرق والغرب ، ووصل الكتاب العربىّ المطبوع فى أوربا ، إلى بلاد العرب ، وشارك بعض العلماء العرب فى مؤتمرات الاستشراق ، ثم نزل كثير من أعلام المستشرقين إلى مصر ؛ للتدريس فى جامعتها الجديدة — جامعة فؤاد الأول آنذاك — والتزوّد من مخطوطات القاهرة والأسكندرية ، وحلُّوا كذلك ببعض البلدان العربية الأخرى ، كالشام والعراق ، والمغرب العربى ، فألْقوا إلى الناس بضاعتهم فى نشر التراث وتحقيقه .

وفى تلكم الأيام اختلطت مناهج ، وتدافعت شبهات ، وتداخلت نوايا ، وسهرت أعينٌ ونامت عيون .

ثم ألقى المستشرق الألمانى براجستراسر ، المتوفى سنة ١٩٣٣ م محاضرات على طلبة كلية الآداب ، بالجامعة المصرية ، حولَ مناهج تحقيق

(١) تأمل ما ذكرته من قبل ، فى حديثى عن الشيخ محب الدين الخطيب ، وأن الأستاذين محمود محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون قد شاركا فى تصحيح كتاب أدب الكاتب ، لابن قتيبة ، الذى نشره الشيخ محب الدين عام ١٣٤٦ هـ

النصوص ونشرِها ، وقد ذكر فى هذه المحاضرات أشياءَ عن جَمْع النُّسَخ المخطوطة للكتاب المرادِ نشْرُه ، والموازنة بينها ، واعتبار النسخة الأمّ ، والنّسَخ الفرعية ، وإعداد الكتاب للطبع .

وقد بهرت هذه المحاضراتُ ، فى وقتها ، مَن لا عِلْم عنده (١) ، ولا خبرة لديه بماضى هذه الأمة العربية ، وما صنعه علماؤها فى تدوين هذا التراث وجَمْعه ، وما شادوه حولَ ذلك التراث ؛ ضبطاً له وحرْصاً عليه ، ثم ما أقاموه من قواعدَ ورسوم ؛ من حيث إسنادُ الرواية إلى مؤلف الكتاب ، والمقابلة على النُّسَخ الأخرى ، والمفاضلة بين النُّسَخ ؛ على أساس ما ثبت على بعضها من سماعات وإجازات ، وتقييدات ، ثم ما وراء ذلك كلِّه ، من تلك القواعد الصارمة الدقيقة ، التى وضعها علماءُ الحديث ، فى فنّ الجرح والتعديل . وهذه القواعد تمثِّلُ الأساسَ المتين ، للإتقان والإحكام ، والصحة ، والقبول والردّ .

وقد أثار هذا الدوىُّ الصارخ ، حولَ أعمال المستشرقين (٢) ، غيرةَ بعض العلماء فى مصر ، الذين اتصلوا بتراثهم فى منابعه الأصيلة . لقد أراد هؤلاء العلماء ــ وكانوا وقتها شباباً يغلى ويموج ــ أرادوا أن يزيلوا الغِشاوةَ عن عيون أبناء أمّتهم ، وأن يُبصِّرُوهم بما كان لآبائهم ، من جهاد وجهود ، طمستْهما أسبابٌ كثيرة ، من الغفلة والضياع ، والقهر والاستلاب ، والمسخ والتشويه ، التى تعرضت لها الأمة العربية الإسلامية .

---

(١) كنت قد كتبت شيئاً من هذا ، فيما مضى من أيامى ، وقد أغضب ذلك الكلام بعض الأساتذه الفضلاء ، لكننى أقول ما أعتقد .

(٢) لا تسرع بك الظنون ، أيها القارئ الكريم ، فترى أنى أبخس المستشرقين حقَّهم ، فى نشر تراثنا ، والعناية به ، فهم أحقّاء بكل تقدير ، وسيأتى حديث مفصَّلٌ عنهم ، إن شاء الله ، وأنا هنا أسجِّلُ تاريخاً ليس غير .

وبَدْءَةَ ذى بَدْء ، فقد اعترف هؤلاء العلماء بما للمستشرقين من فضل ، فى إحياء التراث العربىّ ونشره ، وَفْقَ المناهج العلمية الدقيقة ، لكنّ هؤلاء العلماء قد نظروا فيما استحدثه المستشرقون من مناهج ، وما أصّلوه من قواعد ، فإذا هو منتزعٌ من داخل تراثنا نفسه ، موصولُ الأسباب والنتائج بما صنعه الأوائل ، والمستشرقون أنفسهم يعرفون ذلك حقَّ معرفته .

ومن هنا فقد أخذ هؤلاء العلماء ينظرون فيما بين أيديهم ، وفيما بين أيدى الناس ، ثم أكبُّوا على ما آل إليهم من تراث ، يفتشونه ويتدارسونه ، ثم أعطوه حظَّه من دقّة النظر ، وحسن الفقه ، وانصرفوا إلى إذاعته ونشره .

وقد دخل هؤلاء الرجال ميدان التحقيق والنشر ، مزَوَّدين بزادٍ قوىّ ، من علم الأوائل وتجاربهم ، ومستفيدين من جميع المراحل السابقة فى نشر التراث ، ومدفوعين بروح عربية إسلامية عارمة ، استهدفت فيما استهدفت إذاعةَ النصوص الدالّة على عظمة التراث ، الكاشفة عن نواحى الجلال والكمال فيه .

ولقد كان ظهور « الرسالة » للإمام محمد بن إدريس الشافعى ، بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ، فى سنة ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م ، إيذاناً ببدء مرحلة جديدة تماماً من النشر العلمىِّ العربىّ ، المستكمل لكلِّ أسباب التوثيق والتحقيق . وهى مرحلة جديدة فيما يظهر للناس فى تلك الأيام ، ولكنها موصولةُ الأسباب والنتائج بما سنَّه الأوائل وأصَّلوه ، كما قلت آنفا .

وقد نشر الشيخ أحمد محمد شاكر ، رحمه الله ، الكتابَ عن أصل بخطّ الربيع بن سليمان صاحب الشافعىّ ، وكتبه فى حياته ، كما يرجّح الشيخ ، ومن غريب ما لحظه ، فى هذا الأصل المخطوط ، وجودُ إجازة بخط الناسخ ــ وهو الربيع تلميذ الشافعى ــ ولكنها ليست إجازةَ رواية ،

كالمألوف فى الإجازات ، ولكنها إجازة النّسْخ ، ونصُّها : « أجاز الربيعُ بن سليمان ، صاحبُ الشافعىّ نَسْخَ كتاب الرسالة ، وهى ثلاثة أجزاء ، فى ذى القعدة سنة خمس وستين ومائتين ، وكتب الربيع بخطه »[١] .

وقد جرى الشيخ ، رحمه الله ، فى تحقيق « الرسالة » على أعدل المناهج وأقومها ، من حيث التنبُّهُ الشديدُ لفَرْق ما بين النُّسَخ ، وإضافات النُسَّاخ ، فيما خفى ودَقّ ، ورَبْطِ كلام الشافعىّ ، رضى الله عنه ، فى هذا الكتاب ، بكتبه الأخرى ، وتوثيق النُّقول ، وتحرير المسائل ، ثم العناية الفائقة بالضبط [٢] ، وصُنعِ الفهارس الفنية ، التى شملت آيات القرآن الكريم ، وأبواب الكتاب على ترتيبها ، والأعلام ، والأماكن ، والأشياء ؛ من حيوان ونبات ، ومعدن ، ونحو ذلك ، والمفردات المفسَّرة فى الكتاب ، والفوائد اللغوية المستنبطة منه ، ومواضيع الكتاب ومسائله ، فى الأصول ، والحديث ، والفقه ، على حروف المعجم .

ومن أهمّ أنواع هذه الفهارس التى نثرها الشيخُ الجليل ، فهرس الفوائد اللغوية ، وعنه يقول الشيخ :

« الشافعىّ لغته حجّة ؛ لفصَاحته وعلمِه بالعربية ، وأنه لم يدخل على كلامه لُكْنة ، ولم يُحفظ عليه خطأ أو لحْن ، وأصل الربيع من هذا الكتاب « كتاب الرسالة » أصلٌ صحيح ثابت ، غاية فى الدقّة والصحّة ، فما وجدناه فيه مِمّا شذّ عن القواعد المعروفة فى العربية ، أو كان على لغة من

---

(١) ونبَّه على هذا شيخنا عبد السلام هارون فى تحقيق النصوص ونشرها ص ٣٦

(٢) للشيخ أحمد ، رحمه الله ، أسلوب فى الضبط ، هو الغاية والمنتهى ، تراه فى كتاب « الرسالة » هذا ، وفى غيره من الكتب التى حققها ، وبخاصة كتاب « المعرب » لأبى منصور الجواليقى ، الذى نشرته دار الكتب المصرية عام ١٣٦١ هـ = ١٩٤٢ م

لغات العرب ، لم نحملْه على الخطأ ، بل جعلناه شاهداً لما استُعمِل فيه ، وحجةً فى صحّته ، واستنبطنا من ذلك بعضَ المسائل ، ولعله فاتنا منه غيرُها » (١) .

هذا كلام الشيخ ، عليه رحمةُ الله . وقد أخذ عليه بعضُهم مبالغتَه فى اعتماده ما جاء فى « الرسالة » ، مما شذَّ عن القواعد المعروفة فى العربية ، وثوقاً بما فى المخطوطة . وقد أظفَرَنى الله على نصٍّ جيّد ، يشهد للشيخ ببعض ما اعتمده من لغة الشافعى :

وذلك ما جاء فى ثلاثة مواضع من « الرسالة » من حذف « أن » المصدرية قبل المضارع ، وهو قول الشافعى ، رضي الله عنه : « كما عليه يتعلّمُ الصلاة والذكْرَ فيها » . وقوله : « ثم تنصرفُ المحروسةُ قبْلَ تكملُ الصلاة » . وقوله : « قبل يُحِلَّ عليك » (٢) .

وقد أشار الشيخ إلى أنّ فى النُّسَخ الأخرى من « الرسالة » إثبات « أن » قبل الفعل المضارع ، فى المواضع المذكورة ، ثم ذكر أنّ حذف « أنْ » فى هذا الموضع صحيحٌ فى العربيّة ، وأحال على بعض كتب النحو .

وقد رأيت تصديقَ ذلك ، فيما ذكره مجد الدين بنُ الأثير ، فى مادة (ريث) من النهاية . قال : « ومنه : « فلم يلبث إلاَّ ريثما » أى إلاَّ قدْرَ ذلك ، وقد يُستعمل بغير « ما » ولا « أن » كقوله :

لا يُصْعِبُ الأمرَ إلاَّ ريثَ يركَبُهُ (٣) .

---

(١) الرسالة ص ٦٥٩

(٢) الرسالة صفحات ٤٩ ، ٢٦٥ ، ٥٨٢

(٣) لأعشى باهلة . وتمامه : * وكلّ أمرٍ سوى الفحشاء يأتمرُ * ومثله قول عبد الله بن همام السَّلُولى :

لا يمسك المال إلاّ ريث يرسلهُ ولا يلاطم عند اللحم فى السُّوقِ

ذكره أبو على الفارسى فى المسائل العسكرية ص ١٥٧

وهى لغة فاشيةٌ فى الحجاز ، يقولون : يريد يفعل ، أى أن يفعل . وما أكثر ما رأيتُها واردةً فى كلام الشافعىّ » [١] .

ورحم الله الشيخَ أحمد ، فلو أنه وقف على كلام ابن الأثير هذا ، لكان قد وقع على ذَخيرةٍ تُحفظ وتصان .

ولن أدعَ مقامى هذا ، فى الحديث عن تحقيق « الرسالة » وأنّ المنهجَ الذى سار عليه الشيخ أحمد محمد شاكر ، كان إيذاناً ببدء مرحلة جديدة تماماً ، من النشر العلمىّ المضبوط المحكم الموثَّق ، حتى أشير إلى تعليق من تعليقات الشيخ رحمه الله ، يدلُّ على هذا الذى أراه :

قال رحمه الله ، تعليقاً على قول الإمام الشافعىّ ، رضى الله عنه : « فخصّ جلَّ ثناؤه قومَه وعشيرته الأقربين فى النِّذارة ، وعمَّ الخلقَ بها بعدهم ، ورفع بالقُرَانِ ذكرَ رسول الله » [٢] . قال الشيخ :

« لفظ « قران » ضبطناه هنا ، وفى كلِّ موضعٍ وردَ فيه فى « الرسالة » بضمّ القاف وفتح الراء مخففة وتسهيل الهمزة ، وذلك اتِّباعاً للإمام الشافعى ـــ مؤلف الرسالة ـــ فى رأيه وقراءته . قال الخطيب فى تاريخ بغداد (ج ٢ ص ٦٢) : « أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى بن الفضل الصيرفىّ بنيسابور ، قال نا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم ، قال نا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم المصرى ، قال نا الشافعىّ محمد بن إدريس ، قال نا إسماعيل بن قسطنطين ، قال : قرأت على شبل ، وأخبر شبل أنه قرأ علَى عبد الله بن كثير ، وأخبر عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد ، وأخبر مجاهد أنه قرأ على ابن عباس ، وأخبر ابن عباس أنه قرأ علَى

---

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢/٢٨٧

(٢) الرسالة ص ١٤

أُبَىّ . وقال ابن عباس : وقرأ أبىٌّ على النبىّ ﷺ . قال الشافعى : وقرأت على إسماعيل بن قسطنطين ، وكان يقول : (القران) اسم ، وليس بمهموز ، ولم يؤخذ من (قرأت) ولو أُخذ مِن (قرأت) لكان كلُّ ما قرئ قرآنا ، ولكنه اسم للقران ، مثل التوراة والإنجيل ، يهمز (قرأت) ولا يهمز (القران) ، ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرَانَ ﴾ : يهمز (قرأت) ولا يهمز (القران) » وهذا الإسناد رواه الحافظ ابن حجر فى توالى التأسيس (ص ٤٢) بإسناده إلى الخطيب ، واختصر المتن ،ثم قال : « هذا حديثٌ حسن متصل الإسناد بأئمة الحديث » . ونقل فى لسان العرب فى مادة (قرأ) نحوَ هذا عن الشافعى ، وزاد : « وقال أبوبكر بن مجاهد المقرئ : كان أبو عمرو بن العلاء لا يهمز (القران) ، وكان يقرؤه كما روى عن ابن كثير » . ونقل الحافظ ابن الجزرى فى طبقات القراء عن الشافعىّ عن ابن قسطنطين نحو ما نقل الخطيب (١ : ١٦٦) . وهذا النقل عن الشافعىّ نقل رواية للقراءة واللغة ، ونقل رأى ودرايةٍ أيضا ، فإنّ قراءة ابنِ كثير ــ قارئ مكة ــ معروفة ، أنه يقرأ لفظ (قران) بدون همز ، والشافعى ينقل توجيه ذلك من جهة اللغة والمعنى ، ولا يردّه ، فهو يُعتبر رأياً له حين أقرَّه ، وهو حجّةٌ فى اللغة درايةً وروايةً ، قال ابن هشام ــ صاحب السيرة المشهورة ــ : « جالست الشافعىّ زماناً فما سمعته تكلَّم بكلمة إلاّ إذا اعتبرها المُعْتبر لا يجد كلمةً فى العربيّة أحسنَ منها » . وقال أيضاً : « الشافعىّ كلامه لغةٌ يُحتجُّ بها » .

وهذا الذى قلنا كلّه يقوِّى اختيارنا أن نضبط اللفظَ على ما قرأ الشافعىُّ واختار .

ولقد كان الأجدر بنا فى تصحيح كتاب « الرسالة » أن نضبط كلَّ آيات القرآن التى يذكر الشافعىُّ على قراءةِ ابن كثير ، إذ هى قراءة الشافعىِّ

كما ترى ، ولكنى أحجمت عن ذلك ، إذ كان شاقاً عليَّ عسيرا ؛ لأنى لم أدرس علمَ القراءات دراسةً وافية ، والرواية أمانة يجب فيها التحرُّز والاحتياط » [١] .

وإنما أطلت بذكر هذا النقل ؛ لتعرف قَدْرَ هذا الرجل ، وإجلالَه للتراث ، وتوقيره لأعلامه ؛ ثم لتعرفَ أيضاً أىّ عبث يتردَّى فيه هؤلاء الذين يلعبون بالتراث وتحقيقه فى هذه الأيام ، مِن الدَّجاجِلَة [٢] ؛ طلّابِ المال والمناصب ، والشهادات العليا .

وكلّ ما قيل عن الشيخ أحمد محمد شاكر و « الرسالة » يقال عن أعلام هذه المرحلة : محمود محمد شاكر ، و « تفسير الطبرى » ، و « طبقات فحول الشعراء » لابن سلام . وعبد السلام هارون وآثار الجاحظ ، والسيد أحمد صقر وآثار ابن قتيبة . أطال الله فى الخير بقاءهم ، ولولا أنى أخذت نفسى بطىِّ الكلام واختصاره لذكرت كلَّ ما أعرفه مِن عِلم هؤلاء الرجال ، وما سَنُّوه مِن سُنَن ، وما أصَّلُوه من قواعد .

ومهما تكن دواعى الاختصار ، فإن من حقّ أبناء هذا الجيل أن يعلموا أن الأستاذ عبد السلام هارون ، قد جلا صفحاتٍ مضيئةً من تراثنا العظيم حين أخرج ــ على امتداد خمسين عاما ــ قدراً كبيرا من نفائس ذلك التراث ، فمن آثار الجاحظ : الحيوان (ثمانى مجلدات) ، والبيان والتبيين (أربعة مجلدات) ، ورسائل الجاحظ (أربعة مجلدات ، تشتمل على ٤٥ كتاباً ورسالة) ، والعثمانية ، والبرصان والعرجان .

---

(١) الرسالة ص ١٤ ، ١٥

(٢) الدجاجلة : جمع دجَّال ، وهو المموِّه الكذَّاب ، وهذا الجمع مروىٌ عن مالك بن أنس ، رضى الله عنه . اللسان (دجل) .

ومن غير مكتبة الجاحظ ، حقق ونشر : معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس (ستّة مجلدات) . مجالس ثعلب (مجلدان) ، وهو أول كتاب فى سلسلة ذخائر العرب التى تصدرها دار المعارف بمصر . وقد نال هذا الكتاب الجائزة الأولى للنشر والتحقيق العلمى فى المسابقات الأدبية التى نظمها المجمع اللغوى بالقاهرة عام ١٩٥٠ م . شرح حماسة أبى تمام للمرزوقى (أربعة مجلدات) . وقعة صفين ، لنصر بن مزاحم . همزيات أبى تمام . المصون ، لأبى أحمد العسكرى . أمالى الزجاجى . مجالس العلماء ، له أيضا . جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم . الاشتقاق ، لابن دريد . شرح القصائد السبع الطوال . لأبى بكر بن الأنبارى . الكتاب ، لسيبويه (خمسة مجلدات) الأغانى ، لأبى الفرج الأصبهانى (الجزء الخامس عشر) . تهذيب اللغة ، لأبى منصور الأزهرى (الجزءان الأول والتاسع) . نوادر المخطوطات (ثمانية أجزاء ، ضمَّها مجلدان ، تشتمل على ٢٣ كتابا ورسالة) . خزانة الأدب ، للعلامة عبد القادر البغدادى (أحد عشر مجلدا) وما بقى إلاَّ فهارسه ــ كما سبق فى الحديث عن الخانجى ، فى المرحلة الثانية ــ ولشيخنا حفظه الله ، صلة قديمة بالخزانة ، إذ كان قد حقق منها أربعة أجزاء ، تمثل ثلثها ــ ونشرت فى المطبعة السلفية من سنة (١٣٤٧ ــ ١٣٥١ هـ) مع إضافة تعليقات وتحقيقات للأستاذ عبد العزيز الميمنى الراجكوتى ، وأحمد تيمور باشا ، باشراف الأستاذ محب الدين الخطيب . وكان شيخنا وقتذاك طالبا بتجهيزية دار العلوم .

ومما نشره شيخنا بالاشتراك مع الشيخ الجليل أحمد محمد شاكر : إصلاح المنطق ، لابن السكيت ، والمفضليات ، والأصمعيات . كما نشر : تهذيب الصحاح للزنجانى ، واشترك معه فى نشره الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار .

ومن تآليف أستاذنا : معجم شواهد العربية (شواهد النحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وخصائص اللغة وأسرارها) . تحقيق النصوص ونشرها . « وهو أول كتاب عربى فى هذا الفن ، يوضح مناهجه ، ويعالج مشكلاته » تحقيقات وتنبيهات فى معجم لسان العرب . فهارس تهذيب اللغة لأبى منصور الأزهرى (مجلد ضخم ، شمل المواد اللغوية والأشعار والأرجاز) . فهارس الأشعار والأرجاز فى كتاب المخصص ، لابن سيده .

كما عمد إلى بعض الكتب الأصول ، فهذّبها ويسّرها . ومن ذلك :

تهذيب سيرة ابن هشام . تهذيب إحياء علوم الدين ، لأبى حامد الغزالى . تهذيب الحيوان للجاحظ . الألف المختارة من صحيح البخارى .

وخلاصة ما يقال فى الأستاذ عبد السلام محمد هارون : أنه لم يَخُطَّ أحدٌ فى التراث سطراً إلاَّ ولهذا الرجل عليه مِنَّةٌ ، وذلك أنك لا تكاد تجد قائمة مراجع تراثيّة ، إلاّ وفيها كتابٌ من تحقيقات شيخنا ، حفظه الله [١] .

أما الأستاذ السيد أحمد صقر [٢] ، فقد بدأ اشتغاله بالتراث فى صدر شبابه ، حين أخرج ديوان علقمة بن عَبَدة ــ بفتح العين والباء ــ الفحل ، عام ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٥ م وكان يومئذ طالبا بالقسم الثانوى بالأزهر الشريف [٣] .

---

(١) كتبت كلمة جامعة ، عن شيخى عبد السلام هارون ، استقصيتُ فيها كلَّ أعماله المجيدة ، ونشرتها فى ثلاثة أعداد من ملحق التراث ، بجريدة المدينة المنورة ، بالمملكة العربية السعودية ، فى شهرى ربيع الآخر ، وجمادى الأولى من عام ١٤٠١ هـ غداة حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية فى الأدب العربى .

(٢) اسمه مركب « السيد أحمد » . وبعضهم يظن أن اسمه « أحمد » وأن « السيد » من صفته . ولم يبعد عن الصواب مَن ظنَّ هذا . فهو سيّد ، اسماً وصفة .

(٣) وقد تخرج فى كلية اللغة العربية عام ١٩٤٤ م

وهو من بيت علم وفضل ، فوالده الشيخ أحمد صقر ، من فضلاء علماء الأزهر ، وكان أستاذا بكلية أصول الدين ، ولازلت أذكر سَمْتَه ، إذ كنت فى العاشرة من عمرى ، تلميذاً بمدرسة أم السلطان شعبان لتحفيظ القرآن الكريم بحىّ الدرب الأحمر ، وكان رحمه الله يتردّد على هذه المدرسة ، مع مجموعة من علماء الأزهر ، الذين كانوا يتعهّدون مدارسَ تحفيظ القرآن ، حِسْبَةً وزُلْفى إلى الله .

والأستاذ السيد أحمد صقر أديبٌ من الطراز الأول ، ولو أنه أطلق لملكاته الأدبيّة العنان ، لكان من كبار أدباء العربية ، ولكنه انصرف إلى تحقيق النصوص ، متجهاً من أول أمره إلى الأصول ، ثم كانت عنايته أخيراً بعلوم الحديث ومصنَّفاته ، بعد أن خلت الساحة بوفاة المحدّث الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر . وعلى قِصَر المدة التى اشتغل فيها بهذا العلم الشريف ، فقد نفذ إلى أسراره ، وأحاط بقضاياه ، واقتنى نوادر مخطوطاته .

وهو مِن أقدرِ الناس على تقديم كتاب ، وتقويم نصّ ، وتوثيق نَقْل ، وتخريج شاهد ، واستقصاء خبر ، ثم إن له من وراء ذلك كلِّه عِلماً جامعاً بالمكتبة العربية ، وإدراكاً للعلائق بين الكتب . ومن أراد أن يعرف عِلمَ الرجل وبصره ، فليقرأ مقدمته لكتاب تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة ، وإعجازِ القرآن للباقلاَّنى ــ الذى حصل به على جائزة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ــ وحواشيه على أسباب نزول القرآن ، للواحدى ، والصاحبى ، لابن فارس ، والإلماع ، للقاضى عياض .

وحسبُه نُبْلاً وعُلُواًّ أنه الذى نقد الشيخ أحمد محمد شاكر ، فى تحقيق الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، والأستاذ محمود محمد شاكر ، فى تحقيق

طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام (١) . ولولا تزاحُمُ العِلَلِ عليه ، لكان له شأنٌ أيُّ شأن ، ولكنّ الله يُثَبِّطُ أقواماً ليرزُقَ آخرين :

متى ما يَرَ الناسُ الغنيَّ وجارُهُ فقيرٌ يقولوا عاجزٌ وجليدُ (٢)
وليس الغِنَى والفقرُ مِن حِيلة الفتى ولكنْ أَحاظٍ قُسِّمَتْ وجُدودُ

ومن تحقيقات الأستاذ السيد أحمد صقر ، غير ما ذكرت : الهوامل والشوامل (٣) ــ وهى أسئلة من أبى حيان التوحيدى ، وأجوبتها لمسكويه ــ بالاشتراك مع الأستاذ أحمد أمين . مقاتل الطالبيِّين ، لأبى الفرج الأصبهانى ، الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، للآمدى (أصدر منها جزءين) دلائل النبوة ، للبيهقى (صدر منها جزء واحد) . معرفة السنن والآثار ، للبيهقى أيضا (صدر منها جزء واحد) .

وأعدَّ نصوصاً كثيرة للنشر ــ تعب فى تحصيل نُسَخِها تعباً باهظا ــ ولكنه أراد أن يقرأها على مُكْث ، ويعطيها حظَّها من الإتقان والإحسان ، فتباطأ فى إذاعتها ، فسبقته إليها أيدٍ كثيرة . ومن هذه الكتب : المصنَّف لابن أبى شيبة ، وأمثال الحديث ، والمحِّدث الفاصل بين

---

(١) وانظر مداعبة شيخنا للأستاذ السيد صقر ، حول هذا النقد ، فى برنامج طبقات فحول الشعراء ص ١٢٧ ، وانظر أيضا مقدمة تحقيق الطبعة الثانية من الشعر والشعراء .

(٢) قائلهما سُوَيد بن خَذّاق العَبْدى . وقيل : المَعْلُوط بن بَدَل القُرَيْعى . شرح الحماسة للمرزوقى ص ١١٤٨ ، واللسان (حظظ) . وأحاظٍ : جمع الحظّ ، والجدود : جمع الجَدّ ، بفتح الجيم ، وهو الحّظُ أيضا . وجاء فى عيون الأخبار ١٨٩/٣ ، والخزانة ٢٢٠/٣ : « ولكنْ حظوظ » ، وانظر حماسة أبى تمام ــ بتحقيق الدكتور عبد الله عسيلان ص ٥٧٥

(٣) وتحقيق هذا الكتاب مما يشهد للأستاذ السيد صقر بعلوّ قدره فى تقويم النصوص ، فإن نسخة الكتاب معيبة بكثرة الخروم والأسقاط ، وضياع أجزاء من الكلام . وقد وفق الأستاذ إلى إصلاح كثير من ذلك . إذ كان ــ حفظه الله ــ من القلائل الذين يحسنون قراءة المخطوطة العَسِيرة .

الراوى والواعى ، كلاهما لأبى محمد الرامهرمزى ، وأعلام السُّنن ، لأبى سليمان الخطابى ، والمصطفى المختار فى الأدعية والأذكار ، لمجد الدين بن الأثير . والجليس والأنيس ، للمعافى بن زكريا الجريرى النهروانى ، وغير ذلك ممّا لا يعلمه إلاّ الله . فإن الرجل كان قد ابتُلى بكثير من الناس الذين يترصَّدونه ، ويأخذون بِمَخْنِقِه ، فما إن يعلم أحدهم بحصوله على مخطوطة من كتاب ، حتى يسارع إلى نشره . وهذا ما دعاه إلى أن يطوى صدره على كثير من النفائس والنوادر ، ثم جرَّه هذا إلى شئٍ من الملل ، وهجْرِ النشر مدة طويلة (١) .

---

(١) بل إن الأمر قد تمادَى به إلى أن يحجب عن الناس ما قد فرغ من طبعه ــ كالذى فعله قديماً أبو حيان التوحيديُّ ، مِن حرْقِ كتبه ، حين رأى أنها لم تنفعه ، وضنَّ بها على من لا يعرف قدرها ــ ولذلك قصّة طريفة ، أرويها للتاريخ : ذلك أن الأستاذ السيد ــ أحسن الله إليه ــ كان قد طبع على نفقته كتاب « أسباب نزول القرآن » لأبى الحسن الواحدى ، وطُبع الكتاب على آنق صورة ، بمطبعة عيسى البابى الحلبى ، ثم أخذ نُسَخ الكتاب وأودعها مخزناً ظلّت قابعةً فيه أكثر من عشر سنوات ، وفشلت كل المحاولات لإخراج الكتاب من محبسه ، حتى كانت سنة ١٩٦٩ م ، وتكونت بمؤسسة الأهرام لجنة لإحياء التراث الإسلامى ، بإشراف الأخ الصديق أسامة عبد العزيز عيسى واختير الأستاذ السيّد عضواً فيها ، وكنت أنا أيضاً عضواً صغيراً بهذه اللجنة ، وكان يرأسها رجلٌ من أفاضل الناس ، ومن أكثرهم حباً للتراث ونشره ، هو السيد الأستاذ حسن عباس زكى ، وزير الاقتصاد المصرى آنذاك ، وكان يدعونى كثيراً إلى بيته ، إذ كان يسترقُ أوقاتاً من أعباء الوزارة ، للحديث عن المخطوطات ونوادرها . وقد فاتحته يوماً فى شأن كتاب « أسباب نزول القرآن » ، وكان عهده به فى الطبعة القديمة ، وحين علم بتحقيق الأستاذ السيد لهذا الكتاب ، سُرَّ سروراً عظيما ؛ لِلّذى يعرفه من علم الأستاذ وجلالته ، ثم أخبرته بقصة حَجْب الكتاب ، ففزع لذلك أشدَّ الفزع ، وأخذ على عاتقه إقناع الأستاذ بإخراج الكتاب . وفى أمسية ساخنة ببيته أخذ يتلطف مع الأستاذ السيد ، ويؤنسه ، ولم يُفْلِتْه حتى استكتبه عقداً ببيع الكتاب لمؤسّسة الأهرام . وفى تلك الليلة أَسْمَحَ الأستاذ السيّد ، وألان ، إذ كانت أمارات الصدق والتقدير لائحة فى لهجة=

ونأتى إلى شيخ العربية الأستاذ محمود محمد شاكر :

ولابد من كلمة عنه تكون مسك الختام لحديث هذه المرحلة الرابعة من مراحل نشر التراث فى مصر .

ولكن ، كيف أكتب عنك أيها الشيخ الجليل

ومن أين أبدأ ، وكيف أمضى ، وإلى أين أنتهى ؟ والحديث عنك إنما هو عن تاريخ هذه الأمة العربية الشريفة : عقيدةً ولغة وفكراً ورجالا ، وآماداً رحبة متطاولة ، لا يقدُرها إلاّ أنت ، ولا يعرف كنهها إلاّ أنت ، وتاريخ أمتنا حاضرٌ بين يديك ، ماثِلٌ أمام عينيك ، لم يغب عنك لحظة ، ولم تُخْدَع عنه لحظة . فماذا أنا قائلٌ فيك ؟ وماذا أنا بالغٌ من الكتابة عنك ؟ .

= هذا الوزير الهُمام ، وليس كالصدق والتقدير باعثاً لهمّة الأستاذ السيد صقر ، فلم يكن حبُّه للكتاب رغبةً فى التكسُّب وملء العَيْبة ، فإنه — علم الله — من أجود الناس ، وأسخاهم يدا .

وقد سُقْت هذه الحكاية ؛ لأدلَّ على فضل هذا الرجل « حسن عباس زكى » ، ذلك الوزير الصالح ، الذى أحبّ التراث العربىّ الإسلامى ، حباً ملك عليه نفسه ، وكان وهو على رأس وزارة خطيرة — وزارة الاقتصاد المصرى — معنياً كلَّ العناية بشئون التراث ، والمشتغلين به ، من علماء وناشرين ، يُفْسِح لهم فى مجلسه ، ويذلّل لهم العقبات . ومن أياديه البيضاء نشر كتاب « الجامع الكبير » للحافظ السُّيوطىّ ، الذى صدر مصوَّراً عن مخطوطته ، فى الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨ م وإعادة نشر كتاب « الأم » للإمام محمد بن إدريس الشافعى ، الذى صدر بتقديمه عن دار الشعب بمصر عام ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م . إلى كتب أخرى ، ساهم فى طبعها ، أو أغرى الناشرين بطبعها .

ومكتبته الخاصة تضم قدرا عظيما من نوادر المصاحف الشريفة ، والمخطوطات والمصورات ، والمطبوعات القديمة .

تقبل الله منه صالح عمله ، وجعله فى موازينه يوم يقومُ الناسُ لربّ العالمين .

ومعذرة ثم معذرة شيخى أبا فِهْر إذ أكتُبُ عنك بهذه الوجازة التى تراها ــ أراك الله الخير كلَّه ، ودلَّك عليه ، ورغَّبك فيه .

ثم معذرة من بابةٍ أخرى : وهو أن كثيراً مما ستقرأه ، إن شاء الله ، منتزع من كلامك ، مدلولٌ عليه بفكرك ، فأنا إنما أكتب عنك بك ، وأتقدّم إليك بسابق فضلك وموصول علمك ، وإن كنت أعتقد أن هذا لا يُعتذر منه إليك ، وأيضا فإنك كنت قد شجعتنى يوماً على الكتابة عنك ، حين أنبأتك ما أصابنى من دُوار أرضانى وأسخطنى يوم خرجتَ إلى الناس بطبعتك الجديدة من كتابك الفذ « المتنبّى » وحدّثتنا فى الجزء الأول منه ، حديثا غريبا عجيبا ، عن فساد حياتنا الأدبية ، وعن تفريغ عقولنا من كل ما يردّنا إلى تاريخنا وأيامنا ، وقلت لك يومها : إنى أُريد أن أدلَّ على ما ذكرتَ بما شاع فى كتاباتك الأخرى ؛ ما دَقَّ منها وماجَلّ ، وقد أذنت لى فى الكتابة عنك ، ويومها رأيت نفسى ــ وأنا من أصغر تلاميذك ــ قد ظفرت بما فوق المنى .

ولد الأستاذ محمود محمد شاكر بالأسكندرية يوم الاثنين ، العاشر من المحرم سنة ١٣٢٧ هـ ، الموافق لأول فبراير سنة ١٩٠٩ م ، وفى صيف ذلك العام الذى ولد فيه انتقل إلى القاهرة ، حين عيّن والده وكيلا للجامع الأزهر ، وكان من قبلُ شيخا لعلماء الأسكندرية ، وهو الذى أسّس بها المعهد الدينى . وحصل على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) القسم العلمى ، سنة ١٩٢٥ م . وفى أثناء تلك المرحلة الثانوية كان يحضر دروس العلاّمة الشيخ سيد بن على المرصفى ، التى كان يلقيها بعد الظهر فى جامع السلطان برقوق ، ثم قرأ عليه فى بيته الكتاب الكامل ، لأبى العباس المبرد ، وحماسة أبى تمام ، وشيئا من أمالى أبى على القالى ، وبعض أشعار الهذليين . واستمرت صلته وثيقة بالشيخ المرصفى إلى وفاته رحمه الله سنة ١٣٤٩ هـ = ١٩٣١ م .

وفى سنة ١٩٢٦ م التحق بكلية الآداب بالجامعة المصرية ، قسم اللغة العربية ، وقضى بها سنتين اثنتين حتى نشِب خلاف شديد بينه وبين أستاذه الدكتور طه حسين ، حول منهج دراسة الشعر الجاهلى ، كما بينه فى مقدمة كتابه « المتنبى » وفى أثناء كتابه الدامغ « أباطيل وأسمار » .

وأفضى ذلك الخلاف إلى تركه الدراسة الجامعية ، والهجرة إلى الحجاز ، سنة ١٣٤٧ هـ = ١٩٢٨ م .

وفى جدة التقى بالشيخ الكبير محمد نصيف ، وأنشأ بناءً على طلب من جلاله المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، مدرسة جدة السعودية الإبتدائية ، وعمل مديراً لها ، وتتلمذ له فى تلك المدرسة بعض شباب المملكة الذين صاروا أدباء كبارا فيما بعد ، وسجّل بعضهم ذلك فى مذكراته . ولكنه ما لبث أن عاد إلى القاهرة فى أواسط عام ١٩٢٩ م ، وانصرف إلى الأدب والكتابة ، فكتب فى مجلتى « الفتح » و « الزهراء » اللتين كان يصدرهما الأستاذ محب الدين الخطيب ، وأكثر ماله فيهما الشعر ، وكان من كتابهما منذ كان طالبا .

وقد نشأ شيخنا فى بيت علم ووطنيّة ، فعرف العلماء والسياسيين الذين كانوا يتردّدون على والده ، كما اتصل بعلماء العصر ، من أمثال محب الدين الخطيب ، وأحمد تيمور باشا ، وأحمد زكى باشا ، والشيخ محمد الخضر حسين ، والشيخ إبراهيم اطفيّش ، والكتبى محمد أمين الخانجى ، الذى كان له منزلة خاصة عنده ، أبان عنها فى مقدمة « طبقات فحول الشعراء » . كما تعَّرف إلى الشاعر العظيم أحمد شوقى ، وكان يلتقى به فى المنتديات العامة التى كان الشاعر الكبير يتردّد عليها .

ثم توثقت صلته بأديب العربية الكبير مصطفى صادق الرافعى ، وكان يراسله وهو طالب فى السنة الأولى الثانوية ، وظلت هذه الصلة متينة

وثيقة إلى وفاة الرافعى رحمه الله ، فى سنة ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧ م ، فحزن عليه حزنا شديدا صرفه عن استكمال ردوده على الدكتور طه حسين ، فى موضوع المتنبى التى كانت تنشر فى جريدة البلاغ .

وللرافعى عند شيخنا مكانة سامية ، يلهج بها فى كتاباته وأحاديثه ، وقد كشف عنها فى تقديمه لكتاب صديقه المرحوم الأستاذ محمد سعيد العريان ، عن حياة الرافعى ، وقد ظلت هذه الرابطة بينهماتحول سنين عديدة دون التواصل بينه وبين الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد ، لِلذى كان بين الرجلين ، ثم صارت بينه وبين الأستاذ العقاد صحبة وصداقة عميقة بعد ذلك . حدّث صديقنا الأستاذ أحمد حمدى إمام ــ وهو من خلصاء الأستاذ العقاد ــ قال : « ولا أنسى هنا مجلساً مع أستاذنا العقاد سنة ١٩٦٠ م ، وقد كان الحديث عن المتنبى ، فقال عن كتاب أبى فِهْر : « إنه خير ما كتب عن المتنبى » . ثم جرَّنا الكلام إلى التحقيق ، فقال عنه « وهو على رأس المحققين ؛ لأنه أديب فنان » . [انظر أبو فهر محمود محمد شاكر والحضارة الإسلامية : ضمن كتاب دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبى فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين] .

ولشيخنا عند الرافعى أيضا مكانة كبيرة ، تراها فيما كتبه حول كتاب « المتنبى » فى طبعته الأولى . وقد حدثنى الورّاق الشهير المرحوم الأستاذ حسام الدين القدسى منذ نحو عشر سنوات بمكتبى بمعهد المخطوطات بالقاهرة ، قال رحمه الله : « زارنى الأستاذ الرافعى فى مكتبتى يوماً ، فسألته : ترى من يخلفك فى الكتابة ؟ ــ يقول القدسى : فلم يقل لى : أحمد حسن الزيات ، ولا صادق عنبر ، وإنما قال : محمود محمد شاكر » . وقد ذكرت هذا مِن قبل .

ونطوى تاريخ شيخنا طياً ؛ لنتحدث عن محنته مع زمانه ، وهموم أمته العربية التى أرقته منذ عَقَل ، وكان ذلك فى مطالع هذا القرن الميلادى .

وفى تلكم الأيام كانت المسافات قد تقاربت بين الشرق والغرب ، ونشطت حركة الترجمة ، ووصل الكتاب العربى المطبوع فى أوربا إلى بلاد العرب — كما ذكرت من قبل — وحلَّ نفرٌ من المستشرقين بمصر ، للتدريس بالجامعة المصرية (١) وشغل بعضهم مناصب ثقافية كبيرة ، كادارة دار الكتب المصرية ، ثم أذاعوا كلاماً كثيرا عن نشر التراث وتحقيقه ، وعن درس الأدب ومنهجية البحث ، وثار عجاج كثير . ثم كان ما كان من أمر الثورة المصرية ، سنة ١٩١٩ م ، وما أحدثته من زلزلة فى النفوس والعقول .

ثم كانت قضية الشعر الجاهلى ، وما أثير حوله من انتحال وصنعة ، وقد فجرت هذه القضية فى نفس الأستاذ محمود محمد شاكر ، وعقله بركانا من الفزع والغضب ، ورآها مرتبطة أشد الارتباط بقضية أخرى أكبر وأعظم ، هى قضية التشكيك فى تاريخ أمتنا العربية الإسلامية .

ومنذ ذلك اليوم الذى اتضحت فيه تلك الحقيقة أمامه ، وقامت دلائلها وشواهدها فى نفسه ، وهو يتعقّبها ويرصدها ، ويفضح أمرها ، فيما ظهر وفيما خفى من أمور التعليم والآداب والفنون ، وفى سائر ما يتقلب فيه الناس ، ويغدون ويروحون ، مما يحسبونه هيّنا وهو عند الله عظيم . نعم وقف شيخنا لذلك كله كالحارس اليقظ على ثغر خطير من ثغور المسلمين ، ولم يُشْغلْ عن ذلك بوظيفة تأكل وقته ، أو منصبٍ يريد له أن ينمو ، أوجاهٍ يطلب به المثالَةَ عند الناس .

---

(١) يأتى بيان ذلك فى الحديث عن جهود المستشرقين فى نشر التراث .

وخلاصة القضية عنده ، ما ذكره فى مقدمة كتابه الدامغ « أباطيل وأسمار » . قال حفظه الله :

« ولهذه الفصول غرض واحد ، وإن تشعبّت إليه الطرق . وهذا الغرض هو ... الدفاع عن أمّة برُمَّتها ، هى أمتى العربية الإسلامية ، وجعلت طريقى أن أهتك الأستار المسدلة التى عمل من ورائها رجال فيما خلا من الزمان ، ورجالٌ آخرون قد ورثوهم فى زماننا . وهمُّهم جميعا كان : أن يحققوا للثقافة الغربيّة الوثنيّة كل الغلبة على عقولنا ، وعلى مجتمعنا ، وعلى حياتنا ، وعلى ثقافتنا ، وبهذه الغلبة يتمّ انهيارُ الكيان العظيم الذى بناه آباؤنا فى قرون متطاولة ، وصحّحوا به فساد الحياة البشريّة فى نواحيها الإنسانية ، والأدبية والأخلاقية ، والعملية ، والعِلمية ، والفكرية ، وردُّوها إلى طريق مستقيم . عَلِم ذلك مَن عَلِمه ، وجَهِله من جهله .

وكان ممّا قدّر الله أن أفتح عينىَّ على ثورة مصر سنة ١٩١٩ م ، وعلى دارٍ تموج بالثّوار ، فعقلت من الأمر يومئذ ما عقلت ، ورأيت بعينىّ رجالا ، وسمعت بأذنىّ آراء ، ورضيت بقلبى وسخطت ، وأعانتنى فِطرتى بضَرْب من التمييز ، كان يرجّ نفسى رجاًّ شديدا ، وأنا بعدُ فى غضارة الصبا ، ولم أكد حتى انطلقت أجوب مجتمعا يغور بالمتناقضات ، ويتشقق بالصراع المرّ فى ميادين مختلفة : من الدين ، إلى العلم ، إلى الأدب ، إلى الفن ، إلى السياسة ، إلى السُّنن الموروثة . فخُضْت محنة زمانى ، فى أول نشأتى ، بنفسٍ غضّة مجرَّحة بالتجارب . ومضت بى الأيام ، وأثخنتنى التجارب ، وهلك رجال ، ونشأتْ رجال ، فرأيت وسمعت ، ورضيتُ وسخطت ، وعلمت من أسرار الصراع ما لم أكن أعلم .

فصار حقاًّ علىَّ واجباً أن لا أتلجلج ، أو أحجم ، أو أجمجم ، أو أدارى ، ما دمت قد نصبت نفسى للدفاع عن أمتى ما استطعت إلى ذلك

سبيلا . وصار حقّا علىَّ واجبا أن أستخلص تجارب خمسين سنة من عمرى ، قضّيتها قلقاً حائرا ، أصارع فى نفسى آثار عدوّ خفىّ شديد النكاية ، لم يلفتنى عن هول صراعه شئ ، منذ استحكمت قوّتى ، واستنارت بصيرتى ، ومنذ استطعت أن أهتك السّتر عن هذا العدوّ الماكر الخبيث . ثم صار حقاً علىّ واجباً أن لا أعرّج على بُنَيّات الطريق ، إلاّ بعد أن أجعل الطريق الأعظم الذى تشعَّبَت منه ، واضحاً لاحباً مستبينا . ثم صار حقّا علىّ واجبا أن لا آلو جُهْداً فى الكشف عن حقيقة هذا العدوّ ، وعن حقيقة الصراع الذى عانيته وحدى على وجه من الوجوه ، والذى عانيته مع أمتى العربية والإسلامية على وجوه أخر » .

أرأيت ؟ هذا هو الأستاذ محمود محمد شاكر ، وتلك همومه ، حملها وحده ؛ لأنها هموم أمته العربية الإسلامية . إنه رجل امتزج بالعربية ، وامتزجت به ، حتى جرت منه مجرى الدم فى العروق ، وظل حياته كلَّها قائما على حراستها ورعايتها ، يحبّ من أجلها ، ويخاصم من أجلها ، وقد احتمل فى حالتيه من العناء والمكابدة ما تنوء بحمله الجبال الرواسى ، وكان أيسر ما لقيه فى ذلك مما يهدّ النفس ويوهن العزم ، لولا ما اعتصم به من ذلك الحبّ الآسِرِ الغلّاب ، للعربية ، وأيامها ورجالها ، وتاريخها كله . فهو والعربية كما خاطبه صديقه وعشيره الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل رحمه الله :

وأراك أنت بكل لُجٍّ مَوْجُها والهادِرُ المشبوبُ فى شلّالها
وأراك أنت عليمها وكليمها والجاذرُ الشبهاتِ فى استدلالها

وقد حارب الأستاذ محمود محمد شاكر ، فى جبهات كثيرة ، وخاض معارك كثيرة ؛ حارب الدعوة إلى العامية ، وحارب الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بحروف لاتينية ، وحارب الدعوة إلى هلهلة اللغة العربية والعبث بها ،

بحجة التطور اللغوى ، الذى يُفْضى حتما إلى جعل اللغة الفصحى لغة دينية فقط ، كالسّريانية والقبطية التى يسمعها النصارى فى كنائسهم ترانيمَ مبهمة ، ولا يعرفون لها وجها ولا تأويلا ، ثم حاصر تلك الألفاظَ النصرانية التى تسلّلت إلى أقلام الأدباء والكتّاب المسلمين ، مثل « الخطيئة » و « الفداء » و « الصَّلب » و « الخلاص » ، حيث رأى صبيانُ المبشرين فى هذه الألفاظ رموزاً لتراث روحى ، لا بأس على المسلم ، فى استعمالها ، ورأى الأستاذ ــ حفظه الله ــ أنَّ على المسلم كلَّ البأس فى استعمالها ؛ لأنه طريق محفوف بالمخاطر ، لمن صدق نفسه ، وعرف حرمة الكلمة كيف تقال ، وكيف تفسّر ، وكيف توضع فى موضعها [أباطيل وأسمار صفحة ٢٠٩] .

ثم حارب من قبلُ ومن بعد : الخرافات والبدع والشعوذة التى ابتعدت بالمسلمين عن منهج السلف ؛ فى صحة العقيدة ، وفى تجريد الإيمان من شوائب الشرك الظاهر والخفىّ .

وقد ربط كلَّ ذلك باللغة ربطا صحيحاً محكماً ؛ إذ لا معنى للانتساب إلى طريقة السلف إلاّ بأن يتملك السلفىّ ناصية اللغة وآدابها ، تملُّكاً يمكّنه من الاستمداد المباشر من القرآن والسنّة على نفس النهج الذى كان السلف يستمدُّون به من القرآن والسنة ، فى آدابهم وأخلاقهم وثقافتهم وفقههم وعلمهم وتفكيرهم ، وفى سائر ما يكون به الإنسان حياًّ رشيداً ، قادراً على بناء الحضارة [أباطيل وأسمار صفحة ٥٠٥] .

ونظرة شيخنا هذه إلى اللغة جعلته يتناول كثيراً مما كتب عن الإسلام بغير اللسان العربى ، بكثير من الحذر ، الذى يوشك أن يكون رفضاً كاملا ، ومن جانب آخر فقد جعلته ينظر إلى ما كتب باللسان العربى من أهل الأمم الأخرى ، نظرة عربية خالصة ، فهو يرى أن هذه الأمم

والشعوب التى دخلت فى دين الله أفواجا ، قد هجرت لسانها القديم حين نسيت ما كان يعبد آباؤها من قبل ، وأبدعت أدبا عربيا خالصا ، وفكرا عربيا خالصا ، ولم يبق من تراثها إلا ما كتبته بهذا اللسان العربى . ومن هنا فشيخنا حفظه الله يرفض ما يقال عن أثر الموالى أو العناصر غير العربية فى النحو العربى ، أو فى الأدب العربى ، وما إلى ذلك .

ومهما يكن من أمر : فقد حارب الأستاذ محمود محمد شاكر ، فى جبهات كثيرة ، كما رأيت ، وقد حارب وحده ، غيرَ متحيِّز إلى فئة ، أو منتصرٍ بجماعة ، وهو صُلب عنيد فاتك ، ألقى الدنيا خلف ظهره ودَبْرَ أذنيه ، فلم يعبأ بإقبالها أو إدبارها ... وكان ما كان من إقصائه عن محافل الأدب ، وعضوية المجامع ، ومؤتمرات الفكر ، وبريق الجوائز ، فلم يزده ذلك إلا إصراراً وثباتا ، ووقف وحده فى ساحة الصدق : شامخ الرأس ، مرفوع الهامة ، يرقب الزيف ، ويرصده ، ويدلُّ عليه . ولم يجد خصومه وأعداؤه فى آخر الشوط إلاّ أن ينفروا الشباب عنه ، ويبغِّضوه إليهم بما أشاعوه عن حدّتهِ وبأسه وتعاليه . فنكص من نكص مسيئا فى نكوصه ، وثبت من ثبت محسناً فى ثباته .

ودعوى حِدّةِ الأستاذ وبأسه وتعاليه ، من الكذب الخبيث . ولقد عرفت هذه الإمام الكبير ، وخالطته فى غضبه ورضاه سبعة عشر عاما ؛ كنت خلالها قريبا منه جدا ، وأشهد أنى ما رأيت مثله ؛ صفاءَ نفس ، ونقاءَ قلب . تراه فى حال غضبه ثائراً فائراً ، كسماءٍ مرعدة مبرقة ، فإذا ألقت سماؤه بأرواقها عاد كنسمة هادئة فى إثر ماءٍ طهور ، وإذا الذى بينه وبينه عداوةٌ كأنه ولى حميم .

وشيخنا فى مجلسه طيّب ودود ، يؤنس جلساءه ، ويجعل لكلٍّ منهم نصيبا مفروضا من ودّه وإقباله ، لا يصطنع وقارا كاذبا ، فيطرب للنادرة

المهذبة الحلوة ، ويستزيد منها ويرويها . وتجمع مائدته بين الأديب الكبير ، والوزير الخطير ، والأستاذ الجامعى ، والطالب المبتدئ ، بل وبعض أصحاب الحِرف والمهن الذين لهم بالبيت عُلْقة ، الكلّ فى مجلسه سواء . وهو حفظه الله يتعهد أبناءه وتلاميذه ، ويمشى فى حوائجهم ، ويشاركهم سرّاءهم وضرّاءهم . من دخل بيته وذاق حلاوة مجلسه فكأنما وقع فى أسر شديد ، فهو لا يطيق البعد عنه ، ولا يستطيع أن يُغِبَّ زيارته ، يأتى أحدنا من سفر طويل ، فيكون أول وجه يلقاه هو وجه الأستاذ ، قبل الأهل والعشيرة ، فهو أهلنا وعشيرتنا ، ثم تكون العودة ، فيكون آخر وجه يودّعه ، هو وجه الأستاذ ، نضر الله وجهه . وما عرفت إنسانا دخل بيت شيخنا مرة ولم يعد إليه ، إلاّ من كان فى قلبه دَغَلٌ ، وهم بحمد الله قليل .

وأعود إلى تلك الحِدّة الكاذبة المزعومة ، فأقول : نعم إن فى شيخنا حِدّة ، ولكنها تظهر منه إذا انتهك حدٌّ من حدود العِلم ، فهى الحِدّة التى جاءت فى الحديث : « الحِدّة تعترى خيار أمتى » قال مجد الدين بن الأثير : « الحِدّة كالنشاط والسرعة فى الأمور والمضاء فيها ، مأخوذ من حَدّ السيف ، والمراد بالحِدّة ها هنا : المضاء فى الدين والصلابة والقصد فى الخير ومنه الحديث : « خيار أمتى أحِدّاؤها » هو جمع حديد ، كشديد وأشدّاء » [النهاية ١ / ٣٥٢] .

وبرغم هذا الحصار الذى ضربه أعداء شيخنا حوله ، فقد عرف الشرفاءُ طريقهم إلى بيته الرحب الكريم ، وانتفعوا بما حواه من علم ومعرفة ، وقد تحوَّل هذا البيت إلى جامعة عربية إسلامية ، تخرَّج فيها الكثير ، وصحَّحت للناس عقيدتهم ، ودلَّتهم على طرائق سوية فى التفكير والبحث ، وقوّت عندهم الإحساس بالعربية والعصبيّة لها . ومن الحقائق التى لا تُدفع أنه لم يحظ أحد من الأدباء الكبار المعاصرين ــ وإن كانوا فى دائرة الضوء

الخادع ـــ بمعشار ما حظى به الأستاذ محمود محمد شاكر من الالتفاف حوله والأخذ عنه والتأثر به ؛ طوائف من الناس ، من مختلِف البلدان والأعمار والانتماءات ، ضمَّهم هذا البيت المفتوح دائما ، ولم يفتح لهم ساعةً دون ساعة . يقول الأستاذ الكبير فتحى رضوان ، فى وصف ندوة شيخنا : « كان بيته ندوة متصلة لا تنفض ، من أعضائها الثابتين : يحيى حقى ، إذا حضر من أوروبا ، وعبد الرحمن بدوى ، وحسين ذو الفقار صبرى ، وغيرهم وغيرهم ، ولم يكن من حظى أن أكون عضوا دائما فيها ، فقد كنت ألمّ بهم أحيانا ، فأراهم وأرى من العالم العربى كله ، ومن العالم الإسلامى على ترامِيه ، شخصياتٍ لا حصر لها ، تتباين بعضها عن بعض ، فى الزىّ والمظهر والثقافة واللهجة ، والشواغل والمطامح ، ولكنها تلتقى كلها عند محمود شاكر ، تسمع له ، وتأخذ عنه ، وتقرأ عليه ، وتتأثر به ، وكلما كان من حظى أن أشهد جانبا من هذه الندوة ، أحسست بسعادة غامرة ، أن يبقى ركن فى بلدى كهذا الركن ، ينقطع أصحابه للفكر والدرس والتحدث فى أمور لا تجد من يسمع بها أو يعرف عنها شيئا فى مكان آخر » . [انظر الرجل والأسلوب ضمن كتاب دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبى فهر محمود محمد شاكر] .

وقد شهدت الخمسينات الميلادية ذروة هذه اللقاءات الفكرية التى كانت تُعقد فى بيت شيخنا ، قبل أن يقع فى أسر الطغاة ، ففى تلك الأيام كان صوته يدوّى بالشعر الجاهلى ، يُنشده تلاميذَه ، ويخوض بهم لُجَجَه ، ويكشف لهم عن أسراره ، ثم أفضى ذلك إلى فنون أخرى من التراث ، دلّهم عليها ، ورغّبهم فيها ، وكان ممن يحضر هذه اللقاءات بصورة منتظمة الأساتذة : يحيى حقى ، ومحمود حسن إسماعيل ، والشيخ أحمد حسن الباقورى ، وإحسان عباس ، وشاكر الفحام ، ومحمد يوسف نجم ، وناصر

الدين الأسد ، وأحمد راتب النفّاخ ــ وهو الآن شيخ الشام ، بل شيخ الدنيا ــ ، والأخ الكبير العالم الواسع الاطلاع أحمد بن محمد بن مانع ــ وهو من أحبهم إلى شيخنا ، وأقربهم منه مجلسا ــ ، وغير هؤلاء كثير .

وفى تلك الأيام أيضا ــ ويالها من أيام ــ خرج من بيت الأستاذ رسائلُ جامعية كثيرة ، أكل بها أصحابها الأموال ، وتسنّموا بها الذُّرَى . وإذا حدَّثك أحد أنه استفاد من مكتبة الأستاذ محمود محمد شاكر ، فلا تظنّن أنه استفاد من مكتبة كتلك التى فى دور الكتب العامة ، والتى ترصّ فيها الكتب رصاً ، إن مكتبة الأستاذ زاخرة بالحواشى والتصحيحات والإحالات . وإنى لأعلم علم اليقين أن بعض دواوين الشعر القديمة التى أعيد تحقيقها ، قد قامت على تصحيحات الأستاذ وتعليقاته التى قيَّدها على الهامش ، مع مخطوطة للديوان قد تكون فى مكتبة الأستاذ أيضا « ولم تبق إلا صورةُ اللحم والدم » .

ولا يزال الأستاذ ــ حفظه الله ــ مع علوِّ سنه ، على صلة وثيقة بالقراءة والإفادة ، ولازالت ذاكرته ــ متعه الله بالسلامة والعافية ــ تقتنص الشاردة والواردة . سألنى ذات يوم قريب ، ونحن على مائدة الغداء فى بيته المأنوس ، عمّا صنعته بكتاب الشعر لأبى على الفارسى ، فقلت له : إنى مشتغل بتخريج شواهده ، ولكن أبا على رحمه الله ، يجتزئ أحيانا من البيت بموضع الشاهد ، وهذا مُحْوِجٌ إلى مراجعة كثيرة . فقال لى : ما تذكر من ذلك ؟ فقلت : قوله : « ذلّ الزمانُ لهم » فقال : إنى أعرفه . ثم قام وشرد ببصره ، ومسح على جبهته ، كحالته إذا أهمّه أمر . وما هى إلاّ دقائقُ يسيرة حتى استخرجه من الجزء الأول من الأغانى ، بيتا سويًّا ، هو :

لهفى على فتية ذلَّ الزمان لهم   فما أصابهمُ إلاَّ بما شاءوا

ثم أضاء وجهه وتلألأ ، وأخذ يقول : الحمد لله ، الحمد لله ، هذه قراءة خمسين عاماً مضت .

ولشيخنا حفظه الله من هذا الباب ما لا يحصى عددا ، ولكنَّ أكثر الناس لا يذكرون .

وأوجز القول فى ذلك إيجازا لأتحدث عن أثر الأستاذ محمود محمد شاكر ، فى نشر التراث وتحقيقه .

لقد كانت مشاركة هذا الأستاذ الإمام ، فى نشر التراث وإذاعته جزءاً من جهاده فى حراسة العربية ، سواء فيما نشره هو ، أم فيما حث الناسَ على نشره وأعانهم عليه .

وقد فطن من أول أمره إلى الأصول ،فكان اشتغاله بطبقات فحول الشعراء لابن سلام ، وتفسير أبى جعفر الطبرى ، المسمى : « جامع البيان فى تفسير القرآن » ، وما بقى من كتابه : « تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار » ـــ ظهر هذا حديثا ، ولكنَّ اشتغاله به قديم ، وجمهرة نسب قريش للزبير بن بكار .

وقد أصدر الأستاذ من تفسير أبى جعفر الطبرى ستة عشر جزءا ، ويخطىء خطأ بيّنا من يعدّ هذه الأجزاء الستة عشر كتابا واحدا ، إنها ستة عشر كتابا مفردا ، حمل كل كتاب علما غزيرا ، هو علم الأوائل الفحول .

ولقد كان من أمرى ، فى بعض أيامى ، أنى قصدت قصداً إلى قراءة حواشى الأستاذ ، على طبقات ابن سلام ، وتفسير الطبرى ، فوقفت على أشياء عجيبة غريبة ، فى فهم اللغة ، والبصر بالشعر ، ومعرفة التفسير ، وفقه الحديث ، وتاريخ الرجال ، وكلّ ما شئت من علوم هذه الأمة وفنونها . فهذا رجل نُثرت أمامه العربية كلها ، فهو لم يشتغل بباب من العلم دون باب

آخر ، فأنت تراه يقرأ ويفقه « المواقف » لعضد الدين الإيجى ، كما يقرأ ويفقه « كتاب سيبويه » و « تفسير الطبرى » و « أغانى أبى الفرج » . ثم إن له من وراء ذلك كله ، من فقه أسرار اللغة ، ما لم يقف عليه أحد ، قديما وحديثا . أقول قولى هذا ، وأنا أعلم أن كثيراً من (أصحاب المناهج ، والدراسة الموضوعية ، والنقد البنّاء) سيُنْغِضُون إلىَّ رءوسهم ، ويقولون : « متعصّب مُبالِغ » ، فأقول بموضوعية :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتنى

ثم أقول بغير موضوعية :

عرفنا جعفراً وبنى أبيه   وأنكرنا زَعانِفَ آخرينِ

ودَعْ ذا ، ثم تمنّ معى أمنيتين : الأولى ، أن تجمع حواشى الأستاذ حفظه الله وتعليقاته ، على ما حقق ونشر ، والأخرى : أن تجمع تصحيحاته على حواشى مكتبته العظيمة ، وسيكون من ذلك أسفار علم ومعرفة ، إن شاء الله .

وأنبّه هنا إلى أن تعليقات شيخنا على ما حقق ونشر ، لم تجر على السَّنَن الذى جرى عليه المحققون ، من توثيق النقول وتخريج الشواهد ، وشرح الغريب فقط ، بل إنها شملت ذلك ، ثم تجاوزته إلى ذكر آرائه فى العقيدة واللغة والأدب ، وعداوة الأمم الأخرى ، وسائر القضايا التى شغلته منذ أيامه الأولى ، وعندى لذلك شواهد كثيرة أودعتها أوراقى بالقاهرة ، فأكتفى بما يحضرنى منها الآن :

قال حفظه الله ، تعليقاً على تفسير أبى جعفر الطبرى ، لقول الله تعالى : ﴿ فأْتُوا حرثكم أنّى شئتم ﴾ : « حجّة أبى جعفر فى هذا الفصل ، من أحسن البيان عن معانى القرآن ، وعن معانى ألفاظه وحروفه ، وهى دليلٌ على أنّ معرفة العربيّة ، وحِذْقها ، والتوغّل فى شعرها وبيانها وأساليبها ، أصلٌ من الأصول ، لا يحلُّ لمن يتكلَّم فى القرآن أن يتكلّم فيه حتى يُحسِنَه

ويحذقه » . ثم نقل كلمةً للإمام الشافعىّ فى ذلك ، رواها الخطيب البغدادى ، فى كتاب الفقيه والمتفقه . قال عقبها : « فليت من يتكلم فى القرآن والدين من أهل زماننا يتورَّع من مخافة ربّه ، ومن هول عذابه يوم يقوم الناسُ لرب العالمين » . [تفسير الطبرى ٤ / ٤١٦] .

وقال مُقارِناً تأويل أبى جعفر الطبرى لأبيات الكميت فى مدح النبىّ ﷺ ، التى أولها :

إلى السِّراج المنيرِ أحمدَ لا   يَعْدِلُنى رغبةٌ ولا رَهَبُ

وقول الجاحظ فيها :

« من شاء أن يعرف فضْلَ ما بين عقلين من عقول أهل الذكاء والفِطنة ، فلينظره إلى ما بين قول أبى جعفر فى حُسْنِ تأتِّيه ، وبين قول الجاحظ ، فى استطالته بذكائه حيث يقول فى كتابه الحيوان ٥ : ١٦٩ ــ ١٧١ ، ونقل كلامه ، ثم قال عَقِبَه : « والجاحظ تأخذ قلمَه أحياناً مثلُ الحكَّة ، لا تهدأ من ثورانها عليه حتى يشتفىَ منها ببعض القول ، وببعض الاستطالة ، وبفَرْط العقل ! ومع ذلك فإن النقّاد يتبعون الجاحظ ثقةً بفضله وعقله ، فربّما هجروا من القول ما هو أولى ، فتنةً بما يقول » . [تفسير الطبرى ، ٢ / ٤٨٦ ، ٤٨٧ ــ سورة البقرة ١٠٧] .

وقال حفظه الله ، تعليقا على خبر وفاء السموأل بن عادياء اليهودى ، فى قصة امرىء القيس معه حينما استودعه سلاحه ، وتهديد الحارث بن أبى شمر للسموأل بقتل ابنه ، إن لم يؤدّ إليه سلاح امرىء القيس ، وقبول السموأل قتل ابنه ، على خيانة من استودعه . يقول شيخنا : « خالف السموأل غدر أهل دينه ، ووفى بعربيته » [طبقات فحول الشعراء صفحة ٢٧٩] .

ويقول تعليقا على قول الربيع بن أبى الحُقَيْق ، من يهود بنى النضير :

لا نجعل الباطل حقاً ولا نلطّ دُونَ الحقّ بالباطلِ

« قال اليهودىّ خيرا ، فكذبه خلف السّوء من ذراريه » . [المرجع نفسه ص ٢٨٢] .

ويقول فى آخر التعريف بضرار بن القعقاع ، من بنى عبد الله بن دارم : « وكنت أخطأت بيان ذلك فى طبعتى السالفة من الطبقات ، فجاءتنى من الأرض المقدسة الطاهرة التى دنستها يهود ، رسالة رقيقة من (م . ى . قسطر) فدلنى على الصواب الذى ذكرته آنفا ، فمن أمانة العلم أذكره شاكراً كارهاً لهذا الذكر » . [المرجع السابق ص ٣٩٥ ــ فى ذكر أخبار جرير] . وتأمل قوله : « شاكراً كارهاً لهذا الذكر » فهذا يساوى كتابا بأكمله ، وهو أيضا مما لا يُطيقه أحدٌ من أهل زماننا .

وهذا المنهج الذى سار عليه الأستاذ محمود محمد شاكر ، فى إخراج كتب التراث وتحقيقها ، منهج عسير بعيد المنال ، تصعب محاكاته ؛ لأنه متصل بعقيدة صحيحة ، وقراءة محيطة ، وظهور بيّن على تراثنا كله . ولكنه على كلِّ حال قد وجَّه إلى أعدل المناهج وأقومها فى تحقيق النصوص ، وحسْبه أنه أشْعَرَ قلوبَ أبناء هذا الجيل ، حبَّ ذلك التراث ، والإخلاص له ، وتلقِّيَه بما ينبغى له من الجلال والحذر .

ولعل أكبر أثر للأستاذ محمود محمد شاكر ، أنه وجّه تلاميذه وقرّاءه ، إلى أن يداخلوا الكتب ، ويصبروا على السير فى دروبها ، وألاّ يكتفوا منها بالنظرة المختلسة ، والقراءة الخاطفة ، وكان أشدّ ما يغيظه أن يرى بعض تلاميذه يفاتش الكتاب عن طريق فهارسه ، فهو حفظه الله يرى أن الفهارس تكشف عن كنوز الكتاب ، لكنها لا تغنى عن قراءته ، والأخذ فيه إلى نهايته ، وكان يضرب لنا المثل على ذلك بأنه استخرج علويّة أبى الطيب

المتنبى ، من خبرٍ صغير ، داخل كتاب كبير ، بين أيدى الناس جميعا ، هو « خزانة الأدب » لعبد القادر البغدادى ، المطبوع بمطبعة بولاق بمصر ، سنة ١٢٩٩ هـ .

وتبقى كلمة عن أسلوب شيخنا ، وبيانه الذى حمل أفكاره ، وأدّاها أبلغَ ما يكون الأداء .

وهو أسلوب يبهرك جماله فيعجزك عن وصفه ، وغاية ما أستطيع أن أقوله عن هذا الأسلوب الذى لا يشبهه أسلوب ، لا فى القديم ولا فى الحديث : أنه أسلوب تحدَّر من سلالة كريمة ، وأنَّ مداره على التذوّق الذى واتاه بعد دُرْبةٍ طويلة متوارثة ، انطلقت من الشعر الجاهلى الذى هو أنبل كلام العرب وأشرفه ، ثم استقرت عند القرآن الكريم ، الذى كان نزوله على النبى العربى حادثة فريدة فى تاريخ البشر . وقد نَمَتْ هذه الدربة عند شيخنا بطول مدارسته للقرآن الكريم ، الذى هو البيان الإلهى الملفوظ ، وقد أفضى به ذلك إلى الإحساس العميق باللفظ العربى ، فى ترجيعه ونغمته ، فى الدلالة والألفاظ والتراكيب والصور .

وأساس البيان عند شيخنا هو دقة التذوق . يقول : « ونحن ــ أبناءَ هذا اللسان العربىّ المبين ــ قد قام أصل حضارتنا على التذوق فى الجاهلية الغابرة ، وفى الإسلام الباقى بحمد الله وحده ، وبلغ التذوق بنا مبلغا سَنياً فريدا ، وحين بدأ تشتته وتبعثره بدأ معهما التدهور والإدبار ، فواجبناَ اليوم أن نعيد بناء أنفسنا على ما بُنِيت عليه حضارتنا من دقّة التذوق ، وأن يكون التذوق أساس عملنا الأدبى فى آثار أسلافنا ، وأن نلاقى كلمات أخبارهم التى أُثِرت عنهم بالفحص النافذ ، وأن ننفُضَ غَيْبَ كلماتهم بالتذوق ، ونتوسَّم بالتفرُّس فى معاطفها ، ثم نستجليها ونسألها ونستخبرها عن هذه السرائر المغيَّبة المحجوبة فى طواياها » [قضية الشعر الجاهلى فى كتاب ابن

سلام ، مخطوط فى مكتبة الأستاذ ، حكاية عن الأخ الأستاذ أحمد حمدى إمام : أبو فهر والحضارة الإسلامية . المذكور من قبل] .

وقد أبان عن قضية التذوق أيضا ، فى حديثه عن تجربته الشاقّة مع المتنبى ، فقال فى كتابه عنه ، صفحة ٦٥ : « ولذلك ، فقد كنت ملفوفاً فى قتام مغبرّ ، لا أسير خطوة حتى أدخل فى قتام أشدَّ غبرة ، فلما تبدّد عنى فجأة هذا القتام ، كان عمود الصورة واضحا كل الوضوح ، إلا أن عمود هذه الصورة لم ترسمه تراجم المتنبى وأخبارُه الكثيرة ، بل رسمها وحدَّدها تذوّقُ شعره ، واستنباط معانيه ودلالته على شخصية أبى الطيب » .

وحديث شيخنا عن التذوق يدور فى كثير مما كتب ، ومنه : « المتنبى ليتنى ما عرفته » ، وقد ردّ به على ما كتبه الأخ الدكتور عبد العزيز الدسوقى ، فى مجلة الثقافة المصرية ، بعنوان : « قضية التذوق الفنى بين محمود شاكر وطه حسين » .

ومن وراء كل ذلك فأسلوب شيخنا أسلوب أديب يُمتع قارئه ، ولا يتعالى عليه ، ثم هو أيضا أسلوب أديب يحترم عقل قارئه ، فلا يبهظه باللغو من الكلام ، ثم هو يريحه بكثرة الإحالات إلى ما مضى من الكلام ، ليجعله على ذُكْر من القضية التى يعالجها ، ولا يتركه حتى يعينه بتلك الشروح اللغوية التى تلتحم بالكلام التحاماً هادئا بارعا .

ولوضوح الفكرة عند شيخنا واستوائها فى خاطره ، يمضى بيانه عنها سهلاً رَهْواً ، لا استكراهَ فيه ولا ثرثرة ، وقد عِشنا زماناً مخدوعين بهؤلاء الأدباء الذين يمضُغُون الكلام مضغا ، ويتشدّقون به تشدُّقا ، ثم يقال عنهم : إن بيانَهم من السَّهل الممتنع ، فلما قرأنا لهذا الإمام ووصَلْنا بالمنابع الأولى ، أدركنا أن هذا الذى وصفوه إنْ هو إلاّ قعْقعةٌ فارغة ، ورنينٌ أجوف ، أو هو ذلك الذى يحسَبُه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

وإن تعجب فعجبٌ أنك تقرأ لهذا الأستاذ الجليل ، وهو فى طَراءة الصِّبا ، ثم تقرأ له وقد عَلَتْ به السِّنّ ، فلا تجد فرقاً بين يومَيْه ، إلاّ ما يكون من بعض الفروق الهيّنة التى تأتى بها القراءاتُ المتجدّدة ، أمَّا نَمَطُ الكلام ، ومنهج الأداء ، فهو هو ؛ لأنه بَوْحُ نفسٍ صادقة مع نفسها ، ومع الناس . واقرأ إن شئت مقدّمته لرسالة أبى هلال العسكرى « فضل العطاء على العسر » ، وهو من أوائل ما نشر ، ومقدمة « تهذيب الآثار » للطبرى ، وهو من أواخر ما أصدر ، تجِدْ صدق ما أقول . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ولم يبق إلاّ أن أدعو لشيخنا الجليل بالسلامة والعافية ، وأن يتقبَّلَ الله منه صالح عمله ، ثم يجعلَه فى موازينه يومَ يأتى كلُّ أناسٍ بإمامهم .

وبعد : فهذا حديث المرحلة الرابعة ، من مراحل نشر التراث فى مصر — مرحلة الأفذاذ من الرجال — وقد أوجزت الكلام عنها إيجازا ، وهى جديرة بأن يُفرد لها كتاب ، إذ كانت من أعظم المراحل وأدقّها وأخطرها ، وقد امتدّ أثرها إلى أرجاء الوطن العربىّ كلِّه .

* * *

نشاط الهيئات العلمية فى مصر

لعلّ أقدم الهيئات العلمية ، التى عُنيت بنشر التراث فى مصر ، هى جامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأول سابقا) . ومن أقدم منشوراتها كتاب الذخيرة فى علم الطب ، لثابت بن قرّة ، تحقيق جورجى صبحى ، سنة ١٩٢٨ م ، ومنتخَب جامع المفردات ، لأحمد بن محمد الغافقى ، انتخاب أبى الفرج بن العبرى (القسمان الأول والثانى منه ، فى الأدوية المفردة) تحقيق ماكس ما يرهوف ، المستشرق والطبيب الألمانى ، المتوفى بالقاهرة ، سنة ١٩٥٤ م ، وجورجى صبحى ، وقد نشر هذا المنتخب سنة ١٩٣٢ م . ونقد النثر المنسوب [١] لقدامة بن جعفر ، تحقيق الدكتور طه حسين ، والأستاذ عبد الحميد العبادى ، سنة ١٩٣٣ م . ورسائل فلسفية ، لأبى بكر محمد بن زكريا الرازى ، تحقيق المستشرق الألمانى باول (بول) كراوس ، المتوفى بمصر منتحراً ، سنة ١٩٤٤ م . وقد نشر من هذه الرسائل الجزء الأول ، الذى تضمن إحدى عشرة رسالة ، سنة ١٩٣٩ م [٢] . والذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (ثلاثة أجزاء) سنة ١٩٣٩ — ١٩٤٥ م ، بإشراف الدكتور طه حسين ، والمستشرق ليفى بروفنسال . وقام على التحقيق بعض الشباب النابهين

---

(١) ظهر أنه كتاب البرهان فى وجوه البيان ، لأبى الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ، وقد نشره بهذه النسبة الصحيحة الدكتور أحمد مطلوب ، وزوجته الدكتورة خديجة الحديثى ، فى بغداد ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م

وكان الدكتور طه حسين ، رحمه الله ، قد شك فى نسبة الكتاب إلى قدامة ، لأسباب عرضها فى البحث الذى قدمه إلى مؤتمر المستشرقين ، فى ليدن سنة ١٩٣١ م ، بعنوان « البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر » ثم نشره فى التقديم لكتاب نقد النثر .

(٢) المستشرقون ص ٧٦٤ ، والأعلام ٤٢/٢

المتخرجين فى كلية الآداب بالجامعة ، وهو محمد عبده عزام ، وعبد العزيز الأهوانى ، وخليل عساكر ، وعبد القادر القط ، وبخاطره الشافعى . وكتاب الأصل ، للإمام محمد بن الحسن الشيبانى ، بتحقيق شفيق شحاته ، سنة ١٩٥٤ م ، والسِّيَر الكبير ، له ، بتحقيق الشيخ محمد أبو زهرة ، والدكتور مصطفى زيد ، رحمهما الله ، سنة ١٩٥٨ م [١] .

ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، للمستشرق زامباور ، (جزءان) سنة ١٩٥١ م ، بإشراف عالم الآثار الإسلامية الكبير الدكتور زكى محمد حسن عميد كلية الآداب ، المتوفى ببغداد ، والمدفون بالقاهرة ، سنة ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧ [٢] .

كما عنيت مجلة كلية الآداب بالجامعة بنشر بعض نصوص التراث ، منها : نقط العروس ، لابن حزم . تحقيق الأستاذ الدكتور شوقى ضيف .

وقد تأثرت مطبوعات جامعة فؤاد الأول ، بمناهج الاستشراق ؛ من حيثُ الاكتفاءُ بتأدية النصّ أداءً صحيحاً ، وذكر فُروق النُّسَخ ، وتقديم الكتاب ، وفهرسته ، لا يَزيدون ولا يَنْقُصون . وقد كان هذا طبيعياً ؛ لأن كثيراً من الذين وجَّهوا الجامعة إلى نشر التراث ، وشاركوا فيه ، كانوا من المستشرقين الذين انتُدبوا للتدريس فى الجامعة ، فى ذلك الزمان ، كما يظهر ــ إن شاء الله ــ فى الحديث عن جهود المستشرقين ، فى نشر التراث .

وقد فتر نشاط الجامعة المصرية فى نشر التراث ، بعد تلك الحقبة ، وكان ذلك خطأً فادحاً ، يأتيك حديثُه فيما بعد [٣] .

* * *

(١) التراث العربى ص ٥٩ ، ٦٠

(٢) المستشرقون ص ٦٣٩ ، والأعلام ٤٨/٣

(٣) فى آخر الحديث عن جهود المستشرقين فى نشر التراث .

لجنة التأليف والترجمة والنشر

تأسَّستْ منذ سبعين عاماً ، وبالتحديد فى سنة ١٩١٤ م . وكانت نواتها طائفة من طلبة مدرسة المعلمين العليا ، ومدرسة الحقوق ، يقول فيهم الأستاذ أحمد أمين ، فى كتاب (لجنة التأليف والترجمة والنشر فى عشرين عاماً) : « طائفة من الشباب تمتلئ نفوسهم غيرةً على العالم الإسلامى ، ويطيلون التفكير فى وسائل إصلاحه والنهوض به ، ألَّف بين أفرادها الشعورُ بالألم من موقف الشرق وخموله ، والإيمان بوجوب العمل على تنبيهه ، والأخذ بيده ، ورفع مستواه » (١) .

وقد تولى رئاسةَ هذه اللجنة الأستاذ أحمد أمين ،مدة ثلاثين سنة (٢) وكان من أعضائها الأستاذ أمين مرسى قنديل ، أبرز وأنشط مديرى دار الكتب المصرية (٣) . والأستاذ عبد الحميد العبادى ، المؤرخ المعروف ، وعضو مجمع اللغة العربية بمصر ودمشق ، وعميد كلية الآداب بجامعة الأسكندرية ، والمتوفى سنة ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٦ م (٤) . ومحمد صبرى أبو علم باشا ، القانونى الخطيب ، وكان من الكتاب المترسِّلين ، وعمل فى الحركة الوطنية مع سعد زغلول باشا ، وتولّى وزارة العدل . توفى سنة ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م (٥) ، والدكتور محمد عوض محمد ، عالم

---

(١) التراث العربى ص ٥٩

(٢) الأعلام ١٠١/١

(٣) انظر ما سبق من الحديث عن المرحلة الثالثة ـــ مرحلة دار الكتب المصرية .

(٤) الأعلام ٢٨٧/٣

(٥) الأعلام ١٦٧/٦

الجغرافيا الكبير ، وكان من أعضاء مجمع اللغة العربية ، وولى وزارة المعارف ، ثم صار مستشارا بهيئة اليونسكو الدولية ، وله مؤلفات ومترجمات كثيرة . توفى سنة ١٣٩١ هـ = ١٩٧٢ م [١] . والأستاذ محمد بدران ، مترجم الموسوعة الكبيرة « قصة الحضارة » لوِلْ ديورانت . وهو من خريجى مدرسة المعلمين العليا .

وله مترجمات أخرى ــ غير قصة الحضارة ــ فى الفلسفة والتاريخ ، والنقد الأدبى [٢] . وكان من أكثر الناس فضلاً وأدبا . ولم أعلم له تاريخ مولد ، أو وفاة .

وقد نهضت لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بمهامَّ جليلةٍ فى إبراز الفكر العربى ، ونقل الثقافة الأوربية ، فنشرت كثيراً من التآليف والترجمات ، فى مختلِف فروع المعرفة ، من التاريخ ، والأدب ، والنقد والفلسفة ، والحضارة ، والعلوم الكونيّة ، كما أفسحت مطبعتها [٣] لنشر بعض أعمال المستشرقين ، وبخاصة جمعية المستشرقين الألمانية ، ومن ذلك : مشاهير علماء الأمصار ، لابن حِبّان البُسْتى ، بتحقيق فلايشهمر ، والدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر (محمد بن قلاوون) وهو الجزء التاسع من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر ،

---

(١) الأعلام ٦/٣٢٠

(٢) بلغ عطاؤه فى الترجمة والمراجعة (٥٤) كتابا ، فى اثنى عشر عاماً ، كما جاء فى الثبت الببليوجرافى للأعمال المترجمة ، فى الفترة ما بين ١٩٥٦ ــ ١٩٦٧ م نقلا عن الدكتورة نعمات أحمد فؤاد . جريدة الأهرام . الخميس ١٤٠٤/٨/٩ هـ = ١٩٨٤/٥/١٠ م

(٣) كانت هذه المطبعة مع مقر اللجنة ، فى شارع الكرداسى ، بشارع حسن الأكبر ، بحىّ عابدين ، على يمينك وأنت قادم من باب الخلق تريد ميدان باب اللوق ، قبل أن تنعطف يميناً إلى شارع عبد العزيز . وانظر شيئاً من نشاط اللجنة فيما يأتى من حديث عن نشر التراث فى المغرب الأقصى .

لابن أيبك الدواداري . بتحقيق هانس روبرت رويمر ، وأجزاء من بدائع الزهور في وقائع الدهور ، لابن إياس ، بتحقيق محمد مصطفى .

ثم كان لها إسهام رائع فى نشر التراث العربى وإذاعته . ومن منشوراتها : السُّلوك لمعرفة دول الملوك ، للمقريزى ، بتحقيق الدكتور مصطفى زيادة ، بُدِئ فى طبعه سنة ١٩٣٤ م ، والهوامل والشوامل ، لأبى حيان التوحيدى ومسكويه ، بتحقيق السيد أحمد صقر وأحمد أمين ، وشرح الحماسة للمرزوقى ، بتحقيق عبد السلام هارون وأحمد أمين [١] ، والإمتاع والمؤانسة ، لأبى حيان التوحيدى ، بتحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ، والبصائر والذخائر ، لأبى حيان أيضا ، بتحقيق أحمد أمين وأحمد الزين (صدر منه مجلد واحد) . والعقد الفريد ، لابن عبد ربه ، بتحقيق أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الأبيارى . وقد صنع فهارسَ الكتاب — وهى الجزء السابع منه — محمد فؤاد عبد الباقى ، ومحمد رشاد عبد المطلب ، رحمهما الله . ونوادر المخطوطات ، من تحقيق شيخى عبد السلام هارون ، وقد تحدثت عنها من قبل . ومعجم ما استعجم لأبى عبيد البكرى بتحقيق مصطفى السقا . والأشباه والنظائر فى الأدب ، للخالديين ، بتحقيق السيد محمد يوسف . والمختار من شعر بشار ، للخالديين أيضا ، بتحقيق السيد

---

(١) كنت قد كتبت ذات يوم أن اسم الأستاذ أحمد أمين ، قد وُضع على غلاف كتاب الهوامل والشوامل ، وكتاب شرح الحماسة ، وأنّ تحقيقَ هذين الكتابين من عمل الأستاذين السيد أحمد صقر ، وعبد السلام هارون ، ثم قلت : إن الأستاذ أحمد أمين ، علم من أعلام النهضة الحديثة فى الفكر العربى والإسلامى ، ولكن تحقيق الكتب — على النحو الذى يسلكه عبد السلام هارون والسيد أحمد صقر — لم يكن من صناعته ، ولا هو فى طَوْقه ، وقد أغضبت كلمتى هذه بعضَ الناس ، فاندفع يردّ علىَّ بما لا يُغنيه شيئا . فأنا أعيد هذا الرأىَ مرّة أخرى ، للتاريخ .

محمد بدر الدين العلوى . وإمتاع الأسماع ، للمقريزى بتحقيق شيخنا محمودمحمد شاكر . وسبقت الإشارة إليه ، فى الحديث عن مطبعة بولاق . وديوان سراقة البارقى ، بتحقيق حسين نصار ، وكان وقتها حديث التخرج من كلية الآداب ، بجامعة القاهرة ، سنة ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م ، ولعل تحقيق هذا الديوان أول أعمال الدكتور حسين نصار العلمية . وخريدة القصر وجريدة أهل العصر ، للعماد الأصفهانى (قسم شعراء مصر) بتحقيق أحمد أمين وشوقى ضيف وإحسان عباس . سنة ١٩٥١ م . ولعل هذا أيضاً أول أعمال الدكتور إحسان عباس العلمية .

وفى منشورات اللجنة مَشابِهُ كثيرة من منشورات دار الكتب المصرية ، من حيث اختيارُ النصوص والمحقّقين الأثبات ، والعناية بجودة الورق ، والإخراج الطباعى ، والتأنّق فيه .

ومن أنفس ما أخرجت لجنة التأليف والترجمة والنشر ، من كتب التراث ، كتاب سِمْط اللآلى ، لأبى عبيد البكرى ، بتحقيق العلامة الثبت عبد العزيز الميمنى الراجكوتى ، وقد صدر الكتاب فى مجلدين ، عام ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٦ م . واسم الكتاب : « اللآلى فى شرح الأمالى » فكلمة « سِمْط » من وضع الأستاذ الميمنى.

وقد أبان العلاَّمة الميمنى ، فى تحقيق هذا الكتاب ، عن علم غزير ، وإحاطة جامعة بالتراث العربى ، وبخاصة ما يتصل بالشعر ورواياته ، وأخبار الشعراء والرواة ، ومُداخَلِةِ الكُتُب ، واستنطاقها ، وبراعة التعامل معها . ويُعدُّ تحقيق هذا الكتاب آيةً من آيات الإبداع ، فى تحقيق النصوص وتوثيقها ، وقد كانت حواشيه ــ ولا تزال ــ مَعِيناً ثَراًّ ، وكلأً مباحاً لمحقّقى الأدب ، وناشرى الشعر القديم ، يفيدون منه دون إحالةٍ عليه ، أو يحيلون إحالاتٍ ضالَّةً ظالمة ، لا تذكر وجه الاستفادة والنفع منه ، كما يحيلون على أى كتاب

آخر لمحقِّق مغمور . وبالله نعوذ من الجور ، وعدم الإنصاف .

وهذا الشيخ عبد العزيز الميمنى الراجكوتى من أكبر علماء الباكستان المعنيِّين بشئون التراث وقضاياه ، وقد كان لمصر فضلُ التعريف به ، وإظهارِ علمه ، فقد نشرت له مطابعها كثيراً من تحقيقاته ، أذكر منها « السمط » : والطرائف الأدبية [1] (مجموعة من الشعر القديم) نشرته له أيضاً مطبعة اللجنة عام ١٩٣٧ م . وكتاب الفاضل ، للمبرد ، وديوان حميد بن ثور الهلالى ، وديوان سحيم عبد بنى الحسحاس . والثلاثة من مطبوعات دار الكتب المصرية ، كما سبق ، وما اتفق لفظه واختلف معناه ، ونسب عدنان وقحطان ، كلاهما للمبرد ،وما تلحن فيه العامة ، للكسائى . من مطبوعات المكتبة السَّلفية بمصر .

كما نشرت له دار المعارف بمصر ، فى سلسلة (ذخائر العرب) : بالمكتبة السلفية ، كما تقدّم فى حديثى عن شيخى عبد السلام هارون . العربية محمود محمد شاكر . وكتاب المنقوص والممدود ، للفرّاء ، والتنبيهات على أغاليط الرواة ، لعلى بن حمزة (فى مجلد واحد) .

ومن تآليفه النافعة كتاب « إقليد الخزانة » ، وهو فهرس الكتب الواردة فى خزانة الأدب ، للبغدادى . من مطبوعات جامعة البنجاب بالهند ، عام ١٩٢٧ م .

هذا إلى مشاركته فى التعليق على الأربعة الأجزاء التى طبعت من الخزانة ، بالمكتبة السلفية ، كما تقدّم فى حديثى عن شيخى عبد السلام هارون .

---

(١) اشتملت على ديوان الأفوه الأودى ، والشنفرى ، وإبراهيم بن العباس الصولى ، والمختار من شعر المتنبى ، والبحترى ، وأبى تمام للشيخ عبد القاهر الجرجانى ، وتسع قصائد نادرة .

وله من وراء ذلك مقالات وبحوث كثيرة حول نوادر المخطوطات التى رآها فى مكتبات القاهرة واستانبول والهند والاسكوريال ، وقد نشرها فى مجلات ، شرقية وغربية .

توفى رحمه الله منذ نحو خمس سنوات ، ولعلى أظفر بترجمة كاملة له . رحمه الله رحمة واسعة ، وأجزل له المثوبة والرضوان .

* * *

دار المعارف

من أشهر دور النشر فى المشرق العربى . وقد بدأت نشاطها فى إحياء التراث العربى ، سنة ١٩٤٢ م ، بنشر المفضليات ، ثم الأصمعيات ، وهما من أوثق المجاميع الشعرية القديمة .وقام على تحقيقهما الشيخ أحمد محمد شاكر ، والأستاذ عبد السلام هارون ، تحت عنوان : (ديوان العرب) .

ثم اقترح الأستاذان الجليلان على دار المعارف ، أن تُخصِّص نشراً منظَّماً لعيون التراث العربى ، فسرعان ما استجابت لهذا الاقتراح ، وقامت بتنظيم تنفيذه ، وقد أعلنت الدار فى ذلك الوقت عن مسابقة لتسمية هذا المشروع ، ففاز به عنوان : (ذخائر العرب) ، يشترك فى تحقيقها علماء الشرق والغرب .

وكان باكورة هذه المجموعة كتاب مجالس ثعلب ، فى مجلدين ، بتحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون [(١)] ، عام ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٨ م ، وقد قدمته اللجنة المشرفة على هذه السلسلة ـــ والمكونة من الأساتذة : محمد حلمى عيسى ، وأحمد أمين ، وطه حسين ، وعلى الجارم ، وعبد الوهاب عزام ، وإبراهيم مصطفى ، وأحمد محمد شاكر ـــ بكلمة جيدة ، أشارت فيها إلى جهود المستشرقين ، ثم أبانت عن منهجها القائم على إذاعة التراث العربى كله ؛ مشرقيّه ، ومغربيّه ، والإفادة من كل العلماء المشتغلين بتحقيق النصوص ، من عرب وعجم . وكان الكتاب الثانى فى هذه السلسلة : جمهرة أنساب العرب [(٢)] ، لابن حزم الأندلسى ، بتحقيق المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال .

---

(١) التراث العربى ص ٦١

(٢) كانت النشرة الثانية من هذا الكتاب ، بتحقيق شيخنا عبد السلام هارون ، عن دار المعارف أيضا .

وقد والت الدار إصدار هذه الذخائر التى شملت كثيراً من فروع التراث ، وقد بلغت إلى الآن نحو ستين كتابا ، منها ما هو فى عشر مجلدات ، ومنها ما هو فى خمس .

وتحرص دار المعارف على أن تكون النصوص التى تخرج فى هذه السلسلة مطابقةً لعنوانها ، كما أنها تحرص على أن تخرجها فى آنق صورة . ويُعدّ قسم التصحيح فى دار المعارف من أحسن أقسام التصحيح ، فى المطابع العامة والخاصة .

ولا أسمِّى كتاباً من هذه الكتب التراثيّة التى أخرجتها دار المعارف ، فهى معروفة متداولة ، والدار تُسرع إلى إعادة ما ينفد من طبعاتها، كما أن سارقى الجهود والكتب فى بيروت ، لم يقربُوا مطبوعات الدار إلى الآن ، فلسنا فى حاجة إلى أن ندلَّ الناسَ عليها .

وقد بدأت دار المعارف ، فى سنة ١٣٧٤ هـ إصدارَ سلسلة أخرى من عيون التراث ، سَمَّتْها : (تراث الإسلام) ، كان الكتاب الأول فيها : تفسير الطبرى ، من تحقيق شيخ العربيّة محمود محمد شاكر ، وقد خرَّج أحاديثَه المحدّث الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر . وقد أصدرت منه الدار ستّة عشر مجلَّداً ضِخاماً ، وقفت فى أثناء تفسير سورة إبراهيم عليه السلام .

وكان الكتاب الثانى فى هذه السلسلة : جوامع السيرة ، لابن حزم ، مع خمس رسائل أخرى ، له ، وهى :

١ ــ رسالة فى القراءات المشهورة فى الأمصار .
٢ ــ رسالة فى أسماء الصحابة رواةِ الحديث ، وما لكلِّ واحدٍ من العدد .
٣ ــ رسالة فى تسمية من رُوِى عنهم الفُتْيا من الصحابة ومَن بعدهم .

٤ ــ جُمَل فتوح الإسلام .
٥ ــ أسماء الخلفاء المهديِّين والأئمة أمراء المؤمنين .

وقد حقق هذا الكتابَ الدكتور إحسان عباس ، والدكتور ناصر الدين الأسد ، وراجعه الشيخ أحمد محمد شاكر .

* * *

معهد إحياء المخطوطات العربية

أنشئ هذا المعهد بالقاهرة ، عام ١٩٤٦ م ، قسماً من أقسام اللجنة الثقافية ، بجامعة الدول العربية ، وكان يرأس هذه اللجنة الدكتور طه حسين ، ويشرف عليها ويوجّهها الأستاذ أحمد أمين .

وكانت الغاية الأولى من إنشاء هذا المعهد : هى تصويرَ المخطوطات العربية من مظانِّها ، وفهرستها ، وإعدادها للباحثين والدارسين .

وقد رسم معهد المخطوطات من أول الأمر ، منهجاً دقيقا لتحقيق تلك الغاية ، فكوَّن لجنة عكفت على موسوعة بروكلمان « تاريخ الأدب العربى (١) » . واستخرجت نفائس المخطوطات ، وأسماء المكتبات التى تحتفظ بها . وكان من أعضاء هذه اللجنة الدكتور خليل عساكر ، والدكتور عبد العزيز الأهوانى . رحمه الله .

وإذْ تمَّ للمعهد ذلك ، أخذ فى التصوير ، فصوَّر نوادر مكتبات مصر : دار الكتب المصرية ، والمكتبة الأزهرية ، ومكتبة البلدية بالأسكندرية ، وبعض عواصم مصر ، مثل طنطا ، ودمياط ، والمنصورة ، وشبين الكوم ، وسوهاج .

ثم انطلقت بعثاته شرقاً وغربا ، إلى استانبول ، والهند ، والقدس ، وسوريا وبيروت ، وتونس والمغرب ، والمملكة العربية السعودية ،

---

(١) وكان ذلك حافزاً للجنة الثقافية لتنهض إلى ترجمة هذا الكتاب ، وعهدت بذلك إلى العلامة المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار ، الذى ترجم منه ثلاثة أجزاء ، ثم أعجلته المنية عن إتمامه .

واليمن الشمالى والجنوبى ، ومكتبات أوربا وأمريكا . ثم كان المعهد مستودعاً لمصورات هيئة اليونسكو الدولية ، من القاهرة ، والعراق ، والمغرب ، وليبيا (١) ، فى أوائل الستّينات الميلادية .

ولا يعرف كثيرٌ من الناس ، العناءَ الباهظَ الذى احتمله أعضاء هذه البعثات من موظفى معهد المخطوطات ، وما كابدوه من مشقّة ونَصَب ، فإن تصوير المخطوطات كان ولا يزال محفوفاً بالمصاعب ، وبخاصّة فى تلك البلدان التى يرى بعضهم فى مخطوطاتها أنهم أحقّ بها وأهلها ، فإذا نظرتَ فيما أخرجوه من هذه المخطوطات وحقّقوه لم تجد شيئاً إلاَّ شيئاً لا يُعْبأ به ، وناهيك بالمكتبات الخاصّة التى تغصّ بالمخطوطات ، ويضنّ بها أصحابها على طلبة العلم ، ظناًّ منهم أنها إرثٌ كريم يخصُّهم وحدهم ، ولا ينبغى التفريط فيه ، فيتركونها تغتالها عوادى الأيام اغتيالا ؛ من الرطوبة والأرضة . وهيهات أن تقنعهم بأن تصوير المخطوطات من البرِّ بها والصيانة لها . وهذا حديث مُرٌّ طويل (٢) .

---

(١) قد يظن ظان أن ليبيا ، ليست من البلدان المعروفة بالمخطوطات ، ولكن هيئة اليونسكو صورت من مدينة طرابلس ، أشياء ثمينة ، منها نسخة جيدة من كتاب غريب الحديث ، لأبى سليمان الخطابى ، ونسخة من كتاب الأغفال ، لأبى على الفارسى . وهاتان النسختان من محفوظات معهد المخطوطات بالقاهرة . ثم قرأت أخيراً بملحق التراث بجريدة المدينة المنورة ، بالمملكة العربية السعودية (٢٠ من شهر صفر ١٤٠٤ هـ) خبراً عن تحقيق كتاب « الجوهرة فى نسب النبى ﷺ وأصحابه العشرة » ، لمحمد بن أبى بكر بن عبد الله بن موسى الأنصارى التلمسانى البرى ، من علماء الأندلس فى القرن السابع . ومخطوطة الكتاب بخط المؤلف ــ وهو مسوَّدته ــ وقد عثر عليها المحقق الدكتور محمد ألْتُونجى ، فى مكتبة جامعة قار يونس بمدينة بنى غازى . وكم فى الزوايا من خبايا !

(٢) أقول هذا من موقع المعاناة والمعايشة ، فقد خرجتُ فى بعثات المعهد إلى تركيا والمغرب الأقصى ، والمملكة العربية السعودية ، واليمن الشمالى . والإنصاف يقتضينى أنَ=

ومهما يكن من أمر فقد نجحت بعثات المعهد فى تصوير واستنقاذ كثير من هذا التراث المخطوط ، وعادت به إلى القاهرة ، زاداً شهياًّ ، ثم عكف عليه موظفو المعهد ، فهرسةً وتصنيفاً وتعريفا .

وحين أفسحت الجامعات العربية صدرها ، لتحقيق التراث ، حصولاً على شهاداتها العليا ، كان معهد المخطوطات مثابةً وملاذاً ، فزع إليه الدارسون ، فهيّأ لهم ما لديه من مخطوطات ، ثم يسَّر لهم الحصول على ما فى المكتبات الأخرى داخلَ مصر وخارجَها .

ولم يكن العاملون بمعهد المخطوطات ، يلْقَوْن المتردِّدين عليه بما كان يلقاهم به غيرُهم فى المكتبات الأخرى ، بل إنهم لم يكتفوا بما تقتضيه الوظيفة ، من تيسير الخدمة المكتبيّة ، فى حدودها ورسومها المعروفة ، بل تجاوزوا ذلك ، إلى تقديم العَوْن فى الدلالة على كلِّ ما له صِلةٌ بالكتاب المحقّق ، أو الدراسة المطلوبة ، ثم أباحُوا فى أريحيّة وسماحة مكتباتهم الخاصّة لطلبة العلم ، يأخذون منها ما يشاءون من مطبوعاتٍ نادرة . فعل ذلك محمد رشاد عبد المطلب ، ومحمد مرسى الخولى ـــ رحمهما الله ـــ وعبد الفتاح محمد الحلو ، ومحمود محمد الطناحى . وقد عرف ذلك مَن عَرَف ، ونسيه مَن نسى . « وعند الله فى ذاك الجزاءُ » .

ولعلّ ما عاق معهدَ المخطوطات ، فى السنوات الأخيرة ، عن تنفيذ

= أشير وأشيد بما لقيته بعثة المعهد من ترحيب وعون بعض أصحاب المكتبات الخاصة بالمغرب ، مثل العلاّمة الأستاذ محمد المنونى بالرباط ، والسيد عبد الله الصبيحى بمدينة سلا ، وبيت آل عبد القادر بالمبرَّز بالأحساء من المملكة العربية السعودية ، ومكتبة السيد عبيد مدنى ، رحمه الله ، بالمدينة المنورة ، ومكتبة الشيخ محمد العبيكان بالرياض ، ومكتبات علماء القصيم ، وعلى رأسهم الشيخ الفاضل محمد بن صالح العثيمين ، والشيخ سليمان بن صالح بن بسَّام ، بمدينة عُنيزة .

واليمن الشمالى والجنوبى ، ومكتبات أوربا وأمريكا . ثم كان المعهد مستودعاً لمصورات هيئة اليونسكو الدولية ، من القاهرة ، والعراق ، والمغرب ، وليبيا (١) ، فى أوائل الستّينات الميلادية .

ولا يعرف كثيرٌ من الناس ، العناءَ الباهظَ الذى احتمله أعضاء هذه البعثات من موظفى معهد المخطوطات ، وما كابدوه من مشقّة ونَصَب ، فإن تصوير المخطوطات كان ولا يزال محفوفاً بالمصاعب ، وبخاصّة فى تلك البلدان التى يرى بعضهم فى مخطوطاتها أنهم أحقّ بها وأهلها ، فإذا نظرتَ فيما أخرجوه من هذه المخطوطات وحقّقوه لم تجد شيئاً إلاَّ شيئاً لا يُعْبأ به ، وناهيك بالمكتبات الخاصّة التى تغصّ بالمخطوطات ، ويضنّ بها أصحابها على طلبة العلم ، ظناً منهم أنها إرثٌ كريم يخصُّـهم وحدهم ، ولا ينبغى التفريط فيه ، فيتركونها تغتالها عوادى الأيام اغتيالا ؛ من الرطوبة والأرضة . وهيهات أن تقنعهم بأن تصوير المخطوطات من البرِّ بها والصيانة لها . وهذا حديث مُرٌّ طويل (٢) .

---

(١) قد يظن ظان أن ليبيا ، ليست من البلدان المعروفة بالمخطوطات ، ولكن هيئة اليونسكو صورت من مدينة طرابلس ، أشياء ثمينة ، منها نسخة جيدة من كتاب غريب الحديث ، لأبى سليمان الخطابى ، ونسخة من كتاب الأغفال ، لأبى على الفارسى . وهاتان النسختان من محفوظات معهد المخطوطات بالقاهرة . ثم قرأت أخيراً بملحق التراث بجريدة المدينة المنورة ، بالمملكة العربية السعودية (٢٠ من شهر صفر ١٤٠٤ هـ) خبراً عن تحقيق كتاب « الجوهرة فى نسب النبى ﷺ وأصحابه العشرة » ، لمحمد بن أبى بكر بن عبد الله بن موسى الأنصارى التلمسانى البرى ، من علماء الأندلس فى القرن السابع . ومخطوطة الكتاب بخط المؤلف ــ وهو مسوَّدته ــ وقد عثر عليها المحقق الدكتور محمد ألْتُونجى ، فى مكتبة جامعة قار يونس بمدينة بنى غازى . وكم فى الزوايا من خبايا !

(٢) أقول هذا من موقع المعاناة والمعايشة ، فقد خرجتُ فى بعثات المعهد إلى تركيا والمغرب الأقصى ، والمملكة العربية السعودية ، واليمن الشمالى . والإنصاف يقتضينى أن=

ومهما يكن من أمر فقد نجحت بعثات المعهد فى تصوير واستنقاذ كثير من هذا التراث المخطوط ، وعادت به إلى القاهرة ، زاداً شهياً ، ثم عكف عليه موظفو المعهد ، فهرسةً وتصنيفاً وتعريفا .

وحين أفسحت الجامعات العربية صدرها ، لتحقيق التراث ، حصولاً على شهاداتها العليا ، كان معهد المخطوطات مثابةً وملاذاً ، فزع إليه الدارسون ، فهيّأ لهم ما لديه من مخطوطات ، ثم يسَّر لهم الحصول على ما فى المكتبات الأخرى داخلَ مصر وخارجَها .

ولم يكن العاملون بمعهد المخطوطات ، يلْقَوْن المتردِّدين عليه بما كان يلقاهم به غيرُهم فى المكتبات الأخرى ، بل إنهم لم يكتفوا بما تقتضيه الوظيفة ، من تيسير الخدمة المكتبيّة ، فى حدودها ورسومها المعروفة ، بل تجاوزوا ذلك ، إلى تقديم العَوْن فى الدلالة على كلِّ ما له صِلةٌ بالكتاب المحقّق ، أو الدراسة المطلوبة ، ثم أباحُوا فى أريحيّة وسماحة مكتباتهم الخاصّة لطلبة العلم ، يأخذون منها ما يشاءون من مطبوعاتٍ نادرة . فعل ذلك محمد رشاد عبد المطلب ، ومحمد مرسى الخولى ــ رحمهما الله ــ وعبد الفتاح محمد الحلو ، ومحمود محمد الطناحى . وقد عرف ذلك مَن عَرَف ، ونسيه مَن نسى . « وعند الله فى ذاك الجزاءُ » .

ولعلّ ما عاق معهدَ المخطوطات ، فى السنوات الأخيرة ، عن تنفيذ

= أشير وأشيد بما لقيته بعثة المعهد من ترحيب وعون بعض أصحاب المكتبات الخاصة بالمغرب ، مثل العلاّمة الأستاذ محمد المنونى بالرباط ، والسيد عبد الله الصبيحى بمدينة سلا ، وبيت آل عبد القادر بالمبرَّز بالأحساء من المملكة العربية السعودية ، ومكتبة السيد عبيد مدنى ، رحمه الله ، بالمدينة المنورة ، ومكتبة الشيخ محمد العبيكان بالرياض ، ومكتبات علماء القصيم ، وعلى رأسهم الشيخ الفاضل محمد بن صالح العثيمين ، والشيخ سليمان بن صالح بن بسَّام ، بمدينة عُنيزة .

برامجه ، والوفاء بأهدافه ، هو اشتغاله بتلبية حاجات طلبة الدراسات العليا (١) .

نقول هذا للتاريخ ، ولا نُتْبِعُ ما فعلْنا مَناً ولا أذى ، فقد كثر الحديثُ فى هذه الأيام عن جمع التراث ، وحفظ التراث ، ونشر التراث ، إلى آخر هذه القائمة الطويلة التى يردّدُها من يعرف ومن لا يعرف ، ونسى الناسُ ما فعله الروّادُ الأوائل ، فلا تكاد تسمع شيئا فى هذه الأيام عن جهود ذلك المعهد العريق ، ورجاله المخلصين .

وقد تعاقب على معهد المخطوطات رؤساء كثيرون ، كان أولهم الدكتور يوسف العِشّ ، وهو من علماء المخطوطات البارزين . وكان قبل تولّيه إدارة المعهد محافظاً لدار الكتب الظاهرية بدمشق مدة عشر سنوات ، وصنَّف فهرساً لما تحتويه من مخطوطات تاريخية ، وهو أول من تخصّص فى تنسيق الكتب والوثائق فى سوريا .

وقد خرج فى أول بعثة للمعهد إلى استانبول ، سنة ١٩٤٩ م ، فعاد منها بنفائس كثيرة . وقد عاونه فى هذه البعثة محمد رشاد عبد المطلب ومحمد بن تاويت الطَّنْجِى (٢) . توفى يوسف العش بدمشق عام ١٣٨٧ هـ

---

(١) لم يكن ذلك مقصوراً على من حضر إلى المعهد فى القاهرة فقط ، بل شمل ذلك أيضاً طلبة العلم والباحثين من مختلف أنحاء العالم ، التى كان رسائلهم ترِدُ على المعهد كلَّ يوم .

(٢) من علماء المغرب المعاصرين اثنان ، كل منهما يسمى : محمد بن تاويت . أولهما هذا . وقد ولد بطنجة وتعلم بالقاهرة . ثم تعلم التركية ، وأقام باستانبول ، أستاذا فى كلية الإلهيات . وله عناية بآثار ابن خلدون . وله تحقيقات منها : أخلاق الوزيرين ، لأبى حيان التوحيدى ، والمكاثرة عند المذاكرة ، لأبى جعفر الطيالسى ـــ نشره بأحد أعداد مجلة كلية الشرقيات ـــ كما نشر بالاشتراك مع الأستاذ محمد الفاسى كتاب مختصر العين ، لأبى بكر الزبيدى . توفى باستانبول عام ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م [الأعلام ٦/٦٢] أما الثانى أمدّ الله فى عمره ـــ فهو من العلماء الأثبات ، وله دراسات تراثية جادة وعميقة . وقد قرأت له =

= ١٩٦٧ م [١] .

ثم كان من أبرز وأنشط رؤساء المعهد ، الدكتور صلاح الدين المنجد ، وهو من رجال سوريا أيضاً ، ويُعَدّ من خبراء المخطوطات ، العارفين بالنوادر والنفائس [٢] . وكان له جهدٌ ظاهر فى المعهد ، قام به وأعانه عليه قومٌ آخرون ، منهم الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب ــ ابن المعهد البارّ ، وشعلةُ نشاطِه المتّقِدة ــ والأستاذ فؤاد سيد ، والدكتور لطفى عبد البديع ، وفهارس المعهد من تصنيف هذين العالمين .

وقد أصدر الدكتور المنجد مجلة معهد المخطوطات ، وهى أول مجلة عربية تعنى بشئون المخطوطات ، والتعريف بها ، وأماكن وجودها ، ورَصْد ما نُشر منها . وقد نُشرت فيها طائفة من النصوص الصغيرة . وقد أصابت هذه المجلةُ نجاحاً كبيرا ــ وبخاصة فى أعدادها العشرة الأولى ــ وكتب فيها كبار العلماء فى الشرق والغرب . وصدر العدد الأول منها فى شهر رمضان ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٥ م [٣] .

= فى أثناء إقامتى بالمغرب عام ١٣٩٥ هـ مقالاً عالياً بمجلة دعوة الحق المغربية فى نقد تحقيق كتاب البرصان والعرجان للجاحظ ، الذى قام به صديقنا المرحوم الدكتور محمد مرسى الخولى .

(١) الأعلام ٨/٢٣١

(٢) لم أعرف هذا الرجل ، ولم ألتق به إلى الآن ، فقد التحقت بمعهد المخطوطات ، بعد تركه له ، لكنى فى خلال عملى بالمعهد ــ الذى استمر خمسة عشر عاما ــ كنت أحسّ بصماته ولمساته فى جميع أرجاء المعهد . فهذه شهادةٌ أؤدِّيها على وجهها .

(٣) وقد أفردت المجلة بعض أعدادها لنصوص خاصة . مثل الجزء الأول من المجلد السابع ، الذى خصص لكتاب المرشد ، أو الفصول للرازى ، والمجلد الثامن كله لكتاب تحديد نهايات الأماكن ، للبيرونى ، وكذلك المجلدات الخاصة بدواوين عمرو بن قميئة ، والمتلمّس ، والمثقّب .

ولقد كان من أهداف معهد المخطوطات نشرُ الموسوعات التراثيّة ، منفرداً أو متعاوناً مع دور النشر الأخرى .

ومما أصدر من ذلك : شرح السِّيَر الكبير ، لمحمد بن الحسن الشيبانى ، والشارح هو أبو بكر محمد بن سهل السرخسى (خمسة أجزاء) ومختار الأغانى لابن منظور صاحب لسان العرب (ثمانية أجزاء) نشره بالتعاون مع الهيئة المصرية العامة للكتاب . والمحكم ، لابن سيده (ظهر منه سبعة أجزاء ، وبقيت خمسة) بالتعاون مع مطبعة مصطفى البابى الحلبى . ثم باشر — بالتعاون مع دار المعارف — طبع كتاب أنساب الأشراف ، للبلاذرى ، وسير أعلام النبلاء لمؤرخ الإسلام شمس الدين الذهبى ، وصدر من الأول جزءٌ واحد ، ومن الثانى ثلاثة أجزاء .

وكان معهد المخطوطات فى سنواته كلها شعلةَ نشاط ، وخليّةَ نَحْل ، ومنارةَ علم .

ثم عَدَتْ عَوادٍ ، وأطْبَقَتْ غَواشٍ .... وكان ما كان مما لستُ أذكره . وتوقف نشاط معهد المخطوطات ، فى إحياء التراث ، وفى غيره . وإنا لله وإنا إليه راجعون .

* * *

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

قام هذا المجلس تابعاً لوزارة الأوقاف المصرية ، فى نحو سنة ١٣٨٠ هـ . وقد بدأ بدايةً فارهة ، حيث وجَّهت أعمالَه لجنة من كبار علماء المخطوطات ، وخبراء التراث ، منهم الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، والشيخ أبو الوفا المراغى (مدير المكتبة الأزهرية) والأستاذ فؤاد سيد ، والأستاذ محمد رشاد عبد المطلب .

وقد أصدر المجلس طائفة من عيون التراث منها : تحرير التحبير ، لابن أبى الإصبع المصرى ، وموطأ مالك ، برواية محمد بن الحسن الشيبانى . والمنازل والديار لأسامة بن منقذ ، والمعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، لعبد الواحد المراكشى ، وتثقيف اللسان وتنقيح الجنان ، لابن مكى الصقلى ، والمحتسب فى تبيين وجوه شواذّ القراءات ، لابن جنى ، والدرر فى اختصار المغازى والسِّير ، لابن عبد البر ، وما ينصرف وما لا ينصرف ، لأبى إسحاق الزجاج ، وتاريخ الموصل ، لابن إياس الأزدى ، وإعلام الساجد بأحكام المساجد ، لبرهان الدين الزركشى ، والسَّماع ، لابن القيسرانى ، وغاية المرام من علم الكلام ، للسيف الآمدى ، وبصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزابادى ، وكشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية (فى النقود العربية وطريقة سكّها) لمنصور بن بعرة الذهبى الكاملى . وتخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله من الحرف والصناعات الشرعية للخزاعى ، ومن الكتب التى أصدر منها أجزاء ، ولم تكمل : الغريبين (غريبى القرآن والحديث) لأبى عبيد الهروى . والحماسة البصرية ، لصدر الدين البصرى ، وإنباء الغُمْر بأنباء أبناء العُمْر ، لابن حجر العسقلانى ، والطبقات السنية فى تراجم الحنفية ، لتقى الدين التميمى . ولطائف

الإشارات فى علم القراءات ، لشهاب الدين القسطلانى المصرى ، شارح البخارى ، وسبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ـ ﷺ ـ ويسمى السيرة الشامية ، لشمس الدين الشامى الصالحى . والمذكر والمؤنث ،لأبى بكر بن الأنبارى .

وعن لجنة السُّنَّة بالمجلس ، صدر : معرفة السنن والآثار ، ودلائل النبوّة ، كلاهما للبيهقى ، ولم يكملا .

وقد عصفت بهذا المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عواصفُ ، جمَّدتْ نشاطه ، ولا يزال المخلصون ينفخون فيه .

ومن أنفس ما أخرج المجلس ، الكتابُ المقتضَب ، لأبى العباس المبرد ، (أربعة أجزاء ، مع مقدمة نفيسة عن حياة المبرد وآثاره وآرائه النحوية) .

وهذا الكتاب هو الذى عرَّف الناسَ بعالم جليل ونحوىٍّ ضليع ، هو الأستاذ الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة . وكان من قبلُ متوارياً ، يعرفه طلبة كلية اللغة العربية بالأزهر ، وحدهم ، ثم تعرفه قاعةُ المخطوطات بدار الكتب المصرية ، مكباً على النَّسْخ والقراءة ، لا يكلِّم أحداً ولا يكلِّمه أحد ، وكنت لا تراه إلاّ فى هذه القاعة ، ثم فى مكتبة حسين حجاج [1] ، ومكتبة الشيخ

---

(١) كانت مكتبته فى وسط ميدان باب الخلق ، قريباً من دار الكتب . وقد ضمت هذه المكتبة قدراً كبيراً من نوادر المخطوطات والمطبوعات . وممن استفادوا من نفائس هذه المكتبة الورَّاق العراقى الكبير قاسم الرجب ، صاحب مكتبة المثنى ببغداد ، وصاحب الأيادى البيضاء على النشر والناشرين . رحمه الله . وكان فى حسين حجاج هذا انقباضٌ عن الناس . توفى رحمه الله منذ نحو عشر سنوات .

على خربوش (١) .

وقد كشف الشيخ عضيمة فى تحقيق الكتاب المقتضب عن علمٍ غزير ، ظلَّ حبيسَ صدره طَوالَ هذه السنوات التى سبقت طبع المقتضب .

---

(١) الشيخ على خربوش ــ بفتح الخاء المعجمة بعدها راء ساكنة ، ثم باء مضمومة وشين معجمة ــ شخصية عجيبة غريبة فى دنيا المطبوعات القديمة . تراه فى مكتبته الزاخرة بأشتات من المطبوعات التى وضعت على غير ترتيب ولا تصنيف ، غارقاً فى لُجَّتها ، وقد التحم بها والتحمت به ، تنطق ملامحه بالقدِم والعتاقة ، فكأنه طبعة نادرة من طبعات بولاق ، أو لَيْدن . ما رأيته بعمامته الغريبة وثوبه الفضفاض إلاّ وتمثّلت لى صورةٌ نابضة بالحياة والحركة لورَّاق من ورَّاق بغداد ، الذين ذكرهم ابن النديم فى الفهرست . يكلّمك فى عجلة واقتضاب ، ولا يقبل منك مساومةً أو مراجعة ، فإذا أكثرت التردُّدَ عليه ، وأنِس إليك ، ووجد فيك رائحة العلم ، فتح لك قلبه ومكتبته ، وتركك تجوس خلالها ، تقرأ ما تشاء ، وتنتقى ما تشاء ،واجلسْ ما شئت من الساعات واخرُجْ دون أن تشترىَ شيئا ، وما عليك من بأس فقد وقعت منه موقع الرضا والقبول . أما إذا ثقُلْتَ على قلبه ، وأحَسَّ منك كِبراً أو عُجْباً فهيهات أن تحظى منه بشئ ، مهما سخوت له فى الثمن ، وأجزلت العطاء .

ومن عجيب أمر هذا الرجل ، أنه كان يجمع نوادر ما يسقط إليه من المطبوعات ويحزمها ، ويذهب بها إلى العلماء فى بيوتهم ، ويتحمل فى ذلك مشقّة الانتِقال ، ووعثاء الطريق ، وكثيراً ما رأيته فى ليالى الشتاء الباردة يحمل هذه الأثقالَ إلى بيت الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم بمصر الجديدة ، وبينها وبين بيته فى شارع المغربلين بحىّ الدرب الأحمر ، نحو خمسة عشر كيلومترا .

وقد ظلّ الشيخ على خربوش مَعْلَماً من معالم القاهرة التراثيّة زمنا طويلا ، وكانت فيه غفلة ، مبعثها صفاءُ نفسه ، وقِلّةُ حرصه ، فكثيراً ما كان زملاؤه فى الصنعة من الورَّاقين يأخذون منه الكتب بثمن بَخْس ، ثم يبيعونها بأغلى الأثمان . وتقع مكتبته ــ أمد الله فى عمره ــ فى شارع درب الجماميز (بورسعيد الآن) أمام مستشفى أحمد ماهر ، على يمينك وأنت قادم من باب الخلق تريد ميدان السيدة زينب . وله ولد يسمَّى إبراهيم ، ورِث عن أبيه حبَّ الكتب ــ وإن قصَّر فى جَمْعها ــ كما ورث عنه أيضا طيبَ الخلق وكرم النفس ، والسرعةَ فى الحديث أيضا .

وللشيخ على وأمثاله من الورّاقين فضلٌ على العلماء ظاهر ، فهم قد أعدُّوا لهم أصول=

ولعلَّ أنفع ما فى تحقيق هذا الكتاب أنه دلَّ الناسَ على كتاب سيبويه ، وفتح لهم مقفله ، وخاضَ بهم لُججه ، فقد ربط الشيخ بين مسائل المقتضب ومسائل سيبويه ربطاً محكماً ، إلى فوائد أخرى نثرها الشيخ فى حواشيه .

= علمهم ، حين سَعَوْا فى جمع المطبوعات القديمة وتحصيلها ، بل إن بعض هؤلاء الوراقين كان يذهب إلى ورثة العلماء فى الكفور والنجوع ، ليستنقذ ما خلّفوه ، قبل أن تذهب به يد الأيام .

ومن أدركت من الورَّاقين : زكى مجاهد ، صاحب كتاب الأعلام الشرقية (تراجم رجال القرن الرابع عشر الهجرى) ، ومحمد العَبَّادى ، وكان يعمل من قبل فى مكتبة محمود توفيق ، الكتبى الشهير . وقد رأيت عند العبّادى هذا مكتبة الشيخ عيسى مَنُّون ، عميد كلية الشريعة بالأزهر . وكان شيخاً لرواق الشوام ، ومن هيئة كبار العلماء توفى سنة ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧ م . وقد حوت مكتبته نوادر المخطوطات والمطبوعات . وبخاصة فى فقه الشافعية ، إذ كان الشيخ على مذهب الشافعى . لازلت أذكر منها أجزاء من كتاب (التتمة) لأبى سعد المتولىّ . ومحمد الطيِّب . وكان طيِّبا كاسمه . وحجازى ، صاحب المكتبة الحجازية ، بزاوية الأعرج بحىّ المنشية بالاسكندرية . وقد توفى هؤلاء الأربعة ، رحمهم الله .

ومن الورّاقين الأحياء : توفيق عفيفى ، وقد اشتغل بنشر الكتب وطبعها ، وسمى مكتبته : دار الكتب الحديثة . وحسين امبابى ، صاحب مكتبة الكليات الأزهرية ، وقد ورث هو وأخوه حمدى معرفة نوادر المطبوعات عن أبيهما ، الذى تعلّمها هو أيضا من مكتبة محمد على صبيح .

وكانت مكتبات هؤلاء الورّاقين مجمعاً للعلماء والفضلاء . وقد عرفت منهم فى هذه المكتبات الشيخ المحدّث عبد الوهاب عبد اللطيف الأستاذ بكلية أصول الدين رحمه الله ، وهو محقق تقريب التهذيب لابن حجر ، والموطأ برواية محمد بن الحسن الشيبانى ، وتدريب الراوى للسيوطى . والشيخ الأصولى الفقيه الأديب عبد الغنى عبد الخالق الأستاذ بكلية الشريعة . محقق كتاب آداب الشافعى ومناقبه ، لابن أبى حاتم الرازى . وكان صاحب غرائب وعجائب ، وله مع الأستاذ السيد أحمد صقر أيّام . ومكتبة الشيخ عبد الغنى رحمه الله من أعظم المكتبات الخاصة ، وأحفلها بالنفائس والنوادر . وكان كثير البِرّ بتلاميذه وأبنائه ، وقد تخرَّج عليه عددٌ من أبناء الدول العربية ، وبخاصة طلبة العراق ، والمملكة العربية السعودية . وقد أحسن إلىَّ كثيراً ، وقرَّبنى من مجلسه فى أول اشتغالى بالعلم . توفى عام ١٤٠٣ هـ ، رحمه الله رحمة واسعة .

ومن أعمال الشيخ عضيمة العظيمة كتاب (دراسات لأسلوب القرآن الكريم) وهو أجلُّ ما عُمِل فى نحو القرآن الكريم ، لا أستثنى كتاباً واحداً ، منذ كتب كاتبٌ إلى يوم الناس هذا . واقرأ تقدمته لشيخ العربية محمود محمد شاكر ، لتعرف مكانه فى المكتبة العربية . وقد كسَرَه الشيخ علَى أقسام ، جاءت فى أحد عشر مجلَّداً .

ومن أعمال الشيخ الجليلة أيضاً ، ذلك الفهرسُ الجامع الذى صنعه لكتاب سيبويه ، وجاء فى نحو ألف صفحة . غير أنى أنبّه طلبة العلم إلى أن هذا الفهرس ، مع جلالته ونفعه لا يُغْنى عن الفهرس الذى صنعه شيخنا بعد السلام هارون ، للكتاب [١] ، وهو المجلد الخامس من طبعة الكتاب ، كما أن فهرس شيخنا لا يغنى عن فهرس الشيخ ، « فكِلاهما فى كفِّه يَزَنِيَّةٌ » [٢] كما قال أبو ذؤيب .

توفى الشيخ عضيمة فى يوم من أيام شهر ربيع الأول ، من هذا العام ١٤٠٤ هـ ، إثر حادث سيارة عقبَ خروجه من مطار القاهرة ، مُنْقَلَبَه من الرياض . ولم يكتب عنه أحدٌ من تلاميذه ، أو المنتفعين بعلمه ، وهذه مِحْنة زماننا . رحمه الله ، ورضى عنه .

ولن أدع الحديثَ عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، حتى أشيرَ إلى أن هذه الروحَ القويّة التى سَرَتْ فى المجلس ، إنما كانت بجهود رئيس لجنة التراث الأستاذ الكبير محمد أبو الفضل إبراهيم .

---

(١) أقول هذا ـــ علم الله ـــ من باب التجربة والمداخَلَة للفهرسين .

(٢) تمامه :

فيها سِنانٌ كالمنارة أصلعُ

وهذا الرجل — مهما اختلفت أقوال الناس فيه — مَعْلَمٌ بارزٌ من معالم نشر التراث فى مصر .

ومما نشره بمطبعة دار الكتب المصرية : إنباه الرواه على أنباه النحاة ، للقفطى (أربعة أجزاء) . وبهذا الكتاب عُرِف الأستاذ أبو الفضل إبراهيم ، وذُكِر . وله من وراء ذلك تحقيقات كثيرة ، منها : شرح نهج البلاغة ، لابن أبى الحديد (عشرين جزءا) ، تاريخ الطبرى (عشرة أجزاء) ، شرح مقامات الحريرى ، للشريشى (خمسة أجزاء) ، الكامل ، للمبرد (أربعة أجزاء) ، البرهان فى علوم القرآن ، للزركشى (أربعة أجزاء) أمالى المرتضى (جزءان) . ومن كتب الجلال السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن ، تاريخ الخلفاء ، بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاه (جزءان) ، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (جزءان) . وله من الكتب والدواوين الشعريّة ذات الجزء الواحد ، كثير .

وقد رأس وشارك مجالسَ عدّة لشئون التراث .

وكان آيةً فى طِيب العِشرة ، وحُسْنِ المُذاكَرَة ، وإيثار السَّلامة ، مما عَطفَ القلوب نحوَه ، وجمع الناسَ حوله . وكان أديباً صاحب عبارة صافية ، وبيان رائقٍ عذب ، تراه فى مقدمة تحقيق ديوان امرئ القيس ، وشرح نهج البلاغة ، كما تراه فى كثير من موضوعات كتاب (قصص القرآن) (١) الذى شاركه فيه من أبناء جيله الأساتذة محمد أحمد جاد المولى ، والسيد

---

(١) رزق هذا الكتاب حظوةً وقبولا عند الناس ، عامّتهم وخاصّتهم ، وقرأه منهم من لا يحصى . وقد طبع نحو عشر طبعات . وهو من مطبوعات المكتبة التجارية لمصطفى محمد . ومثل هذا الكتاب فى الذيوع والانتشار : كتاب قصص العرب ، وكتاب أيام العرب . للثلاثة : أبى الفضل وجاد المولى والبجاوى . والكتابان من منشورات مطبعة عيسى البابى الحلبى .

شحاته ، وعلى محمد البجاوى . وكلهم من أبناء دار العلوم ، فى أيّامها الذهبيّة .

حضرت ندوته ، التى كانت تعقد مساء كلّ جمعة ، فى بيته بمصر الجديدة ، سنين كثيرة ، وعرفت أبناءَ جِيله الذى كانوا يحضرون ندوته ، واحداً واحداً ، وتعلَّمت منه ومنهم الشئ الكثير .

توفى رحمه الله منذ أربع سنوات ، عن عُمْرٍ يدنو من الثمانين . رحمه الله رحمة واسعة سابغة ، وأجزل له المثوبة والرضوان .

* * *

مجمع اللغة العربية

أنشئ فى عهد الملك فؤاد الأول ، سنة ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م . وهو من أعرق المجامع اللغوية العربية . وقد اضطلع بأعباء ضخمة ، وقام بجهود عظيمة فى خدمة اللغة العربية ، والنهوض بها ، وشملت عضويته كبارَ العلماء ، من داخل مصر وخارجها ، ولكنّ جهوده فى نشر التراث ظلت محدودة ــ ولذلك أخّرتُ ذِكرَه إلى هذا المكان ــ ولم ينشط لذلك إلاّ فى السنوات الأخيرة . حيث أصدر : عجالة المبتدى وفضالة المنتهى ، فى الأنساب لأبى بكر محمد بن موسى الحازمى ، والقلب والإبدال ، لابن السِّكيت . ومن الكتب اللغوية ذات الأجزاء : التكملة والذيل والصلة ، لرضىّ الدين الصاغانى ، وديوان الأدب ، لأبى إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابى ، وهو خال الجوهرى ، صاحب الصحاح ، وغير الفارابى الحكيم الفيلسوف ، أبى نصر محمد بن محمد . والأفعال للسرقسطى . وما وُجد من حواشى ابن برِّى على الصحاح .

وقد عنيت مجلة المجمع بنشر بعض النصوص التراثية ، أذكر منها : نحو القلوب الصغير ، للقشيرى .

ويباشر المجمع فى هذه الأيام طبع كتاب غريب الحديث ، لأبى عبيد القاسم بن سلام ، الذى طبعته دائرة المعارف العثمانية ، بحيدر آباد ــ الهند ، مختصراً ، سنة ١٣٨٤ = ١٩٦٥ م .

* * *

الهيئة المصرية العامة للكتاب [1]

أنشئت فى أوائل الستِّينات الميلادية ، وبدأت نشاطها بتصوير بعض مطبوعات دار الكتب المصرية ، وتيسيرها للناس بثمنٍ زهيد ، مثل الأغانى ، لأبى الفرج الأصبهانى ، وعيون الأخبار ، لابن قتيبة ، ونهاية الأرب ، للنويرى ، والنجوم الزاهرة ، لابن تغرى بردى ، وصبح الأعشي ، للقلقشندى . وكذلك فعلت بطبعة بولاق من لسان العرب . وكان مشروعاً ناجحاً جداً ، لولاء سوءُ التصوير ، وعدمُ العناية بالإخراج .

وقد اتجهت الهيئة إلى استكمال ما توقف من موسوعات دار الكتب المصرية ، فأكملت كتاب الأغانى ، والنجوم الزاهرة ، ولا زالت تواصل إكمال نهاية الأرب .

ثم خططت لجان التراث بالهيئة لنشر بعض الكتب ، ومما أصدرت من ذلك : تبصير المنتبه بتحرير المشتبه ، لابن حجر ، وذيل رفع الإصر ، فى أخبار قضاة مصر ، لشمس الدين السخاوى ، وبهجة المجَالس وأنس المُجالس ، لابن عبد البر ، ولطائف الإشارات ، فى تفسير القرآن ، للقشيرى ، ودول الإسلام للذهبى ، وكشاف اصطلاحات الفنون ، للتهانوى (لم يكمل) ، ونثر الدُّرَر ، فى الأدب ، لأبى سعد منصور بن الحسين الرازى الآبى (لم يكمل) . والإعلام بمناقب الإسلام ، للعامرى ، ورسائل ابن سبعين ، والمكتبة الاندلسيّة [2] . وغير ذلك . ويعود نشاط الهيئة المصرية ،

---

(١) تقلبت فى ثلاثة أسماء : إحداها هذا الاسم ، والثانى : الدار القومية للطباعة والنشر . والثالث : المؤسسة المصرية العامة للكتاب .

(٢) سيأتى حديث عنها ، فى ذكر جهود المستشرقين فى نشر التراث .

فى أول عهدها ، إلى جهود الدكتور محمد عبد القادر حاتم ، وزير الثقافة والإرشاد القومى .

ومن أضخم أعمال الهيئة : نشر كتاب تهذيب اللغة ، لأبى منصور الأزهرى ، وهو من كتب اللغة الأصيلة ، وقد جعله ابن منظور صاحب لسان العرب ، من مصادره الخمسة .

وجاءت هذه الطبعة فى خمسة عشر جزءا ، وهى طبعة غير محرَّرة (باستثناء بعض الأجزاء) لا تليق بمكانة الكتاب ، ولا بمكان صاحبه . وبعد صدور الكتاب وتداوُلِه بين الناس ، اتضح أن به نقصاً فى بعض الموادّ اللغوية ، وقد تنبّهت لهذا أيام اشتغالى بتحقيق كتاب الغريبَيْن ، لأبى عبيد الهروى ، إذ كان تلميذاً للأزهرى ، ومن كتابه صنَّف غريبه ، كما يقول ابن خلّكان (١) .

وقد جمع هذا النقصَ من مخطوطات الكتاب ، صديقُنا البغدادى الدكتور رشيد العبيدى ، ونشره فى جزء مستقل ، بمطابع الهيئة أيضاً ويقع هذا النقص بين الجزءين الثامن والتاسع . وفى ظنى أن لا يزال فى الكتاب نقص . والكتاب بحاجة إلى نشر جديد .

وقد أحسن شيخى عبد السلام هارون ، حين صنع لهذا الكتاب الكبير فهرساً نافعاً ، دلَّ على مفرداته اللغوية ، وأشعاره ورجزه ، ونشره فى مجلد كبير ، بمكتبة الخانجى .

ومهما يكن من أمر ، فإن الهيئة تواصل نشاطها فى نشر التراث وإذاعته ، ونرجو لها اطّراد التوفيق والنجاح .

* * *

---

(١) انظر مقدمة تحقيق الغريبين ص ١٧ . وكان ذلك منذ خمسة عشر عاماً ، ولعلى أول من تنبه لهذا النقص فى الكتاب .

المجلس الأعلى للفنون والآداب

قامت من بين لجانه ، لجنةٌ للتراث ، نشرت بعض النصوص التراثية المُجازَة جامعياً ، ومن ذلك : شعر الأحوص الأنصارى ، الذى نشره صديقى الدكتور عادل سليمان جمال ، وديوان ابن سناء الملك ، الذى حققه الأستاذ إبراهيم نصر .

كما أعاد المجلس نشر بعض مطبوعات دار الكتب المصرية ، مثل : ديوان الهذليين ، وشروح سقط الزند ، وتعريف القدماء بآثار أبى العلاء المعرى ، وكتاب الفاضل للمبرد ، ودواوين زهير ، وابنه كعب ، وحميد بن ثور ، وسحيم عبد بنى الحسحاس .

وتُعدّ مصوَّرات المجلس هذه ، أرق وأجملَ من مصورات الهيئة العامة للكتاب ، التى تحدثت عنها قريبا .

* * *

دار العروبة

فى ختام حديثى عن تاريخ نشر التراث فى مصر ، أجد لِزاماً أن أقف عند دارٍ من دور نشر التراث فى مصر ، كانت مرجوَّةً لخيرٍ كثير ، لولا أن اغتالتها يدُ الطُّغيان . تلك هى (دار العروبة) التى قامت بالقاهرة منذ نحو خمسة وعشرين عاماً .

وكان بدايتها (لجنة الشباب المسلم) التى تكوَّنت من بعض شباب الإخوان المسلمين ، الذين كانوا يؤمنون بضرورة الاهتمام بالجانب الفكرى والتربوى فى الإسلام ، وعدم التركيز على الجانب العسكرى ، مع إيمانهم العميق بوجوب الجهاد لإعلاء كلمة الله .

وقد قامت هذه اللجنة عام ١٣٧١ هـ = ١٩٥١ م ، واتخذت لها مكتبةً بسِكَّة راتب بالحلمية الجديدة ، أمام المركز العام للإخوان المسلمين . وكان أعضاؤها : محمد رشاد سالم ، وعبد الحليم محمد أحمد ، وأحمد البساطى ، وعبد النافع السباعى ، وعبد العزيز السِّيسى (وقد توفى هؤلاء الثلاثة ، رحمهم الله) . وانضم إلى اللجنة : أحمد كمال أبو المجد ، وجمال الدين عطية [1] . وأدار مكتبتها : إسماعيل عبيد .

---

(١) هؤلاء هم شباب مصر ، فى تلك الأيام ، وكلهم الآن خارج مصر : الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم ، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، بالرياض ، وهو أحد القلائل ، الذين توفرّوا على فكر شيخ الإسلام ابن تيمية ، وإبراز كنوزه ، وقد أخرج له جزءين من « منهاج السنة النبوية » ، وكتابه الكبير : « درء تعارض العقل والنقل » ــ أحد عشر جزءا ــ وغير ذلك . وهو من قبل ذلك ، ومن بعده مَثَلٌ كامل للطهارة والنقاء . والأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد ، من كبار المشتغلين بقضايا الإسلام ، وقد تولىَّ الوزارة بمصر فى الستينات الميلادية ، وهو الآن أستاذ بجامعة الكويت . والدكتور جمال الدين =

وكان تمويل اللجنة الأساسى ، على عاتق محمد رشاد سالم ، وحده . ثم كان يوجهّ اللجنةَ فكريًّا شيخُ العربية محمود محمد شاكر . وقد شارك ـــ حفظه الله ـــ فى نشاط اللجنة ، بتحقيق « رسالة الصلاة » للإمام أحمد ابن حنبل .

ومن منشورات اللجنة رسالة لأبى الحسن الندوى ، بعنوان : « أريد أن أتحدث إلى الإخوان » ، وبعض رسائل لأبى الأعلى المودودى . وكتاب « أبو بكر الصديق » للأستاذ على الطنطاوى .

وفى تلك الأيام ثار عجاجٌ أسودُ كئيب ، حولَ بعض الصحابة ، رضوان الله عليهم ، قام له وبدَّدَه الأستاذ محمود محمد شاكر ، بعِدّة مقالات فى جريدة « المسلمون » ، بعنوان « لا تسبُّوا أصحابى » .

ثم دعت اللجنة الأستاذ محب الدين الخطيب ؛ ليشترك فى التصدِّى لهذا الضَّلال ، فاستخرج ، رحمه الله ، جزءاً نشرته اللجنة ، من كتاب « العواصم من القواصم » لأبى بكر بن العربى . وهذا الجزء يتصل بتاريخ الصحابة ومواقفهم ، وما يجب على المسلمين من توقيرهم .

وفى سنة ١٩٥٤ م كانت المحنة الثانية [١] لجماعة الإخوان المسلمين ، وانطفأت جذوةُ الشباب المسلم ، واغتيلت لجنتهُ .

ومرّت الأيام ، وهدأت الفتنة ، ودعا شيخ العربية محمود محمد شاكر ، الأستاذ إسماعيل عبيد ؛ ليعيد البناء المتهدّم ، بتصميم جديد ،

= عطية ، أحد رجال الاقتصاد الإسلامى ، ويشرف الآن على أحد البنوك الإسلامية فى لوكسمبورج . والأستاذ عبد الحليم محمد أحمد ، صاحب مكتبة دار القلم بالكويت .

(١) وكانت المحنة الأولى فى عام ١٩٤٩ م

وطموحات كبرى ، فكانت مكتبة « دار العروبة » ، وحين عاد الدكتور محمد رشاد سالم من بعثته بانجلترا ، استقرت الدار شركةً بين الثلاثة .

وقد وضع الأستاذ محمود محمد شاكر ، فى هذه الدار ، كلَّ أحلامه وتصوراته ، فيما ينبغى أن يكون عليه الكتاب العربىّ ، من جودة الطبع ، وحُسْن الإخراج .

وكان من بواكير أعمال الدار كتاب « شرح أشعار الهذليين » صنعة أبى سعيد السكّرى ، وقد صدر فى ثلاثة أجزاء من القطع الكبير ، مع فهارس فنيّة جامعة ، بتحقيق المرحوم الأستاذ عبد الستار أحمد فرّاج ، ومراجعة الأستاذ محمود ــ أطال الله بقاءه ، ومتعّه بالسَّلامة والعافية ــ وقد تحلَّى هذا الكتابُ الجليلُ بتصحيح أخٍ ذكىّ القلب واللسان ، هو الأستاذ عبد الحميد بسيونى .

ثم توالت النفائس ، فكان منها : جمهرة نسب قريش وأخبارها ، للزبير ابن بكار ، بتحقيق شيخنا محمود محمد شاكر ، وديوان عبد الله بن الدُّمَيْنَة ، من تحقيق شيخ الشام ، بل شيخ الدنيا ، أحمد راتب النفّاخ ، وكان أطروحة لدرجة الماجستير من جامعة القاهرة ، ولكنْ أىّ أطروحة ! وديوان قيس بن الخطيم ، بتحقيق الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد . وكتاب إيضاح علل النحو ، للزَّجّاجى ، بتحقيق الدكتور مازن المبارك ، وكتاب حَذْفٍ مِن نسب قريش ، لأبى فيد مؤرِّج السَّدُوسِى ، بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . ومخطوطة هذا الكتاب من أنفس ما احتفظت به مكتبات المغرب الأقصى العزيز ، وهى نسخة فريدة ، لا أعلم لها ثانية فى مكتبات العالم ، وقد كتبها عالِم معروف ، هو أبو إسحاق النجيرمى ، إبراهيم بن عبد الله بن محمد ، المتوفى نحو سنة ٣٥٥ هـ ، وهو صاحب كتاب أيمان العرب (١) .

---

(١) الذى نشره الشيخ محب الدين الخطيب ، وسبق الحديث عنه .

ومن الدراسات الجليلة التى نشرتها دار العروبة ، كتاب « الظاهرة القرآنية » للمفكر الإسلامى الجزائرى مالك بن نبى رحمه الله ، وقد ترجمه عن الفرنسية الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين . وقدَّم له الأستاذ محمود محمد شاكر بمقدمة عالية نفيسة ، فى إعجاز القرآن الكريم . وقد استخرج هذه المقدمة صديقنا الفاضل المغربى الأستاذ الدكتور عبد السلام الهراس ، ونشرها بمجلة دعوة الحق المغربية ، منذ بضع سنوات .

وكان ممَّا جرى فى تلك الأيام ، أن الأستاذ الدكتور طه حسين ، رحمه الله ، كان معنيًّا بإخراج كتاب « المغنى فى أبواب التوحيد والعدل » للقاضى عبد الجبار بن أحمد المعتزلى . وهذا الكتاب من أصول المعتزلة ، وهو كتاب كبير ، وقد حصل الدكتور طه حسين ، على عونٍ من وزارة الأوقاف المصرية ، لطبع الكتاب ، وكان وزير الأوقاف وقتئذ الأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى ، وكان من أوِدَّاء الأستاذ محمود محمد شاكر ، ومن ملازمى مجلسه ، فكلمه الأستاذ محمود ، على طريقته إذا تحمَّس لشئ وآمن به ، وقال له : ما ينبغى أن تعين وزارة الأوقاف على نشر تراث المعتزلة ، ولا يكون لها إسهام فى نشر كتب السَّلف ، فوافق الشيخ الباقورى على ما أراد شيخنا ، وأعانت الوزارة دار العروبة ، فى نشر كتاب « منهاج السنّة » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وصدر منه جزءان ، بتحقيق الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم ، كما سبق .

وفى سنة ١٩٦٥ م كانت المحنة الثالثة لجماعة الإخوان المسلمين ، وكانت فتنةً عمياء ، أطاحت فيما أطاحت بمكتبة دار العروبة . وقُضى على أحد الآمال الكبار ، فى نشر التراث العربى وإذاعته . وإلى الله المشتكى .

وقد استقلّ الأستاذ إسماعيل عبيد ، بعد ذلك بدار العروية ، واختار لها اسماً جديدا ، هو : دار التراث . وأصدر عدة نصوص ، منها : متشابه

القرآن ، للقاضى عبد الجبار ، بتحقيق الدكتور عدنان زرزور ، والديباج المذهب ، لابن فرحون ، ودرة الحجال فى أسماء الرجال ، لابن القاضى ، كلاهما بتحقيق الدكتور محمد الأحمدى أبو النور . كما أعاد نشر كتاب تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة ، بتحقيق أستاذنا السيد أحمد صقر . وكانت طبعته الأولى بمطبعة عيسى البابى الحلبى .

* * *

نشر التراث العربىّ خارج مصر

النشر فى تركيا

شاركت البلدان العربيّةُ والإسلاميّة مصر ، فى نشر التراث العربىّ ، مشاركةً ظاهرة ، وقد سبق القولُ فى صدر هذا المدخل ، أن الآستانة (استانبول) عاصمةَ الخلافة العثمانية ، كانت أسبقَ مدنِ الشرق إلى الطباعة العربية ، وكان من أشهر مطابعها التى عنيت بنشر التراث ، مطبعة الجوائب ، التى أنشأها أحمد فارس الشدياق ، ونشر فيها طائفة صالحة من كتب التراث . وكذلك المطبعة العامرة ، التى نشرت كتباً كثيرة ، منها : شرح كافية ابن الحاجب ، للرضى ، عام ١٢٧٥ هـ ، والكليات ، لأبى البقاء الكفوى ، عام ١٢٨٧ هـ . وقد حكى لى المرحوم الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب ــ نقلاً عن الشيخ أحمد محمد شاكر ، رحمه الله ــ أن هذه الطبعة من الكليّات ، تفضل طبعة مصر (١) ، وشرح الشافية ، للجاربردى ، عام ١٣١٠ هـ . ومن أنْفَس مطبوعات هذه المطبعة ؛ من حيث العنايةُ بالضبط والتصحيح والإخراج ، صحيح مسلم ، الذى بدأت المطبعة نشرَه سنة ١٣٢٩ هـ ، وأتمّتْه سنة ١٣٣٤ هـ ، وجاء فى ثمانية أجزاء (٢) .

---

(١) كان ذلك فى أثناء إقامتنا باستانبول عام ١٣٩٠ هـ ، وكنت قد اشتريت نسخة من الكتاب ، من الحاج مظفر ، بمكتبته بالقرب من جامع بايزيد . وهذا الحاج مظفر من أشهر الورّاقين فى استانبول ، وله صلات كثيرة بعلماء العالم .

(٢) انظر وصف هذه الطبعة ، وما بذل فيها من عناية تامة وتصحيح دقيق ، فى مقدمة طبعة عيسى الحلبى من صحيح مسلم التى أخرجها الأستاذ محمد فؤاد عبد الباق ، رحمه الله .

القرآن ، للقاضى عبد الجبار ، بتحقيق الدكتور عدنان زرزور ، والديباج المذهب ، لابن فرحون ، ودرة الحجال فى أسماء الرجال ، لابن القاضى ، كلاهما بتحقيق الدكتور محمد الأحمدى أبو النور . كما أعاد نشر كتاب تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة ، بتحقيق أستاذنا السيد أحمد صقر . وكانت طبعته الأولى بمطبعة عيسى البابى الحلبى .

* * *

نشر التراث العربىّ خارج مصر

النشر فى تركيا

شاركت البلدان العربيّةُ والإسلاميّة مصر ، فى نشر التراث العربىّ ، مشاركةً ظاهرة ، وقد سبق القولُ فى صدر هذا المدخل ، أن الآستانة (استانبول) عاصمةَ الخلافة العثمانية ، كانت أسبقَ مدنِ الشرق إلى الطباعة العربية ، وكان من أشهر مطابعها التى عنيت بنشر التراث ، مطبعة الجوائب ، التى أنشأها أحمد فارس الشدياق ، ونشر فيها طائفة صالحة من كتب التراث . وكذلك المطبعة العامرة ، التى نشرت كتباً كثيرة ، منها : شرح كافية ابن الحاجب ، للرضى ، عام ١٢٧٥ هـ ، والكليات ، لأبى البقاء الكفوى ، عام ١٢٨٧ هـ . وقد حكى لى المرحوم الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب ــ نقلاً عن الشيخ أحمد محمد شاكر ، رحمه الله ــ أن هذه الطبعة من الكليّات ، تفضل طبعة مصر [١] ، وشرح الشافية ، للجاربردى ، عام ١٣١٠ هـ . ومن أنْفَس مطبوعات هذه المطبعة ؛ من حيث العنايةُ بالضبط والتصحيح والإخراج ، صحيح مسلم ، الذى بدأت المطبعة نشرَه سنة ١٣٢٩ هـ ، وأتّمتْه سنة ١٣٣٤ هـ ، وجاء فى ثمانية أجزاء [٢] .

---

(١) كان ذلك فى أثناء إقامتنا باستانبول عام ١٣٩٠ هـ ، وكنت قد اشتريت نسخة من الكتاب ، من الحاج مظفر ، بمكتبته بالقرب من جامع بايزيد . وهذا الحاج مظفر من أشهر الورّاقين فى استانبول ، وله صلات كثيرة بعلماء العالم .

(٢) انظر وصف هذه الطبعة ، وما بذل فيها من عناية تامة وتصحيح دقيق ، فى مقدمة طبعة عيسى الحلبى من صحيح مسلم التى أخرجها الأستاذ محمد فؤاد عبد الباق ، رحمه الله .

وقد تأثرت الطباعةُ فى استانبول ، فى تلك الأيام ، بالطباعة المصريّة ، تصحيحاً وإخراجاً ، وآية ذلك ما تراه فى آخر طبعة صحيح البخارى ، التى صدرت هناك عام ١٣١٥ هـ ، إذ يقول مصحّحها محمد ذهنى : وشكر الله مساعىَ أفاضل العلماء ، من مصحِّحى المطابع المصريّة ، الأماثل الكرماء ، فإن فضيلة التقدّم لهم ، وغيرهم حاذٍ فى هذا الأمر حَذْوَهم » .

وقد ضعفت الطباعة العربيّة فى تركيا ، بعد تغلّب مصطفى كمال أتاتورك ، وقضائه على الخلافة العثمانية .

وفى السنوات الأخيرة عادت تركيا إلى وجهها الإسلامى ، وظهرت من جديد محاولات جادّة ومخلصة ، لوصل ما انقطع ، وتمَّ ذلك على يد الشباب التركىّ الجامعىّ ، الذى نشر أصولاً جيّدة من التراث ، منها : كتاب العلل ومعرفة الرجال ، للإمام أحمد بن حنبل (الجزء الأول) أنقرة ١٩٦٣ م ، وشرف أصحاب الحديث ، للخطيب البغدادى أنقرة ١٩٧١ م . ومما نشر بأنقرة أيضا ، فى السنوات القريبة ، الاقتراح فى أصول النحو ، للسيوطى ، وديوان قيس بن الملوح ، مجنون بنى عامر .

وينبغى أن نضمّ لهذه الجهود التركية الحديثة فى نشر التراث ، عمل الدكتور محمد فؤاد سزجين فى تحقيق مجاز القرآن ، لأبى عبيدة ، وإن كان قد نشره بمصر ، صدر الجزء الأول عام ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٤ م ، والثانى عام ١٣٨١ هـ = ١٩٦٢ م .

ومما نشر باستانبول أيضا : كتاب المكاثرة عند المذاكرة ، لجعفر بن محمد بن جعفر الطيالسى ، بتحقيق الدكتور محمد بن تاويت الطنجى . نشر بمجلة الشرقيات ، بجامعة استانبول عام ١٩٥٦ م .

* * *

نشر التراث فى لبنان ــ بيروت

سبق القولُ أيضاً ، أن الطباعة العربية ، عُرِفت مبكّراً فى لبنان ، على يد الرهبان ، من الكاثوليك والأرثوذكس . وكان من أشهر المطابع البيروتية التى عنيت بإخراج التراث : المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، ومطبعة المعارف ، للبستانى ، وقد ذكرت أشياء مما طبعته هاتان المطبعتان من قبل .

وفى العصر الحديث تعددت دور النشر فى بيروت ، وكثرت كثرة ظاهرة ، فكان من أشهرها دار صادر ، ومن أبرز أعمالها التراثية نشر كتاب « لسان العرب » لابن منظور ، بعد أن عزّت طبعة بولاق . وهى نشرة جيدة المظهر ، اعتمدت فيها على طبعة بولاق (١) ثم تصوير الطبعة المصرية ، من كتاب « تاج العروس » ، للمرتضى الزبيدى ، وكان ذلك فى سنة ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦ م ، لحساب دار ليبيا للنشر والتوزيع ــ بنى غازى .

وقد نشرت دار صادر كثيراً من كتب التراث ، وبخاصة دواوين الشعر العربى ، فى عصوره المختلفة ، ويغلب على منشوراتها التراثية الطابعُ التجاريّ ، الذى لا يُعنى بجمع النسخ المخطوطة للكتاب ، وصنع الفهارس

---

(١) يقول عنها شيخى عبد السلام هارون : « وقد نشر لسان العرب ، للمرة الثانية ، فى دار صادر ، ببيروت ، من سنة ١٩٥٥ م إلى سنة ١٩٥٦ م ، فى ٦٥ جزءا [من الأجزاء الصغار] . وكان من المتوقّع أن تسلم هذه النشرة من كثير من أخطاء النشرة الأولى ، ولكن من المؤسف أن الأخطاء والتحريفات التى وردت فى النشرة الأولى ، أى طبعة بولاق ، قد زِيد عليها كثير من أمثالها ، وإن كان من الحق أن بعض الأخطاء القديمة قد عُولج فيها بنسبة ضئيلة جدا » . تحقيقات وتنبيهات فى معجم لسان العرب ص ٤

الفنية ، إلاّ ما تراه من بعض المطبوعات التى قام عليها الأستاذان الفاضلان الدكتور إحسان عباس ، والدكتور محمد يوسف نجم ، وهما من أهل العلم والخبرة .

ومن دور النشر الشهيرة فى بيروت أيضا : دار الفكر ، ودار الثقافة ، وهذه الدار كان يوجِّهها الدكتور إحسان عباس ، وكثيرٌ من أعماله خرج من هذه الدار . والمكرَّر من حديث الدكتور إحسان يَحْلُو ، فقد كان من أعماله الجليلة قيامه بنشر الموسوعات التراثية ، ومنها : وفيات الأعيان ، لابن خلّكان ، وفوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبى ، ونفح الطيب للمقرى ، والذخيرة ، لابن بسَّام . وقد انتفع بعلمه وخُلقه عددٌ من الشبّان ، منهم تلميذته النابهة الدكتورة وداد القاضى .

وخلاصة القول أن بيروت قدمت جهوداً طيِّبةً ، فى نشر التراث العربىّ ، على امتداد سنين طويلة ، ولكنّ هذه الجهودَ العظيمة طمَستْها جهودٌ أخرى ظالمة ، أكلت حقوقَ الناس أكلا ، واغتالت تاريخَهم اغتيالا ، وأعنى تلك المطابعَ التى أغارت على أعمال المحققين ، ونشرتْها دون إذنٍ منهم ، أو من ورثتهم ، وقد كان الخطب يهون لو أنهم أبقوا على أسمائهم ، كما فعلوا فى بدء ظهور الفتنة ــ فيذهب المال ، ويبقى المجْد ــ ولكنهم تمادوا فى الشرِّ والعدوان ، فأسقطوا أسماء المحققين من فوق الأغلفة ، ومن آخر المقدمات ثم مَحَوْا أسماء المطابع الأولى من آخر الكتب . وقد أشرت إلى أمثلة من ذلك فى صدر البحث .

* * *

نشر التراث فى سوريا

كان ظهور الطباعة العربية المبكِّر فى لبنان ، إيذاناً بظهوره فى سوريا ، فالبلدتان متجاورتان ، بل هما فى القديم بلدٌ واحد ، لكنّ حركة النشر فى مطابع سوريا كانت حركة عربيّة إسلامية ، ولم تصطبغ بالصبغة المسيحيّة ، كما عرفنا فى بداية الطباعة فى لبنان .

وقد كان لوجود المكتبة الظاهريّة بدمشق ــ وهى إحدى خزائن المخطوطات الكبرى فى العالم ــ وإنشاء المجمع العلمى العربى ، نحو سنة ١٣٣٨ هـ ، ووفرة العلماء الأثبات ، من أمثال عبد القادر بدران المتوفى سنة ١٣٤٦ هـ ، وجميل العظم المتوفى سنة ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م [(١)] ، ومحمد راغب الطباخ المتوفى سنة ١٣٧٠ هـ = ١٩٥١ م ، ومحمد كرد على المتوفى سنة ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٣ م ، وغيرهم ممن لا أُحصِى ، والورَّاقين النابهين الأدباء ، مثل أحمد عبيد [(٢)] ، أمدَّ الله فى عمره . ثم الصلات المتينة بين هؤلاء العلماء فى سوريا ، وعلماء التراث فى المشرق والمغرب ، والمستشرقين . كان لذلك كلّه أثرٌ بارز فى تنشيط حركة نشر التراث ، فتَعدّدت المطابع فى دمشق وحلب . ومن أشهر

---

(١) كان ــ رحمه الله ــ من المعنيين بجمع نفائس المخطوطات ، وله مصنفات ، منها : السِّرّ المصون ، ذيل كشف الظنون ، لا يزال مخطوطا . الأعلام ١٣٩/٢

(٢) هو صاحب المكتبة العربية بدمشق . وهو ممن يعتنون بجمع نوادر المخطوطات . وقد أفاد منه ، ومن مكتبته العلاّمة الزركلىّ ، وأشار إليه فى غير موضع من الأعلام . ومن تحقيقات الأستاذ أحمد عبيد : سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم الطبعة الأولى بدمشق ١٣٤٥هـ ، والثانية بالقاهرة ١٣٧٣ هـ ، نشرها الأخ الفاضل الصادق الحاج وهبه حسن وهبة .

المطابع التراثيّة فى دمشق مطبعة الترقّى . وكثر إنتاج هذه المطابع ، ما بين كتاب صغير إلى كتابٍ ذى أجزاء .

أما النشر العلمىّ للتراث فلم يأخذ صورته الكاملة إلاَّ فى مطبوعات المجمع العلمى العربىّ ــ الذى سُمِّى فيما بعد بمجمع اللغة العربية .

لقد أخرج هذا المجمع قدراً عظيما من كتب التراث ، المحققة تحقيقا جيّداً ، وتدور معظم النصوص التى نشرها حول اللغة والأدب والشعر ، وقام على تحقيقها نخبة من كبار علماء سوريا ، أذكر منهم الأساتذة : محمد كرد على ، وخليل مردم بك ، ومحمد بهجة البيطار ، وعز الدين التنوخى ، ومحمد أسعد طلس ، وأحمد الجندى ، وعمر موسى باشا ، وعِزّة حسن ، وشكرى فيصل .

كما نشر المجمع لطائفة من شباب العلماء السوريين ، منهم : عبد المعين الملُّوحى ، ومحيى الدين رمضان ، وفخر الدين قباوة ، ومحمد على سلطانى ، وأحمد الخرّاط ، وياسين السَّوَّاس ، وعبد الإله نبهان (وهذا الشابّ تُنْبِىء أعمالهُ عن مستقبل طيِّب) [(١)] .

ثم أفسح المجمعُ موضعا لبعض المحقّقين العرب من غير سوريا ، أذكر منهم العلاَّمة محمد بهجة الأثرى ، العراق ، الذى نشر له المجمع تفسير أرجوزة أبى نواس ، لابن جنى ، سنة ١٩٦٦ م ، والدكتور رمضان عبد التواب ، المصرى ، ونشر الأمثال لأبى عكرمة الضبىّ ، سنة ١٩٧٤ م ، ومحمد الديباجى ، المغربى ، ونشر التعازى والمراثى ، للمبرد ، سنة ١٩٧٦ م .

وتُعدَّ مجلة المجمع صورةً أخرى من صور نشاط السوريين ، فى

---

(١)انظر تحقيقه لكتاب إعراب الحديث النبوى ، للعكبرى ، الذى نشر سنة ١٩٧٧ م

نشر التراث ، وبخاصة تلك الرسائل الصغيرة ، إلى جانب الدراسات الجادة العميقة فى مختلف فروع التراث [١] . وقد أفسحت المجلة صفحاتها للأقلام العربية وغير العربية من مختلف البلدان [٢] . وتعتبر هذه المجلة من أعلى مجلات المجامع العلمية العربية .

وقد ظهر إلى جانب نشاط المجمع ، نشاط حكومىّ آخر ، هو ما قامت به وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، من جهدٍ بارز فى نشر التراث ، ويدور معظم نشاط هذه الوزارة أيضا ، فى اللغة والأدب والشعر .

وهناك هيئة حكومية ثالثة فى سوريا ، هى (معهد التراث العلمى) فى حلب ، وتَخْلُص جهود هذا المعهد إلى إبراز أثر العرب فى مجال العلوم الطبيعية والتطبيقية ؛ دراساتٍ ونصوصاً محققة ، إلى ما يعقده من مؤتمرات وندوات حول هذا الجانب من التأليف العربى ، الذى اهتمَّ به المستشرقون أكثر من اهتمامنا نحن العرب .

وفى السنوات الأخيرة قامت بعض دور النشر الخاصّة فى سوريا ، بنشر بعض الموسوعات التراثية . وكان أسبقَ هذه الدور ظهوراً : المكتب الإسلامى ، ويديره الأستاذ الفاضل محمد زهير الشاويش ، الذى نشر عيوناً من التراث ، منها : كتاب شرح السُّنّة للبغوى (خمسة عشر جزءا ، وجزء للفهارس) ، وكتاب زاد المسير فى علم التفسير ، لأبى الفرج بن الجوزى

---

(١) ومن أنفس ما نشرته مجلة المجمع فى السنوات الأخيرة ، ذلك البحث الذى كتبه شيخنا العلاّمة أحمد راتب النفاخ ، فى تصحيح نسبة كتاب « إعراب القرآن » المنسوب خطأً إلى أبى إسحاق الزجاج .

(٢) وممّا أعتزُّ به أنى نشرت بها فى سنة ١٩٧٦ م بحثاً عن النسخة الثانية التى اكتشفتُها من كتاب « الفرق » لثابت بن أبى ثابت . وكان الأستاذ محمد الفاسى قد نشره عن نسخة وحيدة ، بالرباط .

(تسعة أجزاء) إلى كتبٍ أخرى ، من ذوات الجزء الواحد ، وبعض دواوين الشعر ، منها ديوان النابغة الجعدى ، رضى الله عنه ، وديوان ذى الرمة .

ويلقى الأستاذ زهير الشاويش ، عوناً ظاهراً من المملكة العربية السعودية ودولة قطر .

ومن هذه الدور الخاصة أيضا : مكتبات الحلوانى ، والملاَّح ، ودار البيان ، التى أخرجت كتاب جامع الأصول من أحاديث الرسول — ﷺ — لمجد الدين بن الأثير (أحد عشر جزءا — أردفتْها بجزئين للفهارس) . وهذه الطبعة أصحُّ من طبعة مصر التى أخرجها الشيخ محمد حامد الفقى . وقد أشرت إلى ذلك ، فى الحديث عن الشيخ الفقى . على أن هذه الطبعة الدمشقية قد أخلَّتْ بشيءٍ من آخر الكتاب ، وهى خاتمته فى بيان الأسماء والكنى ، والأبناء والألقاب والأنساب الواردة فى الكتب الستّة . وقد تعجَّب من ذلك مولانا حبيب الرحمن الأعظمى ، فقال أحسن الله إليه : « هذا ولا ينقضى عجبى من صنيع الناشرين لجامع الأصول ، فإنهما لم يقدرا هذا الركن من جامع الأصول ، ما يستحقه من التقدير والعناية بنشره ، فأهملاه رأساً ، مع أن فيه من الفوائد الهامة ما لا يستغنى عنه محدّث ، ولا معلِّم ، ولا متعلم ، وفيه ما لا يمكن تمام الاستفادةِ من الركن الثانى إلاَّ بمعرفته » [1] .

ومنها : مؤسسة الرسالة ، وقد نشرت نصوصاً كثيرة ، ومن أنفس ما

(١) تلخيص خواتم جامع الأصول ، لمحمد طاهر الفَتّنى . تحقيق مولانا المحدّث الجليل الشيخ حبيب الرحمن الأعظمى ، ص ج من مقدمة تحقيق الكتاب . وقد طبع هذا الكتاب فى علمى بريس بالهند ، بدون تاريخ . وقد تفضل الشيخ الجليل فأهداه إلىَّ بمكة المكرمة ، عام ١٤٠٠ هـ

باشرت طبْعَه كتاب سير أعلام النبلاء ، للحافظ الذهبى . وتحقيق الكتاب وإخراجه جيّدٌ جدا ، يليق حقاً بمكانة الكتاب ومكان صاحبه فى المكتبة العربية ، وقد بدأت طبعه ، سنة ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م ، وظهر منه حتى سنة ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م خمسة عشر جزءاً ضخاماً .

ويشرف على تحقيق الكتاب ، ويخرِّج أحاديثَه الشيخ شعيب الأرنؤوط ، جزاه الله خير الجزاء ، وتصدرت الجزءَ الأول مقدمةٌ نفيسة ، عن الذهبى وكتابه ، للصديق المحقِّق الدكتور بشار عوَّاد معروف البغدادى الكرخى .

وقد استعان الشيخ شعيب الأرنؤوط ، على تحقيق الكتاب بمجموعة من المحقِّقين ، ذوى أسماء جديدة فى عالم التحقيق ، ولكنهم كشفوا عن خبرة جيّدة بفنّ تحقيق النصوص ، وإدراك خباياه .

وهذا الكتاب العظيم مما تعثَّر فيه معهد المخطوطات ، ووقف عند الجزء الثالث ، كما ذكرت من قبل .

ولابدّ من التنويه هنا بفضل ناشر الكتاب ــ ولست أعرفه ــ الأستاذ رضوان دعبول ، الذى عرف جلالةَ الكتاب ، وسعى لها سَعْيَها ، من الإخراج الجيّد ، والتأنُّق فى الطبع ، والسَّخاء على المحقّقين ، وموالاة طبع أجزاء الكتاب ، ولو لم يكن فى هذا العمل إلاّ جُرْأتُه عليه واقتحام لُجته ، لكان فى ذلك ما يدعو إلى الثناءِ عليه والدعاء له . فإنى خبيرٌ بالناشرين ، وتجنُّبِهم لمثل هذه الأعمال الموسوعيّة التى تهُزّ رأسَ المالِ هزاً ، ولا تأتى بعائدٍ سريع .

وليت الأستاذ رضوان ، والشيخَ شعيباً يفرغان لكتاب الذهبىّ الآخر : « تاريخ الإسلام » ، الذى طبع منه المرحوم الأستاذ حسام الدين

القدسىّ ، خمسة أجزاء ، فيكون قد بدأ طبْعَ الكتاب دمشقىّ ، وأتمَّه دمشقىّ ، ومن قبلُ ألَّفه دمشقىّ ، فإن الحافظ الذهبى ــ رحمة الله عليه ــ وُلد وتوفىّ بدمشق .

ومن دور النشر الخاصة بسوريا أيضا : دار المأمون للتراث ، التى يقوم عليها الأخوان الفاضلان : عبد العزيز رباح ، وأحمد يوسف الدقاق . ومن الموسوعات التى نشرتها هذه الدار : شرح أبيات مغنى اللبيب ، للعلاّمة عبد القادر البغدادى (ثمانية أجزاء) .

وبعد صدور هذه الكتاب ، وخزانة الأدب ، لم يبق من موسوعات البغدادىّ سوى حاشيته على شرح بانت سعاد ، لابن هشام ، وقد سمعت أن بعضهم مشغولٌ بها هذه الأيام .

ومن النصوص الأصيلة التى باشرت دار المأمون نشرها : كتاب الحجّة فى تعليل القراءات السبع ، لأبى على الفارسى ، ولعل الجزء الأول منها يظهر هذا العام إن شاء الله . ومعلوم أن الجزء الأول من هذا الكتاب كان قد صدر فى القاهرة ، منذ نحو عشرين عاماً بتحقيق الأساتذة عبد الحليم النجار ، وعلى النجدى ناصف ، وعبد الفتاح إسماعيل شلبى .

ولن أدع حديثى عن تاريخ نشر التراث فى سوريا ، حتى أشير إلى جهود بعض الشباب الذين عُرفوا بعنايتهم بالتراث ونشر نصوصه ، وأذكر منهم الأخوين الصديقين فخر الدين قباوة ، ومحمد رضوان الداية .

أما الدكتور فخر الدين قباوة ، فقد اندفع إلى نشر النصوص ، غداةَ حصوله على الدكتوراه من جامعة القاهرة ، وهو من أنشط الناشرين الجامعيِّين وأدْأبهم ، ومما أخرجه :

الاختيارين ، للأخفش الأصغر على بن سليمان . شرح اختيارات المفضل ، للتبريزى . شرح القصائد العشر ، للتبريزى أيضا . شعر زهير بن

أبى سلمى ،صنعة الأعلم الشنتمرى . شعر الأخطل ، صنعة السُّكّرى ، شرح الملوكى فى التصريف ، لابن يعيش ، الممتع فى التصريف ، لابن عصفور . الجنى الدانى فى حروف المعانى ، لابن أم قاسم المرادى ، بالاشتراك مع الأستاذ محمد نديم فاضل .

وأما الدكتور محمد رضوان الداية ، فقد كان خلال إعداده للدكتوراه بجامعة القاهرة معنياً بالمخطوطات ونوادرها ، وقد صوَّر كثيراً من نفائس دار الكتب المصرية ، ومعهد المخطوطات ، وفى أثناء ذلك أخرَج هو والصديق الدكتور عدنان زَرْزُور ، كتاب الجمان فى تشبيهات القرآن ، لابن ناقيا البغدادى . وحين عاد إلى دمشق ، أخذ فى إخراج ما فى جعبته ، ومما نشره :

نثير الجمان فى نظم فحول الزمان ، لابن الأحمر ، إحكام صنعة الكلام ، لأبى القاسم الكلاعى . المعيار فى أوزان الأشعار والكافى فى علم القوافى ، لأبى بكر الشنتريني ــ ولشيخنا العلاَّمة أحمد راتب النفاخ ، عليه نقدٌ عالٍ [1] ــ ديوان أبى إسحاق الألبيرى . شرح مشكل شعر المتنبى ، لابن سيده . التنبيه [2] على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين فى آرائهم ، لابن السِّيد البطليوسى .

وقد ذكرت هذين الصديقين المحققين ؛ لأدلَّ على اتصال أجيال علماء التراث فى سوريا ؛ لأنى أرصد هذه الظاهرة ، وأتتبَّعها فى مختلف البلدان العربية ، وغير العربية . وأتمنّى ألاَّ تنقطع الوشائج والصلات بين الأجيال ، فيما يتصل بنشر التراث وإذاعته . وإن تباينت هذه الأجيالُ قوّةً وضعفا .

* * *

---

(١) نشره فى مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة . الجزء الثانى من المجلد الخامس عشر ١٣٨٩ هـ = ١٩٦٩ م

(٢) ويسمى : الإنصاف فى التنبيه ...

نشر التراث فى العراق

سبق القولُ أن الطباعةَ العربيّة قد ظهرت فى العراق عام ١٨٣٠ م ، وكانت مطبعة حجرية . ثم أسَّس الرُّهبان الدومينيكان فى الموصل ، مطبعة كاملة سنة ١٨٥٦ م .

وتوالت الأيام ، وتعددت المطابع فى بغداد ، والموصل ، والنجف ، وغيرها من عواصم العراق ، ونشرت فيما نشرت كتباً من التراث ، ثم أنشىء المجمع العلمى العراقى فى بغداد ، سنة ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٧ م ، فغذّى حركة نشر التراث فى العراق ، ونمَّاها .

ونطوى أيام العراق المجيدة فى نشر التراث ، لنصلَ إلى السنوات الأخيرة ، حيث نرى نهضةً عارمة فى نشر التراث ، ونشاطاً ظاهراً فى إخراج النصوص من مختلِف فروع التراث ، يقوم به شيوخ العراق وشبابه ، مما لا يُعرف فى أىّ قُطرٍ عربىٍّ آخر ، فى تلك السنوات المذكورة .

ولابُدَّ من التذكير بأن العراق الحديث ــ فيما يتصل بنشر التراث ، والاهتمام بعلومه ــ لم يعرف الفواصل بين الأجيال ، فجيل محمود شكرى الآلوسى ، ومحمد بهجة الأثرى ، ومصطفى جواد ، وناجى معروف ؛ وأحمد ناجى القيسى ، وصالح العلى ، موصولٌ بجيل إبراهيم السامرائى ، وهلال ناجى ، وأحمد مطلوب ، ونورى القيسى ، وأكرم ضياء العمرى ، وبشار عوّاد معروف ، وحاتم صالح الضامن ، وعبد الله الجبورى ، وسامى مكى العانى [1] .

---

(١) هذه الأسماء دالَّةٌ على غيرها ، من أحبابنا العراقيين ، الذين سعدت بصداقتهم ، والذين ملأوا الساحة تحقيقاً ونشراً ، وكثير منهم حصلوا على شهاداتهم العليا من مصر ، من=

ويقوم على نشر التراث فى العراق ثلاث جهات حكوميّة [1] هى : المجمع العلمى العربى ، ووزارة الأوقاف ، ووزارة الثقافة والإعلام .

أما المجمع العلمى العربى ، فتاريخه فى نشر النصوص قديم ، إلى جانب ما تفسحه مجلته لنشر النصوص الصغيرة ، ودواوين الشعر .

ويأتى إصدار وزارة الأوقاف غزيراً ثَرّاً مُعجِباً ، وقد بلغ ما أصدرته حتى سنة ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م اثنين وخمسين كتاباً ، وهو الرقم الذى يحمله كتاب الكشف الحثيث عمّن رُمِىَ بوضع الحديث ، لبرهان الدين الحلبى .

وهذا العدد يمثل إنجازاً ضخماً فى عمر إصدارات الوزارة من التراث ، التى لم تتجاوز خمسة عشر عاماً . وهذه النصوص تمثل أصولاً جيدة فى علوم التراث العربى وفنونه ، وقد جاء بعضها فى ثلاثة أجزاء ضخام ، مثل غريب الحديث ، لابن قتيبة ، وإعراب القرآن ، لأبى جعفر النحاس .

وكثيرٌ من هذه النصوص ، رسائلُ جامعيّة عليا ، مجازة من جامعات مصر وبغداد ، وهذا ممّا يُذكر لوزارة الأوقاف العراقية ، وتُشكر عليه ، فلم تترك هذه الجهود حبيسةً عند أصحابها ، تذكّرهم بأيام العناء والضَّنَى ، ليس غير .

= أمثال : يحيى الجبورى ، وطارق الجنابى ، وأحمد خطاب العمر ، ومحمد قاسم ، وأحمد نصيف الجنابى ، وطه جابر فياض ، وحمد الكبيسى ، وخليل العطية ، وجليل العطية ، ورشيد العبيدى ، وهلال سرحان ، وعبد الوهاب العدوانى ، وزهير غازى ، والحاج صبحى السامرائى ، وداود سلُّوم .

(١) أما النشر الخاص فى العراق ، فهو كثير ، ولا سبيل إلى ملاحقته هنا .

غير أنّ لى ملاحظةً على هذه المطبوعات ، كنت أحبّ أن تبرأ منها، وهى عدم العناية بالإخراج الطباعىّ ، المتمثل فى جودة الورق ، ونصاعة الحرف الطباعىّ ، وثبات الحِبْر ، وجريانه على ماءٍ واحد ، ممّا حدثتك عنه فى مطبوعات دار الكتب المصرية ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر ، ودار المعارف ، ومطبعة عيسى البابى الحلبى ، ودار العروبة بالقاهرة . وإغفالُ مثل هذه الأمور الطباعية ممّا يُضعف الشعورَ بجهد المحقِّق ، لا محالة . ولو أن وزارة الأوقاف استحدثت قاعدةً طباعية خاصة بها ، كتلك التى تخرج عليها مطبوعات المجمع العلمى فى بغداد ، لكان فى ذلك خيرٌ كثير (١) .

أماً نشاط وزارة الثقافة والإعلام ، فهو غزيرٌ أيضاً ، لكنّ معظمه يدور حول نصوص الأدب والشعر .

ولم يقتصر نشاط الوزارة على نشر أعمال المحقِّقين العراقيّين وحدهم ، فقد شمل تحقيقات غيرهم من العلماء العرب . ومن ذلك كتاب البرصان والعرجان ، للجاحظ ، بتحقيق شيخنا عبد السلام هارون . وكتاب بدائع السِّلك فى طبائع الملك ، لابن الأزرق (٢) الغرناطى ، بتحقيق الأستاذ الدكتور على سامى النشار ، رحمه الله ، والجزء الأول من ديوان الشريف الرضى ، بتحقيق أخى الأستاذ الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو .

---

(١) ولا بد من الإشارة هنا أيضا ، إلى العون والتعضيد ، اللذين تقدمهما جامعات العراق ، فى بغداد ، والموصل ، والبصرة ، والنجف ، لأبناء هذه الجامعات ، فعن طريق هذا العون والتعضيد ، ظهر تراث كثير .

(٢) محمد بن على بن محمد الأصبحى الأندلسى . توفى سنة ٨٩٦ هـ عالم اجتماعى ، سلك طريقة ابن خلدون . وهو من العلماء المجاهدين . وفى ترجمته أنه تولّى القضاء بغرناطة إلى أن استولى عليها الإفرنج فانتقل إلى تلمسان ثم إلى المشرق يستنفر ملوك الأرض لنجدة صاحب غرناطة قال المقرى : « واستنهض عزائم السلطان قايتباى لاسترجاع الأندلس ، فكانكمن يطلب بيض الأنوق ، أو الأبيض العقوق ! ثم حجَّ ورجع إلى مصر ، فجدَّد الكلام فى غرضه ، فدافعوا عن مصر =

وتمثل حركة نشر دواوين الشعر القديم فى العراق الآن ، ظاهرةً جديرةً بالاحتفاء والإشادة . وأهمّ ما فى هذه الظاهرة أنها عُنيت بشعر المقلّين من الشعراء ، الذين تناثرت أشعارهم فى المجموعات الشعرية ، كالأصمعيات ، والمفضليات ، والحماسة ، وجمهرة أشعار العرب ، والموسوعات الأدبية ، مثل الأغانى ، وأمالى القالى ، وسائر كتب الأمالى ، والعقد الفريد ، وزهر الآداب ، ومعاجم اللغة ، وأمهات النحو ، وكتب التفسير والمعانى .

وبعض ما نشره العراقيون من هذا الشعر ، قد سبق نشره فى مطابع أوربا ، على يد المستشرقين ، مع إصلاح ، وزيادة تخريج وفهرسة ، وكلّ ما يمكن للعين العربية أن تضيفه من بَصَرٍ بالشعر ، ونفاذٍ إلى أسراره وأعماقه .

كما أن بعض هذا الشعر المنشور قام على تحقيق لمخطوطات دواوين الشعراء ، لكنه قليل إذا ما قيس بالشعر المجموع من بطون الكتب والدفاتر .

وعن وزارة الثقافة والإعلام صدرت مجلة « المورد » وهى مجلة تراثيّة فصليّة ، تعالج شئونَ التراث وقضاياه ، وتنشر من نصوصه ما تُطيقه طبيعة المجلات الفصليّة .

وتُعدّ هذه المجلة أرقى مجلة عربيّة ، تعنى بشئون التراث ، منذ ظهور الطباعة العربية إلى يوم الناس هذا . وحسبُها فضلاً ورفعة أنّ شيخ العربية محمود محمد شاكر ، أهدى إليها كتابه « برنامج طبقات فحول الشعراء » ، بهذه العبارة :

« إلى مجلة المورد بالعراق لجميل فضلها على أهل هذا اللسان العربىّ » . وشيخنا أبو فهر — حفظه الله — لا يمدح الأشياءَ إلا إذا اتضحت مقاصِدُها عنده ، وأضاء إخلاصُها فى نفسه . كما أقول دائما .

* * *

= بقضاء القضاة فى بيت المقدس ، فتولاه بنزاهة وصيانة ، ولم تطل مدّته هنا لك حتى توفى به » نفح الطيب ٢/٧٠٢

نشر التراث فى الكويت

فى نحو سنة ١٣٨٠ هـ بدأت وزارة الإرشاد والأنباء ، فى الكويت ، مشروعاً عظيماً ، لنشر كتب التراث ، وأعدَّتْ له عُدَّتَه من اختيار المحقِّقين الأعلام ، والعناية بحسن الصورة ، وجمال الإخراج ، فكانت طائفة صالحة من كتب التراث ، منها : الأضداد ، لأبى بكر بن الأنبارى ، والمصون ، لأبى أحمد العسكرى ، ومجالس العلماء للزجاجى ، وديوان لبيد ، ورسائل الصابى والشريف الرضى ، وخلق الإنسان ، لثابت بن أبى ثابت ، والعبر فى خبر من عَبر [(١)] ، للذهبى ، مع ذيوله (فى ستة أجزاء) . ومآثر الإنافة فى معالم الخلافة ، للقلقشندى (ثلاثة أجزاء) . والأنوار فى محاسن الأشعار ، للشمشاطى . ومقالتان فى الحواسّ ، لعبد اللطيف البغدادى .

وآخر ما صدر من هذه السلسلة ، كتاب جمهرة النسب لابن الكلبى ــ ١٤٠٣ هـ ــ وهو يحمل الرقم (٢١) .

ومن أعظم الأعمال التى خرجت ضمن هذا المشروع ، كتاب تاج العروس فى شرح القاموس ، للمرتضى الزَّبيدى ، وقد ظهر الجزءُ الأول منه سنة ١٣٨٥ هـ ، وآخر ما صدر منه حتى هذه السنة ١٤٠٤ هـ : الجزء العشرون ، وبقى منه عشرون آخرون . وقد أشرف على إخراج التاج ، وتنسيق أجزائه ومراجعتها محقق اللغة الكبير الأستاذ عبد الستار فراج ، رحمه الله ، ثم آل الأمرُ من بعده إلى الأخ المحقق الثبت الأستاذ مصطفى حجازى ، وفقه

---

(١) عبر ، بالعين المهملة . وجاء فى المطبوع « غبر » بالغين المعجمة ، وهو وهم . انظر : الذهبى ومنهجه فى كتابة تاريخ الإسلام ، لصديقنا المحقق بشار عواد معروف البغدادى ــ ص ١٧٨ ــ مطبعة عيسى البابى الحلبى . القاهرة ١٩٧٦ م

الله لإتمام هذا العمل الكبير . ووزارة الإرشاد والأنباء بدولة الكويت مدعوّةٌ إلى أن تنشط لإكمال طبع الكتاب ، وأن تخصص له مطبعة تفرغ لطبع الأجزاء الباقية مرة واحدة ، وهذه الأجزاء محققة منذ زمن طويل .

وتبعت وزارةَ الإرشاد والأنباء ، فى نشر التراث بالكويت ، وزارةُ الأوقاف والشئون الإسلامية ، وكان باكورة إنتاجها كتابُ الفوائد فى مشكل القرآن ، لعز الدين بن عبد السلام ، الذى صدر عام ١٣٨٧ هـ . ثم توالت مطبوعات الوزارة ، فكان منها: الجمان فى تشبيهات القرآن ، لابن ناقيا البغدادى ، ومختصر صحيح مسلم ، للحافظ المنذرى . والمطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية ، لابن حجر العسقلانى (أربعة أجزاء) . والزاهر فى غريب ألفاظ الشافعى ، لأبى منصور الأزهرى . والنكت والعيون ، فى تفسير القرآن الكريم ، للماوردى (أربعة أجزاء) . وكتاب الفروق فى الفقه الحنفى ، للكرابيسى (جزءان) وكتاب تحقيق القضية فى الفرق بين الرشوة والهدية ، لعبد الغنى النابلسى .

ثم أعادت الوزارة طبع كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (البخارى ومسلم) الذى وضعه الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، ونشر بمطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر ، أول مرة سنة ١٣٦٨ هـ مع بعض تصحيحات وفهارس ، من عمل الأخ الدكتور عبد الستار أبو غدّة .

وقد أصدرت وزارة الأوقاف أيضاً فهرس كتاب جمع الجوامع ، فى أصول الفقه ، لتاج الدين السبكى ، صاحب طبقات الشافعية ، وفهرس حاشية ابن عابدين ، فى الفقه الحنفى ، بالإضافة إلى اضطلاعها بإصدار الموسوعة الفقهية .

وهناك هيئة حكومية ثالثة لنشر التراث فى دولة الكويت ، هى شعبة التراث العربى بالمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب . ومن جهودها الطيّبة

فى ذلك إخراج كتاب المناظر ، للحسن بن الهيثم ، وقد صدر عام ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م .

ويوجّه نشاطَ هذه الشعبة أخ صادق الإخاء ، بارٌّ بالعلم والعلماء ، هو الأستاذ الدكتور عبد الله يوسف الغنيم ، عميد كلية الآداب بجامعة الكويت ، وهو آخذٌ طريقَه ـــ إن شاء الله ليكون من كبار الجغرافيين العرب ، وقد سعدت بأخوّته وصداقته أيامَ دراسته فى القاهرة . وكانت أزهى أيام العمر « إذِ الناسُ ناسٌ والزمانُ زمانُ » .

ويشدُّ أزرَه فى أعمال هذه الشُّعبة الأخ الذكىُّ القلب واللِّسان ، صاحبُ الفنون والغرائب الأستاذ الشيخ عبد الحميد بسيونى . وإنى أدعو الصديقين الكريمين إلى العناية بنشر تراث العرب العِلمى ، مما كتبه علماؤنا فى الطب والكيمياء والفلك والجغرافيا ، وما عُرِف بعلوم الكون ، وهو مما يرغب عنه الناشرون من التجار ، لأنه لا يحقق ربحاً سريعا . وإن كان المستشرقون قد عُنُوا بهذا الجانب من تراثنا عناية بالغة ، كما يظهر فى الحديث عن نشاطهم .

* * *

نشر التراث فى المملكة العربية السعودية

اتجه كثيرٌ من علماء المملكة العربية السعودية إلى طبع إنتاجهم التأليفى أو التراثى ، فى مصر ، إذ لم تكن المطابع قد عرفت قديماً فى المملكة على النحو الذى عرفت به فى البلدان العربية الأخرى . وكذلك فعل الناشرون السعوديون الذين كانوا يكثرون من التردد على مصر ، وكانت لهم صلات وثيقة بعلماء مصر ، وأصحاب المطابع بها . وأذكر من هؤلاء الناشرين ثلاثة : الحاج عبد الشكور فدا [١] ، وهو من أبرزهم ، ومن أكثرهم نشاطاً ، وأوثقهم صلاتٍ وصداقات بالعلماء والناشرين بمصر . ومما نشره فى مطابع مصر : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، لتقى الدين الفاسى ، الذى طبعه بمطبعة عيسى البابى الحلبى ، سنة ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٦ م ، ورياض الصالحين للنووى ، والطب النبوى ، لابن قيم الجوزية . ومنهم الشيخ محمد سعيد كمال صاحب المكتبة الشهيرة بالطائف ، وقد عرفته زمان اشتغالى بنَسْخ المخطوطات ، ومما نسخته له كتاب الجواهر والدرر فى مناقب شيخ الإسلام ابن حجر ، لشمس الدين السَّخاوى . والشيخ محمد سلطان النمنكانى ، صاحب المكتبة العلمية بالمدينة المنورة . وكان رحمه الله ، فاضلاً ذاسَمْت صالح ووقار زائد .

وقد بذل بعضُ علماء المملكة ووُجهاؤُها ، عوناً ظاهراً فى نشر بعض كتب التراث فى مصر ، من أمثال الشيخ الجليل محمد نصيف ، الذى كان

---

(١) هكذا ينطق أصدقاؤه فى مصر ، اسمَه مقروناً بالحاج ، على نحو ما يقال فى صاحب كشف الظنون : الحاج خليفة . وكلمة « حاج » فى مصر ، لها رنينٌ خاصّ ، كان ولا يزال .

بيته بجدّة مثابة للعلماء من كلّ أنحاء الدنيا ، والشيخ محمد سرور الصبّان ، الذى أعان على نشر كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، لتقى الدين الفاسى ، الذى صدر الجزء الأول منه عام ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٨ م ، وقد ذكرته فى حديثى عن جهود الشيخ محمد حامد الفقى . والسيد حسن شربتلى ، الذى أنفق على طبع الصحاح للجوهرى ، الذى نشر عام ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٦ م ، بمطبعة دار الكتاب العربى (محمد حلمى المنياوى) ، وكانت من المطابع الجيدة بمصر .

وأشير هنا إلى مطبعتين فى مصر ، نهضتا بطبع كثير من كتب التراث : أولاهما مطبعة السنة المحمدية ، للشيخ محمد حامد الفقى ، وقد تحدثت عنها من قبل ، وقد حظيت بدعمٍ ظاهر من المملكة العربية السعودية .

والمطبعة الثانية : هى مطبعة المدنى (المؤسسة السعودية بمصر) ، وقد أنشأها المرحوم الشيخ على صبح المدنى ، عام ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٢ م ، بجهود ذاتية خالصة . وقامت بطبع كثيراً من كتب السَّلف ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية ، وغير ذلك فى فنون تراثية شتى . وقد خرجت منشورات دار العروبة كلُّها من هذه المطبعة ، التى اجتمع لها من جودة الطبع وجمال الإخراج ما يجعلها تقف على درجة واحدة مع مطبوعات دار الكتب المصرية ، ومطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، كما أفسحت هذه المطبعة مكاناً لمطبوعات دور النشر الأخرى مثل جمهرة الأمثال ، لأبى هلال العسكرى ، ووقعة صفين ، لنصر بن مزاحم ، وأمالى الزجاجى ، وشرح مقامات الحريرى ، للشريشى ، ودمية القصر للباخرزى .

وقد خرجت تآليف شيخنا محمود محمد شاكر ، وتحقيقاته الأخيرة من هذه المطبعة .

وبعد وفاة مؤسِّسها الشيخ على صبح المدنى ، رحمه الله ، قام مقامَه ولدُه الكريم الأخ الأستاذ محمود المدنى ، الذى يتابع خطوات والده ، ويجمع لهذه المؤسَّسة كلَّ وسائل الجودة والإتقان .

وقد بلغت منشورات المطبعة منذ إنشائها ، إلى هذه السنة ١٤٠٤ هـ ، نحو تسعين كتابا ، بعضها فى أربعة أجزاء ، مثل الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح ، لشيخ الإسلام ابن تيمية . والدين الخالص ، لمحمد صدِّيق حسن القنّوجى ، وبعضها فى خمسة أجزاء ، مثل زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم ، لمحمد حبيب الله الشنقيطى . وجاء كتاب أضواء البيان فى تفسير القرآن ، لمحمد الأمين الشنقيطى ، فى تسعة أجزاء .

وفى السنوات العشر الأخيرة نشطِ الإخوة فى المملكة العربية السعودية ، نشاطاً ملحوظاً فى جمع صور المخطوطات من مظانِّها فى مكتبات العالم ، بل إنهم اهتموا أيضاً بشراء المخطوطات أنفُسِها ، وبذلوا فى سبيل ذلك أموالاً سخيَّة ، ممّا أغرى تجّار المخطوطات بالاتجاه إليهم وعرْضِ بضاعتهم ، فجمعوا من ذلك نفائس ونوادرَ ، أضيفت إلى ما تجمَّع عندهم قديماً فى مكتبة عارف حكمة ، بالمدينة المنورة ، ومكتبة الحرم المكى بمكة المكرمة . ثم أخذوا فى إعداد بعض هذه المخطوطات للتحقيق والنشر . وقد أنشأوا لذلك مراكز علميّة ملحقة بالجامعات ، فكانت العناية بجمع المخطوطات ونشرها مرتبطةً بالجامعات عندهم ، وهذا ما ندعو إليه ، ونتحمَّس له ، وسوف ترى أن نشاط المستشرقين فى نشر التراث قد آتى ثماره ؛ لأنه ارتبط بالجامعات عندهم ، ذلك أن ترك أمر نشر التراث إلى التجار وأصحاب المطابع الخاصة لا يخدم قضية التراث فى شموله وإحاطته ، فإن التاجر قبل أن يطبع كتابا يتحسَّسُ حاجة السُّوق إليه ، فهو يُخضِع

كلَّ جهدٍ يبذله لموازين الربح والخسارة ومدى انتشار الكتاب المطبوع ، وإقبال جمهور الناس عليه . ومَن مِن التجار الآن يطبع موسوعةً فى أصول الفقه ، أو فى علم القراءات ، أو كتاباً من كتب الطب القديم ؟ .

ومهما يكن من أمر ، فقد بذل الإخوان فى المملكة العربية السعودية ، جهوداً طيبة فى جمع صور المخطوطات من مكتبات العالم ، وكانت البداية من القاهرة : من دار الكتب المصرية والمكتبة الأزهرية ، ومعهد المخطوطات ، ثم انطلقوا بعد ذلك شرقاً وغربا ، فجمعوا أشياء من تركيا والهند ، والظاهرية بدمشق ، والخزانة العامة بالرباط فى المغرب الأقصى ، وتشستر بتى بمدينة دبلن بأيرلندا ، وغير ذلك من مكتبات العالم (١) .

وينبغى الإشارة هنا إلى جهدٍ سخىّ ، سبق كلَّ هذه الجهود ، هو ما قام به العلاَّمة الشيخ حَمْد الجاسر ، من جمع صور المخطوطات النادرة ، التى ركب إليها الصَّعبَ والذَّلول ، وجمعها من مظانّها شرقاً وغربا ، ثم عرَّف بها ودلَّ الناسَ عليها فى مجلته العظيمة (العرب) التى كان يصدرها فى بيروت ، ثم قدَّمها للعلماء طيّبةً بذلك نفسُه ، زاكياً بذلك عملُه ، إن شاء الله . ومما قدَّمه من هذه النوادر للعلماء ــ وهو كثير ــ مخطوطة جمهرة نسب قريش

---

(١) من الأسماء التى عنيت بجمع المخطوطات فى المملكة : الشيخ حماد الأنصارى ، فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، والدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، بمركز البحث العلمى بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، والدكتور ناصر بن سعد الرشيد ، وهو أول مدير لمركز البحث العلمى . والحصيلة الأولى من مخطوطات المركز جُمِعت على يديه ، والدكتور عبد الله عبد الرحيم عسيلان بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، والدكتور يحيى ساعاتى ، أيام اشتغاله بعمادة شئون المكتبات بجامعة الملك سعود (جامعة الرياض سابقا) .

وأخبارها ، للزبير بن بكّار ، الذى أخرج منها شيخنا محمود محمد شاكر الجزء الأول عام ١٣٨١ هـ وذكر صنيع الشيخ حَمْد ، فى ثناءٍ عاطر ، هو به جدير . ولو ذهبتُ إلى إحصاء جهود هذا العالم الجليل ، المحبّ للتراث ، الحافظِ له ، لذهب بى القولُ كلَّ مذهب ، ولخرج هذا المدخل عما أردته له من الوجازة والاختصار ، فالله يجزيه خير الجزاء .

ثم كان التحقيق والنشر . وقد نهضت بذلك ثلاث هيئات فى المملكة : مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى بكلية الشريعة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة . والمجلس العلمى بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض . والمجلس العلمى بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

وقد نشر مركز البحث العلمى فى فترة وجيزة منذ إنشائه (١) ، قدْراً طيّباً من نصوص التراث ، بلغ عشرين كتابا فى فنون متنوعة ، وهى :

تاريخ يحيى بن معين (أربعة أجزاء) ، وتحقيقات وتنبيهات فى معجم لسان العرب ، لشيخنا عبد السلام هارون . وتفسير أبيات المعانى من شعر أبى الطيب المتنبى ، لأبى المرشد المعرّى . وشرح الكوكب المنير فى أصول الفقه ، لابن النجار (صدر منه ثلاثة أجزاء ، وبقى جزء واحد) . والمساعد فى شرح تسهيل الفوائد ، لابن عقيل (جزءان ، وبقى جزء واحد) . والأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام ، ومنال الطالب فى شرح طِوال الغرائب ، لمجد الدين بن الأثير . والمختصر فى أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، لابن اللّحام . والإيضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان ، لابن الرفعة . ومن كلام أبى زكريا يحيى بن معين فى الرجال . وتاريخ عثمان بن سعيد الدارمى عن أبى زكريا يحيى بن معين . وبرنامج الوادى آشى ، والتبصرة

---

(١) حيث أنشئ فى عام ١٣٩٦ هـ = ١٩٧٦ م

والتذكرة فى النحو ، للصيمرى . والكواكب النيِّرات فى معرفة من اختلط من الرواة الثقات ، لابن الكيال . وغريب الحديث ، لأبى سليمان الخطابى (ثلاثة أجزاء) وهو من أنْفسِ ما أخرجه المركز . والدليل الشافى على المنهل الصافى ، لابن تغرى بردى (جزءان) . وإتحاف الورى بأخبار أمّ القرى ، لابن فهد (صدر منه جزءان ، وبقيت منه بقية) . وفضائل الصحابة ، للإمام أحمد بن حنبل (جزءان) . وشرح الكافية الشافية ، لابن مالك (خمسة أجزاء) والمشوف المعلم فى ترتيب إصلاح المنطق على حروف المعجم ، للعكبرى (جزءان) . ولازال المركز يوالى إصداراته ، بالإضافة إلى مجلة المركز ، التى تعنى ــ بجانب الدراسات والبحوث ــ بنشر النصوص الصغيرة .

أما المجلس العلمى بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، فقد نشر طائفة صالحة من كتب التراث أيضاً . منها :

درء تعارض العقل والنقل ، لشيخ الإسلام ابن تيمية (أحد عشر جزءا) .

وكان محققه الفاضل الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم ، قد نشر الجزء الأول منه بمركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية عام ١٣٩١ هـ . والمحصول فى أصول الفقه ، للفخر الرازى مع دراسة موسَّعة عنه (ستة أجزاء) وجمهرة أشعار العرب ، لأبى زيد القرشى (ثلاثة أجزاء) . والعفو والاعتذار ، لأبى الحسن محمد بن عمران العبدى ، صاحب ابن دريد (جزءان) . وحماسة أبى تمام (جزءان) وتاريخ العلماء النحويين ، لابن مِسْعَر . وهو على وجازته من النصوص المتقدمة فى تاريخ النحاة .

وقد نَهَدتْ (١) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، لعمل علميٍّ جليل ، هو ترجمة كتاب تاريخ التراث العربى ، الذى وضعه بالألمانية العالم التركىّ المسلم الدكتور محمد فؤاد سزكين . ونرجو أن توفق جامعة الإمام محمد لإتمام هذه الترجمة ، وألاَّ تتقاعس كما تقاعست من قبلُ جامعة الدول العربية فى ترجمة كتاب تاريخ الأدب العربى ، للمستشرق الألمانى كارل بروكلمان (٢) .

ولا ينبغى أن نُغفل فى ذكر جهود جامعة الإمام فى نشر التراث ، احتضانها لأعمال العلماء الكبار ، ونشرها برسم الجامعة وتحت شعارها . ومن ذلك كتاب دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، الذى صنَّفه على وضعٍ لم يسبق إليه العلامة الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة ، رحمه الله ، وقد حدثتك عنه من قبل . ومن ذلك أيضا : ما بقى من كتاب تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار ، للإمام أبى جعفر الطبرى . بتحقيق شيخنا محمود محمد شاكر . وفى مقدمة تحقيق الكتاب ما ينبئك أنه لولا حثُّ مدير جامعة الإمام ، الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى ، وتحريضه ، لبقى هذا الأثر النفيس فى مكتبة شيخنا أبى فِهر ، كتاباً لمراجعته . وشيخنا حفظه الله — كما قلت من قبل — لا يذكر من أعمال الناس إلاَّ ما ثبت صِدقُه عنده .

أما الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة — على ساكنها أفضلُ الصلاة وأزكى السلام — فلا تزال خطواتُها فى نشر التراث محدودة ، ونرجو لها اطِّرادَ التوفيق والنجاح .

---

(١) نهد كنهض ، وزناً ومعنى .

(٢) حيث أصدرت منه ستة أجزاء ، فى نحو خمسة وعشرين عاما .

فممّا نشرته من النصوص : كتاب الإيمان ، لابن مندة (ثلاثة أجزاء) ، وسؤالات أبى عبيد الآجُرِّى أباداود السجستانى ، فى الجرح والتعديل . وكتاب الضعفاء ، لأبى زرعة الرازى وأجوبته على أسئلة البرذعى (ثلاثة أجزاء) ، وقد طبع باسم : « أبو زرعة الرازى وجهوده فى السنة النبوية مع تحقيق كتابه الضعفاء وأجوبته على أسئلة البرذعى » وواضح أن هذا هو عنوان رسالة الدكتوراه التى تقدّم بها محقّق الكتاب ، الدكتور سعدى الهاشمى لجامعة الأزهر ، وكان الواجب عند طبع الكتاب أن يكون عنوانه : كتاب الضعفاء لأبى زرعة الرازى ، وأجوبته على أسئلة البرذعى .

ولعل الجامعة الإسلامية قد نشرت أشياء أخرى ، لم يبلغنى خبرُها ؛ فإن مما يؤخذ على هيئات نشر التراث فى المملكة العربية السعودية ، وفى الكويت أيضا ، أنها تجعل منشوراتها خالصةً للإهداء ؛ لمن تعرفه ، أو لمن يطلبها منها ، أو لزوّارها ، وقد يكون بعض هؤلاء الزوَّار ممن لاصلة له بكتب التراث ، وأيضا فقد يترك بعض هؤلاء الزوّار ما أُهْدِى له بالفندق ؛ استثقالاً لحمله ، ونرجو ألا يغضب أحد ، فإننا نريد لهذه الجهود العظيمة أن تنتشر ويعمَّ النفعُ بها ، ويتحقَّق ذلك بأن تخصص تلك الهيئات قدراً من مطبوعاتها للبيع ، وتختار لذلك دارين للتوزيع ، إحداهما فى المشرق العربى (مصر مثلا) والثانية فى المغرب العربى (تونس مثلا) .

* * *

نشر التراث فى قطر

منذ نحو ستين عاماً أخذت دولة قطر فى نشر كتب التراث ، المتصلة بفقه الإمام أحمد بن حنبل ، وعقيدة السَّلَف . وكان من أوائل ما نشر من ذلك كتاب الفروع ، لشمس الدين أبى عبد الله محمد بن مفلح ، ومعه تصحيح الفروع ، لعلاء الدين أبى الحسن المرداوى . وقد تم طبع هذين الكتابين سنة ١٣٤٥ هـ بمطبعة المنار بمصر ، على نفقة الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثانى ، حاكم قطر .

وفى عهد ولده سمو الشيخ على بن عبد الله آل ثانى ، قوى هذا الاتجاه ونما بفضل توجيهات العلاَّمة الجليل الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع ، رحمه الله رحمة واسعة . وقد كان هذا الرجل من فضلاء العصر ، وهو من روّاد التعليم فى المملكة العربية السعودية . وقد ورث عنه حبَّ العلم وتكريمَ العلماء ، ولدُه الكريم الأستاذ أحمد المانع ، مدير البعثة التعليميَّة السعودية بمصر ، والمستشار الثقافى ، ومندوب المملكة فى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . وقد أقام بمصر نحو أربعين عاماً ، قريباً إلى كلِّ قلب ، حبيباً إلى كلِّ نفس ، وقد سعد به أهل مصر وعلماؤها ، إذ وجدوا فيه صورةً نادرة ، من الفضل والكمال ، والسَّماحة والأريحيّة .

ومن الكتب التى طبعت على نفقة سموّ الشيخ على آل ثانى :

مطالب أولى النهى فى شرح غاية المنتهى ، للشيخ مصطفى السيوطى الرحيبانى ، ومعه تجريد زوائد الغاية والشرح ، للشيخ حسن الشطىّ (ستة أجزاء) . وكتاب الفروع السابق (أعيد طبعه فى ستة أجزاء) والروض الندى شرح كافى المبتدى ، فى الفقه الحنبلى ، لأحمد بن عبد الله بن أحمد البعلى . ولوامع الأنوار البهيّة وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضيّة فى

عقد الفرقة المرضية ، لمحمد بن أحمد السفاريني الأثرى الحنبلى (جزءان) . والمسوَّدة فى أصول الفقه الحنبلى ، لآل تيمية : مجد الدين أبى البركات عبد السلام بن عبد الله ، وشهاب الدين أبى المحاسن عبد الحليم بن عبد السلام ، وشيخ الإسلام تقى الدين أبى العباس أحمد بن عبد الحليم . جمعها وبيَّضها شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد الحرَّانى الدمشقى . وتوضيح المقاصد وتصحيح القواعد فى شرح قصيدة الإمام ابن القيم ، النونية . المسماة بالكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية . للشيخ أحمد ابن إبراهيم بن عيسى الشرقى (جزءان) وجلاء العينين فى محاكمة الأحمدين [ابن تيمية وابن حجر الهيتمى] لخير الدين نعمان بن محمود بن عبد الله الآلوسى البغدادى . وسمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى ، للعصامى المكىّ (أربعة أجزاء) والدين الخالص ، للسيّد محمد صدّيق حسن القِنَّوْجى البخارى (أربعة أجزاء) والتاج المكلَّل من جواهر مآثر الطِّراز الآخِر والأوّل ، للمؤلف نفسه . ومنادمة الأطلال ومسامرة الخيال ، للشيخ عبد القادر بدران ، وهو فى مدارس دمشق وآثارها . والفواكه العديدة فى المسائل المفيدة ، لأحمد بن محمد المنقور التميمى النجدى(جزءان) .

ومن دواوين الشعر التى طبعت على نفقة سمو الشيخ على آل ثانى : ديوان النابغة الجعدى ، رضى الله عنه ، وديوان ذى الرمة ، وديوان الأخطل مصورة عن طبعة بيروت ، وديوان أبى الحسن التهامى ، وديوان ابن درَّاج القَسْطَلّى . وقد كان لهذا الأمير عنايةٌ بالعلم والأدب ، وسعىٌ فى نشرهما وإذاعتهما يقول العلاَّمة الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع ، فى وصفه : « كان صاحب السموّ الشيخ على بن الشيخ عبد الله بن قاسم الثانى حريصاً على تحصيل العلوم اللغوية والشعرية ، ويديم سماعَها وقراءتها ، وكان حاذقاً ناقداً يفهم جيدّاً ما يسمع وما يقرأ ، وكانت مجالسه ليلا ونهاراً عامرةً

بقراءة فنون العلم ، وكان يبذل الأموال الطائلة فى نشر كتب العلم ، وتوزَّع بأمره على المستحقين من أهل العلم وقفاً لله تعالى ، وأمر بإنشاء عدة مكاتب فى قطر وغيره ، وأمر بأن يجمع لها الكتب النافعة المفيدة ، تسهيلاً لنشر العلم ، وإعانة للمطالعين المستفيدين » (١) .

وقد بلغ ما طبعه هذا الأمير العالم ، على نفقته ، نحو ثلاثين كتابا ، بعضها فى سبع مجلدات ، وذلك حتى سنة ١٣٨٠ هـ (٢) . وكان له مندوبون لتوزيع هذه الكتب بالمَجَّان (٣) ، فى كلٍّ من : القاهرة ودمشق ، وجدة ، والأحساء ، وبيروت .

وفى تلك الأيام التى كان ينفق فيها حاكم قطر ، على نشر كتب التراث ، كان هناك رجلٌ من أعيان قطر ، ومن ذوى البِرّ والخير ، بها ، هو الشيخ قاسم بن درويش فخرو ، وقد نشر على نفقته طائفة من كتب التراث ، منها : التنقيح المشبع فى تحرير أحكام المقنع ، فى فقه الحنابلة ، لعلاء الدين المرداوى ، والمطلع على أبواب المقنع ، لشمس الدين البعلى الحنبلى . ومنار السبيل فى شرح الدليل ، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل (جزءان) .

وقد طبعت هذه الكتب المذكورة — وغيرها كثير — بالمطبعة السَّلفيَّة ، ومطبعة المدنى بمصر ، والمكتب الإسلامى للطباعة والنشر بدمشق لصاحبه الأستاذ محمد زهير الشاويش . وقد لقى هذا الناشرُ العالِم دعماً آخر من دولة قطر ، حين اشترت من مطبوعاته قدراً كبيرا ، أهدته إلى طلبة

---

(١) مقدمة ديوان ابن دراج القسطلى ، الذى نشر عام ١٣٨١ هـ = ١٩٦١ م

(٢) راجع تصدير الأستاذ عبد البديع صقر ، لديوان ابن دراج المذكور .

(٣) المجّان ، بفتح الميم ، وتشديد الجيم ، بوزن شدَّاد : ما كان بِلا بَدَل . وقال ابن فارس : هو عطيّةُ الرجل شيئا بلا ثمن . مقاييس اللغة ٢٩٩/٥

العلم ، ومن ذلك كتاب زاد المسير فى علم التفسير ، لأبى الفرج بن الجوزى (تسعة أجزاء) وللأستاذ محمد زهير الشاويش [١] جهود طيّبة كثيرة فى نشر التراث ، من هذه الجهود الموسوعية كتاب شرح السنة ، للإمام البغوى ، الذى طبع بأمر جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود ، رحمه الله .

وفى أيامنا هذه توالى دولة قطر جهودها فى نشر التراث وإذاعته ، ومما نشرته من ذلك كتاب البرهان ، فى أصول الفقه . والغياثى ــ أو غياث الأمم فى التياث الظُّلَم ــ وكلاهما لإمام الحرمين أبى المعالى الجوينى . وقام على تحقيق الكتابين الأخ الأستاذ الدكتور عبد العظيم الديب .

ولقد كان صدور كتاب البرهان ، عن دولة قطر ، فضلاً عظيماً ، ادَّخره الله لها ، فإن تاج الدين السُّبكىَّ يقول عنه : « اعلم أن هذا الكتاب وضعه الإمام فى أصول الفقه ، على أسلوب غريب ، لم يقتد فيه بأحد ، وأنا أسمّيه لغزَ الأمَّة ؛ لما فيه من مصاعب الأمور ، وأنه لا يُخلى مسألة عن إشكال ، ولا يخرج إلاَّ عن اختيار يخترعه لنفسِه ، وتحقيقاتٍ يستبدُّ بها ، وهذا الكتاب من مفتخرات الشافعية » [٢] .

ولما كان لأخى الدكتور عبد العظيم الديب خصوصيّةٌ بآثار أبى المعالى الجوينى ، وأُنْسٌ بمنهجه فى التأليف والتصنيف ، فإنى أدعوه وأدعو دولة قطر إلى عملٍ جليل ، يكون لهما فيه أجر ، وللناس فيه نفع ، وهو نشر كتاب نهاية المطلب فى دراية المذهب ، لإمام الحرمين الجوينى ، فهذا الكتاب من موسوعات فقه الشافعية ، ومن أركان المذهب .

---

(١) سبق كلام عنه فى حديث نشر التراث فى سوريا .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ١٩٢/٥ ، وانظر أيضا ٢٤٣/٦

ومن نشاط دولة قطر أيضا فى نشر التراث ، إعادتُها لبعض الكتب المطبوعة قديماً ، مثل إمتاع الأسماع ، للمقريزى ، الذى تقدَّم خبره فى الحديث عن لجنة التأليف والترجمة والنشر . وكتاب رحمة الأمة فى اختلاف الأئمة ، لمحمد بن عبد الرحمن بن الحسين الدمشقى الشافعى المتوفى بعد سنة ٧٨٠ هـ [١] .

ويقوم على طبع الكُتُب هناك رجل فاضل ، هو الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصارى . وهذا الرجل لا أعرفه ، ولكننى أشعر فى تقديمه للكتب بنبرة الصدق والإخلاص ، وإنى أدعوه الاَّ يقف عند حدود تصوير الكتب المطبوعة ، أو طبع الكتاب ذى الجزء الواحد ، بل يتجه إلى طبع الموسوعات التى لا يقدم عليها الناشرون من التجار الآن ، وبذلك يتصل ماضى قطر وحاضرُها ، فى نشر التراث .

* * *

---

(١) الأعلام ١٩٣/٦

نشر التراث فى المغرب العربى

يشكو المغاربة المعاصرون من أن إخوانهم فى المشرق لا يعرفون عنهم إلاَّ النزر اليسير ، فى حين أنهم يعرفون عنهم كلَّ شئ .

وهذه الشكوى تأتيك هامسةً رقيقة من طبقة الشيوخ ، على حين تسمعها غاضبةً صاخبة من جيل الشباب ، وعلى حين يرى الشيوخ أن هذا الإعراضَ والتجافىَ من المشارقة ، إنما حدثا نتيجة لعواملَ اصطنعت فى الأمة العربية اصطناعاً لتلفتها عمَّا وجدت عليها آباءَها من التواصل والتقارب ، يرى الشباب أن مردَّ ذلك إلى نغمةٍ نشاز من مقام التفوّق الثقافى الذى يُحسُّ به المشارقة نحو المغاربة .

وكنت امرءاً مُولَعا بحبِّ المغاربة ــ وبخاصة أهلُ المغرب الأقصى ، الذى زرته مرتين عضواً فى بعثة معهد المخطوطات ــ وقد كتبت كثيراً [١] عن فضل المغاربة على المخطوطات العربية ؛ حراسةً وصيانة ، ولا أملُّ من ذكر ذلك والكشف عنه ، إن شاء الله ، ثم فضلهم القديم فى شرح آثار المشارقة ، كالذى تراه من شروح سيبويه ، وجُمل الزّجّاجى ، وإيضاح الفارسى ، وشرح أمثال أبى عبيد القاسم بن سلام ــ المسمَّى فصل المقال ــ لأبى عبيد البكرى الأندلسى ، وكذلك شرحه لأمالى أبى على القالى

---

(١) من ذلك مقالة بعنوان : « التراث العربى فى المغرب وقضية التواصل بين المشرق والمغرب » مجلة الثقافة المصرية (ديسمبر ١٩٧٥ ــ يناير ١٩٧٦ م) . وقد أعاد المغاربة نشر هذه المقالة بمجلة دعوة الحق التى تصدر بالرباط . ثم انظر مقدمة تحقيق كتاب منال الطالب فى شرح طوال الغرائب ، لابن الأثير ، الذى احتفظت الخزانة العامة بالرباط ، بنسخته الوحيدة .

البغدادى ، وشرح ابن السِّيد البطليوسى ، لأدب الكاتب لابن قتيبة ، المسمى الاقتضاب ، وشرح أبى العباس الشَّريشى ، على مقامات الحريرى ، وهو أجلُّ شروحها . وشرح سيرة ابن هشام ، المسمَّى الروض الأُنف ، للسُّهَيْلى .

ثم احتفالهم بعلم قراءات القرآن الكريم ، فإن عنايتهم به قديمة ، وتصانيفهم فيه مبسوطة ، « وهو الميدان الوحيد الذى سيطر عليه المغاربة سيطرة تامة » ، كما يقول بحق الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى (١) .

والذى يعنينا هنا ، تاريخ نشر التراث العربى فى المغرب . وظاهرٌ أن المراد بالمغرب : ليبيا وتونس والجزائر ، والمغرب الأقصى .

أما ليبيا ــ ونحن نكتب للتاريخ ــ فليس لها جهودٌ بارزة فى نشر التراث ، إلاَّ ما تراه من نشرها لكتاب تاج العروس ، للمرتضى الزَّبيدى ، مصوراً عن نشرة المطبعة الخيرية بمصر ، ذات العشرة الأجزاء ، سنة ١٣٠٦ هـ . وقد صدرت هذه الطبعة المصورة عام ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦ م ، على مطابع دار صادر بيروت ، لحساب دار ليبيا للنشر والتوزيع بنغازى ، كما سبق .

ثم كان تعضيدٌ من الجامعات الليبيّة ، لنشر أعمال أعضاء هيئة التدريس بها ، مثل كتاب نتائج الفكر للسهيلى ، بتحقيق الأخ الدكتور محمد إبراهيم البنا ، وشرح الرضى على الكافية ، بتحقيق العالِم الفاضل الشيخ يوسف عمر ، رحمه الله ، وكتاب حجة القراءات ، لابن زنجلة ، وكتاب الإفصاح فى شرح أبيات مشكلة الإعراب ، لأبى نصر الفارقى ، والكتابان بتحقيق العالم السوريّ الكبير الأستاذ سعيد الأفغانى .

ومن وراء ذلك فقد كان علماء ليبيا وأدباؤها ينشرون إنتاجهم بمطابع

---

(١) مجلة معهد المخطوطات العربية . المجلد الأول ص ١١٨ . مقالة بعنوان : كتب برامج العلماء فى الأندلس .

مصر ، ومنهم الشيخ الطاهر أحمد الزاوى ، الذى كان يعمل مصححاً بوزارة الأوقاف المصرية ، وحين أحيل إلى التقاعد ، عمل مصحّحاً بمطبعة عيسى البابى الحلبى ، وقد نشر بهذه المطبعة كتاب الكشكول ، لبهاء الدين العاملى ، ونشر فى غيرها : ترتيب القاموس المحيط [١] ، وجهاد الأبطال فى طرابلس الغرب ، وتاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، وأعلام ليبيا .

أما الجزائر ، فقد عُرفت فيها الطباعة العربية فى وقت مبكِّر . وممّا نُشر فيها قديما : كتاب بغية الرُّوَّاد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، ليحيى بن محمد بن خلدون ، عام ١٣٢١ هـ = ١٩٠٣ م . وكتاب نزهة الأنظار فى فضل علم التاريخ والأخبار ، ويُعرف بالرحلة الورثيلانية ، للحسين بن محمد السعيد الورثيلانى ، عام ١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م . وعنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ، للغبرينى عام ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م ، والذخيرة السنيّة فى تاريخ الدولة المرينية ، لمؤلف مجهول ، عام ١٣٣٩ هـ .

وفى معهد المباحث الشرقية ، التابع لكلية الآداب بالجزائر ، خرجت نصوص تراثية ، منها : ديوان كثيّر عزة ، الذى نشره المستشرق الفرنسى هنرى بيريس فى جزءين عام ١٩٢٨ ــ ١٩٣٠ م ، بمطبعة جول كربونل بالجزائر . وأخبار النحويين البصريين ، للسيرافى ، الذى نشره المستشرق كرنكو عام ١٩٣٥ م ، ثم كان لغير هذين المستشرقين نشاط ملحوظ فى نشر النصوص بالجزائر.

---

(١) رتبه على الحرف الأول والثانى والثالث على طريقة أساس البلاغة ، والمصباح المنير . ولم يكتب لهذا العمل القبول والذيوع . وقد عمدت دار المعارف بمصر أخيراً إلى لسان العرب ، فأخرجته على هذه الصورة . وكلّ ذلك مما لا خير فيه ، ولا فائدة منه . والأولى أن ندرّب أبناءنا على التعامل مع المعاجم العربية فى مختلف مدارسها وأنماطها .

وقد كان لوجود العالم الجزائرى الكبير محمد بن أبى شنب فى كلية الآداب بالجزائر ، أثر ظاهر فى دفع حركة النشر خطوات واسعة ، وسأعيد عنه كلاماً فى حديثى عن الاستشراق ، إن شاء الله . ومما نشره ابن أبى شنب كتاب الجُمل ، للزجاجى عام ١٩٢٦ م .

أما العلاّمة الكبير الشيخ طاهر الجزائرى المتوفى سنة ١٣٣٨ هـ = ١٩٢٠ م ، فهو جزائرىّ الأصل فقط ، وكان مولده ووفاته وأعماله العلمية بدمشق (١) .

وفى تونس ظهرت الطباعة العربية مبكِّرةً أيضا . وممَّا نشر فيها قديما : الحُلَل السُّندسية فى الأخبار التونسية ، لمحمد بن محمد الوزير ، والمطبوع منه قطعة من الجزء الأول سنة ١٢٨٧ هـ ، ولا تزال بقيته مخطوطة (٢) . وتاريخ الدولتين الموحَّدية والحفصيّة ، لمحمد بن إبراهيم اللؤلؤى المعروف بالزركشى (٣) ، عام ١٢٨٩ هـ . ورقم الحلل فى نظم الدول ، للسان الدين بن الخطيب ، عام ١٣١٧ هـ . وغير ذلك كثير .

وقد كان لإشراق تونس بالعلماء الكبار ، أمثال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، والأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ، أثر كبير فى إذكاء حركة نشر التراث ، ليس فى تونس وحدها ، وإنما فى مختلف البلدان .

وفى السنوات الأخيرة قامت فى تونس دارُ نشرٍ كبيرة ، هى الدار

---

(١) أقول هذا للناشئة والمبتدئين ، حتى لا تختلط عليهم الأمور ، أماّ أهل العلم فهم أعرف منى بتاريخ الرجال .

(٢) الأعلام ٦٦/٧ ، وقد أعاد تحقيقه ونشره الأستاذ محمد الحبيب الهيلة . تونس ١٩٧٠ م

(٣) هو غير بدر الدين الزركشى صاحب « البرهان فى علوم القرآن » و « البحر المحيط » فى أصول الفقه . وقد رأيت بعض طلبة العلم يخلط بينهما .

التونسية للنشر ، وقد عُنيت هذه الدار بنشر كثير من عيون التراث ، وبخاصة فى تاريخ المغرب وعلومِه وآدابه . ولا داعى للتطويل بذكر منشورات هذه الدار ، فهى معروفة متداولة .

وهناك دار أخرى ، شركة بين تونس وليبيا ، هى الدار العربية للكتاب ، وقد باشرت طبع شئ من كتب التراث ، منها كتاب الغُنْية ، وهو فهرست شيوخ القاضى عياض .

ولن أدع هذه النبذةَ عن نشر التراث فى تونس ، حتى أشير إلى نشاط ملحوظ لناشرٍ تونسى فاضل ، هو الصديق العالم الأديب الأستاذ الحبيب اللَّمْسى ، الذى أنشأ دار الغرب الإسلامى ببيروت ، وبدأ يخرج من خلالها نُصوصاً تراثية يختارها بعناية . ومما أخرجه : موطأ الإمام مالك بن أنس (قطعة منه برواية ابن زياد) ، ومشيخة ابن الجوزى . وفهرس ابن عطية . والأربعون حديثا ، لصدر الدين البكرى — وهذا طبع على نفقة الشئون الدينية بدولة قطر — وبرنامج الوادى آشى . وطبعته تفضل طبعة مركز البحث العلمى بجامعة أم القرى . ومن آخر ما أصدره : ديوان تأبّط شرًّا . جمع وتحقيق وشرح الصديق الأستاذ على ذو الفقار شاكر ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م .

ومن أضخم أعماله ، نشرُ كتاب المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ، لأحمد بن يحيى الونشريسى (ثلاثة عشر جزءا) مع تخصيص جزء منها للفهارس . وقد صدر هذا الكتاب الموسوعى بالتعاون مع وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمملكة المغربية . وكانت طبعته الأولى بالمطبعة الحجرية بفاس عام ١٣١٤ هـ = ١٨٩٧ م .

وهذا الصديق الكريم الأستاذ الحبيب اللَّمْسى ، دائبُ الحركة ، كثير التَّجوال ، تراه اليومَ فى بيروت ، وغدا فى المملكة العربية السعوية وقطر ، وبعد غدٍ

فى القاهرة وتونس والمغرب ، ثم ما شئت من البلدان العربية الأخرى ، يجالس العلماء ويستفتيهم فيما ينبغى نشره :

يومٌ بحُزْوَى ويومٌ بالعَقِيق ويومٌ بالعُذَيْب ويومٌ بالخُلَيْصاء .

أنجح الله مسعاه ، وسدَّد على طريق الخير خطاه .

ونأتى إلى المغرب الأقصى . وهو المراد بالمغرب عند الإطلاق فى عصرنا الحديث ، وحينما أُطلِق كلمة « المغاربة » فإنما أعنى أهل المغرب الأقصى هذا .

كانت بداية الطباعة العربية فى المغرب ، فى المطبعة الحجرية بفاس ، التى بدأت نشاطها منذ نحو مائة عام ، فأخرجت قدراً كبيرا من كتب التراث المغربى والأندلسى . ومن أوائل ما نشر فى هذه المطبعة : الأنيس المطرب القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاج مدينة فاس ، لابن أبى زَرْع ، عام ١٣٠٥ هـ ، وجذوة الاقتباس فيمن حلَّ من الأعلام مدينة فاس ، لابن القاضى عام ١٣٠٩ هـ . ودوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشاهير القرن العاشر ، للحسنى ، عام ١٣٠٩ هـ . والمعيار المعرب ، للونشريسى ، عام ١٣١٤ هـ ، وقد تقدم قريبا . ونشر المثانى لأهل القرن الحادى عشر والثانى ، للقادرى ، عام ١٣١٥ هـ . ومحادثة الأكياس فيمن أُقبر من العلماء والصلحاء بفاس ، لمحمد بن جعفر الكتانى عام ١٣١٦ هـ . والروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون ، لابن غازى . عام ١٣٣١ هـ . وغير ذلك كثير ، مما تراه فى كتاب دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، لعبد السلام بن عبد القادر بن سودة ، رحمه الله ، وهذا الرجل كان من فضلاء الناس ، وكان يعين كل من يسأله أو يستفتيه ، وقد زرته فى بيته بفاس القديمة عام ١٣٩٥ هـ ، ورأيت من أريحيته وانبساطه إلى زائره الشيءَ الكثير .

وقد ذكر العلاَّمة محمد المُنونى ــ أطال الله فى النعمة بقاءه ــ قصَّةَ دخول المطبعة الحجرية [(١)] بلاد المغرب ، فقال : « وصلت المطبعة الحجرية للمغرب فى شعبان سنة ١٢٨١ هـ = ١٨٦٤ ــ ١٨٦٥ م ، وكان دخولها يتّسم بشكل فردى ، حيث جاء على يد قاضى تارودانت محمد الطيب بن محمد السُّوسِي التملى الروداني ، الذى اشتراها من الشرق لمّا حجّ ، ثم أتى بها للمغرب ، ومعه طبِّيع مصرى ليشتغل بها » [(٢)] . وقد أورد الأستاذ المُنونى صورة العقد المبرم بين القاضى الروداني والطابع المصرى . ونحن نورد نصَّ ذلك العقد ، لطرافته ، وهو :

« إنه لما كان فى يوم الأربعاء المبارك ١٤ يوم خلت من شهر ربيع الأول سنة ١٢٨١ : اتفق حضرة العمدة الفاضل السيد الطيب الروداني ، ابن

---

(١) الطباعة الحجرية (ليتوجراف) : نوع من الطباعة ، اخترعها بألمانيا بمدينة ميونيخ الويز سنيفلدر ، عام ١٧٩٦ م . وهذا النوع من الطباعة يتطلب لوحات حجرية خاصة من الحجر الجيرى ، للكتابة عليها . وتبدأ العلمية بأن يكتب الناسخ ما يريد طبعه بحبر خاص ، وعلى ورق خاص يضغط عليه ، بعد كتابته ، بين ورقتين نشاشتين مبتلتين ، ويكتب الناسخ على الورقة كتابة مستقيمة غير مقلوبة ، وبعد هذا توضع اللوحة الحجرية التى يراد نقل الكتابة إليها فى مكبس بعد أن يحمى ، ثم تبسط الورقة على اللوحة بطريقة عكسية ، بحيث يقع وجهها المكتوب على وجه اللوحة ، وبضغطان مراراً كثيرة ، حتى تلتصق الورقة باللوحة ، ثم يستمر الضغط مرات كثيرة حتى تثبت الكتابة على اللوحة ، وبعد ذلك تنزع الورقة ، ثم يصب على اللوحة قليل من الصمغ ، وتبلّ خرقة بقليل من حبر الطباعة ويمسح بها ، فيلصق الحبر حيث كانت الكتابة ، وحينما تبرد جيدا يُصبّ عليها مزيج يسير من الحامض وذائب الصمغ مرة أو أكثر ، حتى إذا تنشفت توضع فى المطبعة ، وتبلّل بالماء ثم بالحبر ، ثم يطبع الورق عليها حسب العدد المطلوب ، ويعاد تبليلها بالماء وتحبيرها قبل طبع كل ورقة . الموسوعة العربية الميسرة ص ١١٥٢ ، وانظر المرجع الآتى .

(٢) مظاهر يقظة المغرب الحديث ١/٢٠٥ ــ مطبعة الأمنية بالرباط ١٣٩٢ هـ=١٩٧٣ م

المرحوم السيد محمد الروداني ، من أهالي مدينة روдан « مغرب » مع الفقير إلى الله تعالى كاتب الأحرف : الفقير محمد القياني المطبعي ، ابن المرحوم إبراهيم ، من أهالي مصر المحروسة ، على أنه يتوجّه برفقته إلى مدينة رودان بأرض المغرب ، ويشتغل عنده على مطبعة حجرلوعدّة سنة كاملة ، ابتداها « كذا » شهر ربيع الأول سنة ١٢٨١ ، وانتهاها « كذا » شهر الخير « كذا » سنة ١٢٨٢ ، وله في نظير ذلك راحته ممّا جميعُه [١] « كذا » من أكل وشرب وكسوة على طبق مراده ، وفي كل شهر يعطى له مائتان غرش مصروف لجيبه ، وقد رضي الفقير محمد القياني بذلك ، ومن بعد وفاء السنة المذكورة إذا أراد الفقير محمد القياني بأن يرجع إلى بلده مصر المحروسة بأن يرحّله العمدة السيّد الطيّب إلى حدّ بلده على طرفه ، وقد رضي السيد المذكور بذلك » [٢]

وكان بدء عمل هذه المطبعة الأولى في تاريخ الطباعة المغربية بمدينة مكناس ، وكان أول كتاب يطبع بها « الشمائل المحمدية » للإمام أبي عيسى الترمذي ، في ٤ صفر سنة ١٢٨٢ هـ ، ثم كان الكتاب الثاني : شرح المقدمة الأجرومية ، للشيخ خالد الأزهري ، وتم طبعه في ١٨ جمادى الثانية ، سنة ١٢٨٣ هـ بمدينة فاس ، بعد أن انتقلت المطبعة إليها . وقد توقفت هذه المطبعة بعد رحيل الطابع المصري ، وعودته إلى بلاده ، سنة ١٢٨٨ هـ ، لكنها عادت إلى نشاطها على يد أحد المغاربة الذين تدّربوا على يد هذا المصري . وجاء في رسالة الحسين بن محمد الدباغ ، إلى الوزير موسى بن أحمد ، بشأن قيام الطيب الأزرق بالمطبعة بعد سفر الطبيّع المصري ، وهي رسالة مؤرخة في ٢١ شوال عام ١٢٩١ هـ :

---

(١) لا يزال هذا التعبير مستعملا في العامية المصرية ، إلى يومنا هذا . ويعني : راحته من جميع الوجوه .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٨٤

« فليكن فى كريم علمكم أن المطبعة الشريفة ، التى كان سيدنا المقدَّس بالله أحدثها فى هذه البلاد المباركة ــ جعلها الله فى ميزان حسناته ــ لمّا بقيت مهملةً بتوجّه المصرى الذى كان قيّماً عليها لحال سبيله ، ورَدَ طلبة العلم الشريف علَى حامله المعلم الطيّب الأزرق ، الذى كان تخرّج فى معرفة كيفية الطبع على يد المصرى ، وطلبوا منه القيام فيه مقامه ، فلم يجد بداً من مساعدتهم ... » إلى آخر الرسالة (١) .

وقد تعددت المطابع الحجريّة بعد ذلك فى مدينة فاس ، وترى أسماءَها وأسماءَ مطبوعاتها فى كتاب الأستاذ المنونى المذكور .

ومع شيوع هذه المطابع الحجرية فى المغرب ، وقيامها بنشر الكتب وإذاعتها ،رأينا السلطان محمد الرابع يحاول تطوير الطباعة المغربيّة ، وتأسيس مطبعة عصرية بالحروف ، إلى جانب المطبعة الحجرية ، وقد أرسل لذلك أحد الطلاب المغاربة إلى مصر ، ليتدرب على الطباعة العصرية . وهناك رسالة من إسماعيل باشا خديوى مصر ، إلى محمد الرابع سلطان المغرب ، تتضمن الترحيب بذلك المغربىّ الموفَد ، وتاريخ هذه الرسالة ، شوال سنة ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٧ م وهذا نصّ الرسالة :

« ... هذا وقد سررت بورود مشرّفكم الكريم ، المتضمن لزوم المطبعة لذلك الجناب الفخيم ، وما يحتاجه المخصوص الوارد بشأنها من مزيد التمرين والتفهيم ، وذلك لما فيها من الإعانة على طلب العلم الشريف وتعليمه ، وتسهيل السبيل فى نشره بين البرايا وتعميمه ، وصيانة كتبه الشريفة من تحريف الكاتبين ، وتقريب تناولها إلى أيدى الطالبين والراغبين ، وهذا دليل ظاهر ، وبرهان باهر ، على مزيد عنايتكم فيما فيه المصلحة العامة ، ورعايتكم لما يعود على الناس بالفائدة التامة ، واهتمامكم بأمر العلم الكريم

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٣٧

وأهله ، وقيامكم بما يجب من حقّ فضله ، فمتّع الله ببقائكم الملك والعليا ، ونفع بوجودكم وسعودكم الدين والدنيا . وقد أرسلنا المُومَى إليه إلى دار الطباعة ، وأكّدنا على مأمورها بإراءته كلَّ ما يلزم لهذه الصناعة ، والاعتناء بتمرينه على استعمال أدواتها ، وتوقيفه على كيفية إدارة آلاتها ، وسائر كيفياتها » (١) .

وقد تعددت المطابع العصرية بعد ذلك ، فى فاس ، والرباط ، والدار البيضاء ، وتطوان ، وطنجة ، وغيرها من بلدان المغرب ، وقد خرج من هذه المطابع قدر كبير من التراث العربى المغربى فى مختلف العلوم والفنون .

ومع شيوع المطابع فى المغرب ، فقد رأينا كثيراً من العلماء والناشرين المغاربة يتجهون إلى مطابع مصر ، لنشر عيون التراث ، مشاركةً مع دور النشر فى مصر ، أو استقلالا ، فطبعوا أشياء فى المطبعة الأميرية (مطبعة بولاق) ، والمطبعة البهيَّة ، وغيرها من المطابع الخاصة (٢) . ومن أبرز الآثار المغربية التى طبعت فى مصر ، فى تلك الأيام كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، لأبى العباس أحمد بن خالد الناصرى السَّلاوى . وقد طبع هذا الكتاب العظيم بالمطبعة البهيَّة المصرية ، سنة ١٣١٢ هـ = ١٨٩٤ م .

ومن الناشرين المغاربة النابهين بمصر : محمد ساسى المغربى ، وكان تاجراً بالفحَّامين بالقرب من الأزهر ، وقد تولى الإنفاق على طبع موسوعات

(١) المرجع نفسه ص ٤٥ ، ٢١٢ ، وقد أفاد الأستاذ المنونى فى حاشية ص ٤٤ أن هذه الرسالة الخديوية من إنشاء الكاتب المصرى الشهير عبد الله فكرى باشا ، ناظر المعارف المصرية إذ ذاك ، وأنها قد وردت فى الآثار الفكرية ص ٥٤ ــ ٥٦

(٢) المرجع نفسه ص ٢٤٨ ــ ٢٥٠

هامة ، منها كتاب الأغانى ، لأبى الفرج الأصبهانى ، الذى أظهره مذيَّلا بالفهارس ، ومكمَّلاً بالجزء الحادى والعشرين ، ولا تزال طبعته هى الطبعةَ الأكثر تداولاً (١) .

وقد قدّمت لك فى حديثى عن مطبعة الجمالية ، ومطبعة السعادة بمصر ، ذِكْرَ الكتب التى كانت تنشر على نفقة مولاى عبد الحفيظ ، سلطان المغرب الأقصى ، بعناية وكيله الحاج محمد بن العباس بن شقرون ، وولده الحاج عبد السلام بن شقرون .

ثم كان تعاون علمىّ بين المعهد الخليفى (٢) بتطوان ، الذى أسسه مولاى الحسن بن المهدى العلوى ، خليفة جلالة ملك المغرب ، وبين لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر . وكان باكورة هذا التعاون العلمى نشرُ ثلاثة أجزاء من كتاب أزهار الرياض فى أخبار عياض ، لأبى العباس المقّرى ، صاحب نفح الطيب ، عام ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م . ومن مطبوعات هذا المعهد أيضا بمصر : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، لأبى عبيد البكرى (أربعة أجزاء) عام ١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥ م ، إلى جانب مترجمات كثيرة ، منها : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحِّدين ، للمؤرخ الألمانى يوسف أشباخ ، وترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان (جزءان) . والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، لآدم متز ، ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة (جزءان) . والنهضة الأوربية ، تأليف سدنى دارك ، وترجمة الأستاذ محمد بدران .

---

(١) التراث العربى ص ٦٠

(٢) ويسمى أيضا : معهد مولاى الحسن بتطوان ، وكان يمثله فى مصر : بيت المغرب .

وقد وقف خلف نشر التراث فى المغرب ، علماء مغاربة فحول ، تواصلت أجيالُهم العلمية ، من أمثال عبد الحىّ الكتانى ، صاحب « فهرس الفهارس » ، و « التراتيب الإدارية » ، وأبى العباس الناصرى السّلاوى ، المتقدم قريبا ، ومحمد المنونى [١] ــ هذا العالم الجليل ، الذى جمع الفضائلَ والمفاخرَ كلَّها ، وهو بقية السَّلَف الصالح إن شاء الله ــ ومحمد العابد الفاسى ، وكان من أعلم الناس بنوادر خزانة القرويين بمدينة فاس ، رحمه الله ، ومحمد إبراهيم الكتانى ، أمين المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط ، ومحمد سعيد أعراب ، ومحمد داود ، وعبد الله كنون ، وعبد الله الجرارى ، ومحمد بن تاويت الطنجى [٢] ، وعبد الهادى التازى ، وعبد العزيز بن عبد الله ، وعبد الوهاب بن منصور ، ومحمد الفاسى ، ثم جيل الشباب ، من أمثال الأصدقاء الأوِدّاء : محمد بن شريفة ــ وكان المرحوم الأستاذ رشاد عبد المطلب يسميه : المنونى الصغير ــ وعباس الجرارى ، وعبد السلام الهَرَّاس ، وحسن الوراجلى ، والشاهد البوشيخى ، وإسماعيل الخطيب .

ولا زال هؤلاء المغاربة ، من ذكرت ومن لم أذكر ، يواصلون جهودهم فى نشر التراث وإذاعته ، بإعادة تحقيق ما طبع عندهم قديما ، فى مطبعة

---

(١) سعدت بمعرفته أيام زيارتى للمغرب ، وهو صاحب دراسات عميقة فى التاريخ المغربى ، والحضارة المغربية ، وبيته مفتوح ، ونصحه مبذول لكل طالب علم . ومن مآثره العظيمة أنه أباح مكتبته الخاصة لبعثة معهد المخطوطات عام ١٣٩٢ هـ تصوِّر منها ما تشاء ، وهو ما لا يفعله كثير من أصحاب المكتبات الخاصة . أطال الله حياته ، ومتعه بالسلامه والعافيه .

(٢) قدمت فى حديثى عن معهد المخطوطات أن هناك اثنين من العلماء المغاربة المعاصرين ، كل منهما يسمى : محمد بن تاويت . وأنا أريدهما معاً هنا .

فاس الحجرية ، أو بنشر ما لم ينشر من المخطوطات النفيسة ، التى تمتلئ بها خزائنهم العامة والخاصة .

وفى السنوات الأخيرة نشطت وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب ، إلى نشر طائفة صالحة من كتب التراث ، منها : التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد ، لابن عبد البر ، وترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، للقاضى عياض . والكتابان لم يكملا ، فصدر من التمهيد عشرة أجزاء ، ومن ترتيب المدارك ثمانية أجزاء . وهذه الطبعة من ترتيب المدارك ، تفضل كثيرا طبعة بيروت . وقد أصدرت الوزارة أيضا أجزاء من تفسير ابن عطية المسمى : المحَرَّر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز . وكان قد طبع من هذا الكتاب جزءٌ فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ، وقد نظرت فى هذا الجزء ، ونظيره من الطبعة المغربية ، فوجدت هذه أدقَّ وأصَحَّ .

ومما صدر عن وزارة الأوقاف المغربية أيضا كتاب بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد ، للقاضى عياض ، والمهذب فيما وقع فى القرآن من المعرب ، لجلال الدين السيوطى ، وأربعون حديثا فى اصطناع المعروف ، للحافظ المنذرى ، وشرح ابن مخلوف الثعالبى الجزائرى . ومختصر العين ، لأبى بكر الزُّبيدى (صدر منه جزء واحد) . والإعلام بحدود قواعد الإسلام ، للقاضى عياض . وبعض هذه المطبوعات يصدر بالتعاون مع دولة الإمارات العربية المتحدة (أبو ظبى) .

وهناك بعض المطبوعات التراثية ، تصدر عن المطبعة الملكية ، بإشراف مؤرخ المملكة المغربية ، الأستاذ عبد الوهاب بن منصور ، وكان هذا قد أنشأ دار نشر ، سماها : دار المنصور ، نشر فيها عددا من كتب التراث المغربى ، منه ما هو إعادة لما طبع فى المغرب قديما ، ومنه ما يطبع لأول

مرة . وتدور معظم النصوص التى نشرها الأستاذ عبد الوهاب بن منصور ، سواء فى المطبعة الملكية أم فى دار المنصور ، حول التاريخ المغربى ، وكأنه أراد أن يدفع عن المغاربة تهمة إهمال علم التاريخ ، وقلة العناية به ، وقد صرّح هو نفسه بذلك فى تصديره لكتاب روضة الآس [(١)] .

ونقف أمام ملاحظة عامة حولَ حركة نشر التراث العربى فى المغرب الكبير (تونس والجزائر والمغرب) ، وهى أن ما نشر هناك قديماً وحديثاً يدور فى فلك التراث المغربى : تاريخه وعلومه وآدابه ، ومذهبه الفقهى ـــ وهو المذهب المالكى ـــ ونعم كانت لهم جهود فى نشر التراث العربى المشرق ، ولكنها جهود قليلة إذا قايسْتها بما نشروه من التراث المغربى .

وهذه الملاحظة تعود بنا إلى التذكير بجهود مطبعة بولاق ، وغيرها من المطابع الأهلية بمصر ، التى كان للتراث المغربىّ فيها حظٌّ وافر ، ونصيب مفروض ، وهذا شئ معروف ، لا داعىَ للتكثُّر بذكر شواهده ؛ إذ كان القائمون على النشر بمصر ، فى تلك الأيام ، ينظرون إلى التراث العربىّ نظرةً كليّة ، فلم يكونوا يتحمَّسون لنشر كتابٍ مّا ؛ لأنه يوافق البلد الفلانى ، أو المذهب الفلانى .

ومهما يكن من أمر ، فقد أحسن المغاربة كلَّ الإحسان ، حين توفَّروا على تراثهم ، ونشطوا لإذاعته ونشره ، وقد قوى هذا الاتجاه فى السنوات الأخيرة ، فإن أحبابنا المغاربة المعاصرين قد نظروا إلى ما صنعه إخوانُهم المشارقة فى الدراسات والنصوص المغربيّة ، فإذا هم قد خلطوا عملاً

---

(١) روضة الآس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين ، مراكش وفاس ، لأبى العباس المقرى . المطبعة الملكية بالرباط ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٤ م

صالحاً وآخر سيّئا (١) ، وكان إخوانى المغاربة يطلعوننى على بعض أوهام الدارسين المشارقة ، فى أثناء إقامتى بالمغرب ، وكان يذكرون ذلك فى نبرة متواضعة ، وفى أدبٍ جمّ . ولو لم يكن من تلك الأوهام إلاّ الخطأ فى قراءة الخط المغربى (٢) ، والجهالة برسومه وقواعده ، لكان فى ذلك ما يدعو المغاربةَ إلى أن ينهضوا بعبء إذاعة تراثهم العربىّ المغربىّ ، وأهل مكة أدرى بشِعابها .

* * *

---

(١) ولا يكادون يستثنون من ذلك إلاّ تلك الدراسات التى قام بها الأستاذ العلاَّمة الدكتور عبد العزيز الأهوانى رحمه الله ، والباحث العالم الأستاذ الدكتور محمود على مكىّ ، أطال الله فى عمره ، ومن إليهما من الدارسين المشارقة النابهين ، و المستشرقين المتقدمين .

(٢) معلوم أن الخط المغربىّ مبنىٌّ على أصول الخطّ الكوفى القديم . يقول العلاَّمة محمد المنونى : حافَظَ المغاربة فى رسم المصحف الشريف على الطريقة الأولى لكتابته .

ثم يقول : ومن عالم القيروان ننتقل إلى طابع الأصالة المغربية فى الكتابة ، فقد كان الخط المشتهر فى صدر الإسلام هو الكوفىّ ، ثم تطوّر بالمشرق حتى انتهى إلى إصلاح ابن مُقْلة ، فصار الخط المشرقى إلى الأوضاع المتعارفة ، التى ابتعدت عن الكوفى ، غير أن المغرب لم يأخذ بذلك الإصلاح ، وتطورت الكتابة به فى إطار المحافظة على أصول الخط الكوفى بالقيروان والأندلس . أما ترتيب الحروف الهجائية ، فيمكن أن الترتيب المشرقى عُرف من زمن بنى أمية ، بينما يذكر المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب عن ترتيب هذه الحروف ونقطها ما يلى : « وجدير بالذكر أن أفريقية — ومن ورائها المغرب بأسره — حافظت من ذلك الوقت (العصر الإسلامى الأول) على أشكال الحروف العربية ، فى نقطها وترتيبها الأبجدىّ ، مثلما وضعت — أولا — بالعراق ، فالفاء تنقط بنقطة أسفل الحرف ، وأختها القاف بواحدة فوق الحرف ، ثم يظهر آخر القرن الثالث للهجرة تغيير نقطها فى المشرق بنقط الفاء واحدة من فوق ، والقاف باثنتين ، ويستمرّ المغرب على استعمال الطريقة القديمة إلى يوم الناس هذا .

أما ترتيب الحروف فإنه كان وما زال فى إفريقية على ما جرت به القاعدة فى الممالك الشرقية قبل القرن الثالث للهجرة » . انظر الطابع الخاص للحضارة المغربية فى العصر الوسيط . فصلة غير مؤرخة من العدد الثالث والرابع من مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط .

دائرة المعارف العثمانية
بحيدر آباد الدكن ـــ الهند

وهذه قلعة كبرى من قِلاع نشر التراث العربيّ . تأسَّست عام ١٨٨٨ م [١] ، بفضل ريع وُقِف عليها ، ومِنحٍ من الحكومة الهندية . ولمّا أنشئت الجامعة العثمانية بحيدر آباد ، عام ١٩١٨ م ضمَّت إليها الدائرة .

وقد جمعت دائرة المعارف عدداً وفيراً من المخطوطات النادرة ، والأفلام المصغرة منها (الميكروفلم) من مكتبات أوربا وروسيا وإيران وتركيا ومصر ، وسائر البلدان العربية ، بالإضافة إلى ما تضمه مكتبات الهند نفسها ، ثم أخذت فى نشرها وإذاعتها . وقد بلغ ما نشرته الدائرة ، خلال سبعين سنة من إنشائها ١٧٠ كتابا ، فى ٣٧٠ مجلدا .

وقد أتت مطبوعات الدائرة على كلِّ فنون التراث ، وجاء فى قائمة مطبوعاتها المنشورة عام ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م ، أسماءُ هذه الفنون ، وهى :

التفسير ـــ أصول الحديث ـــ الحديث ـــ الرجال والأسانيد ـــ السِّيَر والمناقب والتراجم ـــ الفقه ـــ الكلام والعقائد ـــ التصوف

---

(١) ينبغى أن يكون معروفاً أن الطباعة العربية قد عرفت بالهند قبل ذلك التاريخ ، وأن هناك نصوصاً تراثية مطبوعة عندهم قديما ، منها على سبيل المثال : حماسة أبى تمام ، الذى طبع بكلكته عام ١٨٥٦ م ، ومغازى الواقدى ، قبل ذلك بعام . وكشاف اصطلاحات الفنون ، للتهانوى ١٨٦٢ م . وتلقيح فهوم أهل الأثر فى عيون التاريخ والسير ، لابن الجوزى . دهلى ١٢٨٦ هـ . وأبجد العلوم ، لصديق حسن خان القنوجى . بهوبال ١٢٩٥ هـ . وديوان مسلم بن الوليد (صريع الغوانى) بمبى ١٣٠٣ هـ = ١٨٨٥ م بعد عشر سنوات من صدوره فى ليدن ، على يد المستشرق دى خويه ، كما سيأتى . والرفع والتكميل فى الجرح والتعديل ، لمحمد عبد الحىّ اللكنوى ١٣٠٩ هـ . والرجال للنجاشى . بمبى ١٣١٧ هـ

ومتعلّقاته ــ التاريخ وجامع العلوم (١) ــ الأدب وما يتعلق به ــ اللغة والنحو والمعانى ــ الفلسفة وما بعد الطبيعيات ــ الرياضيات والهيئة ــ الأنساب ــ العلوم المختلفة من علم المناظر والزمان والمكان ، والمياه الخفية ، ومعرفة الجواهر ، وكيفية الوزن والتعليم وغيره ــ الطب .

وبعض منشورات الدائرة من الموسوعات الضخمة ، مثل الحاوى فى الطب ، لأبى بكر الرازى (٢٣ جزءا) ، وكنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال ، للمتقى الهندى (٢٢ جزءا) . ونظم الدرر فى تناسب الآيات والسُّور ، للبقاعى (٢٠ جزءا) ، وتهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلانى (١٢ جزءا) والأنساب ، لأبى سعد السمعانى (١٢ جزءا) ، . والسُّنن الكبرى ، للبيهقى (١٠ أجزاء) . والثقات ، لابن حِبّان (٩ أجزاء) . والجرح والتعديل ، لابن أبى حاتم الرازى (٩ أجزاء) . وإنباء الغُمر بأنباء العُمر ، لابن حجر العسقلانى (٩ أجزاء) . والتاريخ الكبير ، للبخارى (٨ أجزاء) . والفتوح ، لابن أعثم الكوفى (٨ أجزاء) . ولسان الميزان ، لابن حجر العسقلانى (٦ أجزاء) .

ومن النصوص الأولى فى التأليف العربى ، التى نشرتها الدائرة : التيجان فى ملوك حمير ، لوهب بن منبه ، ومعه ما بقى من أخبار عَبيد بن شَرِيَّة ، وسيأتى حديث عن هذا الكتاب فى الكلام عن المستشرق كرنكو . والفقه الأكبر للإمام الأعظم أبى حنيفة . وكتاب الأصل ، للإمام محمد بن الحسن الشيبانى ، والخيل ، لأبى عبيدة معمر بن المثنى . وغريب الحديث ، لأبى عبيد القاسم بن سلام . والمحبَّر ، لابن حبيب ، والمنمَّق ، له . والمعانى الكبير ، لابن قتيبة . ورسائل ثابت بن قرّة الحرَّانى ، فى الرياضيات . والجمهرة فى اللغة . والمجتنى ، كلاهما لابن دريد . وأمالى اليزيدى .

---

(١) لعل المراد : المعارف العامة .

ويُعدُّ ما نشرته دائرة المعارف العثمانية ؛ من كتب رجال الحديث ، وتراجمهم ، من أوسع وأعظم ما نشرته الدائرة ، وهو ما لم تقم به هيئةٌ أخرى ، فى داخل العالم العربى ، أو خارجه .

وقد تعاون مع الدائرة ، فى نشر بعض مطبوعاتها نفرٌ من المستشرقين ، منهم كرنكو ، وآربرى ، ثم كان للدائرة اتصالات وثيقة بعلماء المخطوطات والتراث فى كل مكان .

وقد نشرت الدائرة بعض مطبوعاتها خارج الهند ، ومن ذلك كتاب معرفة علوم الحديث ، للحاكم النيسابورى ، الذى طبع بدار الكتب المصرية عام ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧ م وإعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، لابن خالويه ، الذى طبع بمطبعة دار الكتب المصرية أيضا عام ١٣٦٠ هـ = ١٩٤١ م . وهو بتحقيق الشيخ عبد الرحمن المعلمى ، والمستشرق كرنكو ، وصحَّحه وزاد فى حواشيه الأستاذ عبد الرحيم محمود ،أحد كبار مصححى دار الكتب المصرية .

والقائمون على تصحيح الكتب فى هذه الدائرة ، يعملون فى إخلاص واحتساب وصمت . ومن أشهرهم وأعلاهم قدراً الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المُعَلِّمى اليمانى (١) . نسبته إلى « بنى المُعَلِّم » من بلاد عُتْمة (بضم العين المهملة وسكون التاء الفوقية) باليمن . وقد وُلد بها سنة ١٣١٣ هـ ، ونشأ بها أيضا ، ثم رحل إلى جيزان سنة ١٣٢٩ هـ ، فى إمارة محمد بن على الإدريسى بعَسير ، وتولّى رئاسة القضاء ، ولقِّب بشيخ الإسلام ، وبعد موت الإدريسى سنة ١٣٤١ هـ سافر إلى الهند ، وعمل فى الدائرة المذكورة

---

(١) هكذا كان يكتب اسمه ونسبته . انظر مقدمة تصحيحه لكتاب الجرح والتعديل ، لابن أبى حاتم (١٢٧١ هـ = ١٩٥٢ م) .

مصحّحاً ما تطبعه من كتب رجال الحديث ، والأنساب والتاريخ ، واستمرّ يعمل فى الدائرة زهاء ربع قرن .

ومن الكتب الموسوعية التى قام على تصحيحها فى الدائرة : الجرح والتعديل ، لابن أبى حاتم الرازى ، والطبعة الثانية من تذكرة الحفاظ ، للذهبى ، وأربع مجلدات من الأنساب ، للسّمعانى ، وأربع مجلدات من الإكمال ، لابن ماكولا ، وقد كشف فى حواشيه على هذه الكتب ، عن علم غزير ، وتحقيق نفيس .

وله ـــ رحمه الله ـــ مؤلفات ، منها كتاب الأنوار الكاشفة ، وهو ردٌّ على كتاب أضواء على السنة ، للشيخ محمود أبو ريّة . وكتاب التنكيل بما فى تأنيب (١) الكوثرى من الأباطيل . وترك رسائل مخطوطة .

وقد ترك حيدرآباد ، ورحل إلى مكة المكرمة ، سنة ١٣٧١ هـ ، فعيِّن بمكتبة الحرم المكى ، وظلّ على صلة بدائرة المعارف العثمانية ، يوالى نشر الأنساب ، والإكمال ، إلى أن توفى عام ١٣٨٦ هـ . قيل : شوهد فى مكتبة الحرم المكى منكبًّا على بعض الكتب ، وقد فارق الحياة . وقيل : بل توفّى على سريره (٢) . ودفن بمكة . رحمه الله رحمة واسعة (٣) .

---

(١) المقصود بالتأنيب : كتاب تأنيب الخطيب ، للشيخ الجليل محمد زاهد الكوثرى ، الذى تعقّب فيه ما ذكره الخطيب البغدادى ، فى ترجمة الإمام أبى حنيفة ، من تاريخ بغداد . واسم الكتاب : تأنيب الخطيب على ما ساقه فى ترجمة أبى حنيفة من الأكاذيب . راجع الأخبار التاريخية فى السيرة الزكية ص ١٣٢ .

(٢) وهذا هو الصحيح ، أخبرنى به أخى الشيخ محمد بن عثمان الكنوى ، رئيس قسم المخطوطات بالمكتبة المركزية ، بجامعة أم القرى . وكان زميلاً للشيخ المعلمى فى مكتبة الحرم المكى . وأخبرنى أن الشيخ المعلمى كان يبيت فى المكتبة . إذ كانت له غرفة خاصة بها .

(٣) الأعلام ٣٤٢/٣ ، وانظر تعريفاً أكثر ، به وبمؤلفاته وتحقيقاته فيما كتبه الشيخ=

وكان الشيخ المعلِّمى ــ فيما وُصف لنا ــ متواضعاً ، رقيق الحال ، حدثنى الأستاذ فؤاد سيّد ، أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية ، رحمه الله قال : كنت فى أثناء الحج أتردد على مكتبة الحرم المكى ، لرؤية المخطوطات ، وزيارة مدير المكتبة المرحوم الشيخ سليمان الصنيع ، وكان بين الحين والآخر يأتى إلينا رجلٌ رقيق الحال ، يسقينا ماءَ زمزم . وبعد يومين طلبت من الشيخ الصنيع رؤية الشيخ عبد الرحمن المعلمى ، فقال : ألم تره بعد ؟ أليس يسقيك كلَّ يوم من ماء زمزم ؟ يقول الأستاذ فؤاد : فتعجبت من تواضعه ورقّة حالِه ، مع ما أعرفه من علمه الواسع الغزير .

* * *

= محمد ناصر الألبانى ، تقدمة لكتاب التنكيل المطبوع فى لاهور بباكستان ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م

جهود المستشرقين فى نشر التراث

مرَّ بك فى صدر هذا البحث أن أيامنا كلَّها ؛ حلوَها ومُرَّها ، لم تكن بعيدةً عن الغرب ، وأن الحضارة الأوربية قد أفادت من حضارتنا العربية إفاداتٍ شتى ؛ ممّا أنتجته هذه الحضارةُ العربية نفسُها ، ومما حملتْه من حضارات الأمم الأخرى .

وقد بدأ اتصال الغرب بالحضارة العربيّة ، اتصالا فعلياً ومؤثّراً منذ بزوغ النهضة الأوربية فى القرن العاشر الميلادى ، أو قبله بقليل ، وظهرت آنذاك طلائع المستشرقين ، وهم طائفة من علماء الغرب ـــ جمهورهم من الرهبان ـــ التفتوا التفاتة جادّة إلى تراث العرب ، وقد عرفوه من عرب الأندلس ، ومصر ، والشام ، وأكبُّوا عليه يفاتشونه ويتدارسونه ، وكان اهتمامهم فى أول الأمر مصروفاً إلى علوم الحكمة والفلسفة ، والجبر والحساب ، والفلك والأسطرلاب ، والطبّ والكيمياء [1] والبصريات . ثم أفضى بهم ذلك إلى فروع التراث العربىّ الأخرى .

ومن أوائل علمائهم فى تلك الحقبة ، راهب فرنسى يدعى جربر دى أورالياك ، المولود عام ٩٣٨ م ، والمتوفى عام ١٠٠٣ م ، وقد قصد الأندلس ، وأخذ على أساتذتها فى مدارس ريبول ، وأشبيلية ، وقرطبة ، حتى أصبح أوسع علماء عصره ، ثقافةً بالعربية ، والرياضيات والفلك ، ولما ارتحل إلى رومة ، سما على أقرانه ، وانتخب حبراً أعظم ، باسم سلفستر الثانى ،

---

(١) وقد تمثل كل أولئك فى مصنفات الخوارزمى ، والبيرونى ، وابن سينا ، والزهراوى ، وابن رشد ، وابن الهيثم ، وأبى بكر الرازى ، والإدريسى ، وعبد اللطيف البغدادى .

فكان أول بابا فرنسى ، وقد أمر بإنشاء مدرستين عربيتين ، الأولى فى رومة مقرّ خلافته ، والثانية فى رايمس ـــ شمال فرنسا ـــ وطنه ، ثم أضيف إليها مدرسة شارتر . وقيل : إنه أول من صنع ساعة رقاصة ، ووصف حروف الغُبار وصفاً علميّا ، وبثّ الأعداد العربية فى أوربا ، التى كان ينقصها رقم الصفر ، وترجم بعض الكتب الرياضية والفلكية ، كالزيج المنصورى ، وله دراسة عن كتاب أقليدس الهندسى بالعربية (١) .

ومنهم أدلرد أوف باث ، المولود عام ١٠٧٠ م ، والمتوفى عام ١١٣٥ م ، وهو راهب أيضا . طلب العلم فى الأندلس ، وصقلية ، ومصر ، ولبنان ، والقدس ، وأنطاكية ، واليونان ، وجمع معارف فى علوم الطبيعة والفلك والرياضيات . وعند عودته إلى انجلترا عيّن معلّما للأمير هنرى ، الذى أصبح فيما بعد الملك هنرى الثانى . واشتهر هذا الراهب باختباره سرعة الضوء والصوت ، وتضلّعه من ثقافة العرب ، الذين آثر مذهبهم فى العلم على مذهب الفرنجة ، فقال فى كتابه المسائل الطبيعية ، وهو محاورة بينه وبين ابن أخيه ، خرّيج جامعات الفرنجة : « إننى ـــ وقائدى هو العقل ـــ قد تعلمت من أساتذتى العرب ، غير الذى تعلمتَه أنت ، فبهرتك مظاهرُ السُّلطة ، بحيث وضعت فى عنقك لجاماً تُقاد به قيادَ الإنسان الحيوانات الضارية ، ولا تدرى لماذا ، ولا إلى أين .... فقد منح الإنسان العقل لكى يفصل بين الحقّ وبين الباطل ... فعلينا بالعقل أولا ، فإذااهتدينا إليه ـــ لا قبل ذلك ـــ بحثنا فى السُّلطة ، فإن سايرت العقل قبلناها وإلا ... » .

وآثار هذا الراهب كثيرة ، منها ترجمات لاتينية وفيرة ، فى الفَلَك

---

(١) المستشرقون ص ١٢٠

والرياضيات ، أشهرها زيج الخوارزمى . وترجم بمعاونة يوحنا الأشبيلى ، أربعة كتب لأبى معشر البلخى . وله كتاب القنص بالباز ، والعلوم عند العرب . وقد طبع هذا بعد سنة ١٤٧٢ م (١) .

ومن أشهر فلاسفة تلك الحقبة ، الذين أفادوا من تراث العرب ، فى الحكمة والفلسفة ، الراهب توما الإكوينى ، المولود عام ١٢٢٥ م ، والمتوفى عام ١٢٧٤ م . وهو من أسرة ألمانية شريفة ، وله حول آراء ابن رشد مواقف كثيرة ، يعرفها المشتغلون بالفلسفة ، وقد طبع من مصنفاته عشرة آلاف صفحة من القطع الكبير ، اعترف فيها صراحةً باقتباسه عن ابن سينا ، والغزالى ، وابن رشد ، وابن ميمون ، وغيرهم من علماء العرب ومفكّريهم (٢) .

وتمثل أعمال هؤلاء الرهبان قيمة كبرى فى تاريخ العلوم ، حيث إن بعض ما ترجموه عن العرب فى الفلسفة والطب والرياضيات والفلك ، قد ضاعت أصوله العربية ، وسلمت ترجماته اللاتينية (٣) .

وقبل أن أطوى تلك الكلمة الموجزة عن طلائع الاستشراق ، لابدَّ من وقفة أمام عالمين عربيّين مسلمين ، كان لهما تأثير ظاهر فى النهضة الأوربية فى العصر الوسيط . أما أولهما فهو : شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد السَّعدى ، الملقَّب أسد البحر . ولد بنجد (٤) ، ولم يعرف تاريخ مولده .

---

(١) المستشرقون ص ١٢٢

(٢) المستشرقون ص ١٣٠

(٣) المرجع السابق ص ١٢٦

(٤) يقول المستشرق الروسى كراتشكوفسكى ، فى التعريف بابن ماجد : « فهو بهذا ينتمى إلى نجد ، وهى حالة نادرة ؛ لأن الملاَّحين كانوا فى عهد ازدهار الحضارة العربية من بين الفرس عادة » . تاريخ الأدب الجغرافى العربى ص ٥٧٣ ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم . نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية . القاهرة ١٩٦٣ م

وينحدر ابن ماجد من صلب أسرة اشتغل أفرادها بقيادة السفن ، كما ذكر المستشرق كراتشكوفسكى .

وابن ماجد من علماء فن الملاحة عند العرب ، ويجمع مؤرخو العلم على أنه أكبر علماء البحار ، والرَّبابنَة ، فى العصر الوسيط . وهو الربّان الذى أرشد قائد الأسطول البرتغالى فاسكودى جاما ، فى رحلته التاريخية ، من مالندى ، عبر مضيق رأس الرجاء الصالح ، على ساحل افريقية الشرقى ، إلى كلكتا ، على الساحل الغربى للهند ، عام ١٤٩٨ م ، بعد فشل رحلات سابقة لفاسكودى جاما . وقد جعلت هذه الرحلة ثروة الهند فى متناول أوربا ، وساعدت على نموّ ثروة البرتغال وإمبراطوريتها ، حيث عرفت طريقها إلى الشرق وخيراته . وقد تمَّ فى هذه اللحظة انتقالُ السيطرة من الشرق إلى الغرب ، كما يرى المستشرق الروسى كراتشكوفسكى (١) ، الذى ذكر بالتفصيل قصة لقاء ابن ماجد بفاسكودى جاما ، وعمله معه .

وقد وضع ابن ماجد كثيراً من المصطلحات البحرية ، ورسم خرائط الملاحة فى بحار الشرق ، واخترع تركيب المغناطيس على البوصلة البحرية ، وذكر منازل القمر ، ورصد النجوم ، والرياح الموسمية ، مع ذكر الصفات المهنية والأخلاقية للربَّان . وقد ضمَّن ذلك كلَّه كتابه : الفوائد فى أصول البحر والقواعد . الذى سلمت مخطوطته التى كتبها ابن ماجد بيده ، وتوجد بباريس برقم (٢٢٩٢) ومنها مصورة بدار الكتب المصرية ، ومعهد المخطوطات بالقاهرة ، وقد نشرها جابرييل فيران ، بباريس عام ١٩٢٤ م .

ومن الغريب والمحزن حقاً ، أن يكون هذا الكشف العلمى الخطير ،

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ص ٥٦٢

الذى تمَّ بإرشاد الملاَّح العربىّ المسلم ابن ماجد ، سبيلاً إلى التنكيل بالمسلمين القاطنين بديار الهند ، حيث أخذ البرتغاليون يقطعون عليهم الطريق أسراً ونهباً ، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين ، وعمّ أذاهم على المسافرين ، فأرسل السلطان مظفر شاه بن محمود شاه ، سلطان كجرات يومئذ (٩١٧ هـ ـــ ٩٣٢ هـ) إلى السلطان الأشرف قانصوه الغورى ، يستعين به على الفرنج (١) . ولعلّ هذا الأذى الذى تعرَّض له المسلمون ، هو الذى جعل ابن ماجد يقول كلمته الشهيرة الواردة فى أحد مؤلفاته التى كتبها فى أواخر أيامه : « آه لو علمت من قبل ماذا يقدرون أن يفعلوا » .

توفى ابن ماجد بعد سنة ٩٠٤ هـ (٢) .

وأمَّا الثانى فهو : أبو على الحسن بن محمد الوزَّان الفاسى ، المولود فى غرناطة ، نحو سنة ٨٨٨ هـ = ١٤٨٣ م ، والمتوفى بتونس ـــ فى أكثر الروايات ـــ نحو سنة ٩٥٧ هـ = ١٥٥٠ م . وبين مولده فى غرناطة ، ووفاته بتونس ، حياةٌ زاخرة بالغرائب والعجائب .

ومن حديثه أنه هاجر طفلاً مع أبيه وبعض أقاربه إلى فاس ، فتلقى العلم بجامع القرويين ، وكان أبوه من وجهاء القوم فى المجتمع المغربى ، وقد انتدب لبعض السفارات والوساطات السياسية ، وكذلك كان عَمُّه ، وقد صحبه فى رحلة دبلوماسية ساقته إلى تمبكتو ، ثم انتدب هو أيضا لبعض السفارات ، فتيسرت له الرحلة إلى أكثر بلدان إفريقية الشمالية والشرق الأوسط ، وحجّ سنة ٩٢١ هـ ، ودخل الآستانة ومصر ، وطاف بلاد

---

(١) المرجع نفسه ص ٥٧١

(٢) راجع الأعلام ٢٠٠/١ ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى صفحات ٥٦٣ ، ٥٦٧ ـــ ٥٨١ ، ٥٨٣ ، ٥٨٥ ، ٥٩١ ، ٥٩٦ ، تقدم العرب فى العلوم والصناعات وأستاذيتهم لأوربّا . تأليف عبد الله بن العباس الجرارى . دار الفكر العربى . القاهرة ١٣٨١ هـ = ١٩٦١ م . الموسوعة العربية الميسرة ص ٩٧

المغرب الأقصى ، وكانت سفاراته لأسرة بنى وَطّاس الحاكمة بفاس ، ثم قام بسفارات مماثلة للشريف محمد السعدى ، القائم بأمر الله ، وحضر حروباً بينه وبين البرتغال . ثم كانت محنته حين أسره قراصنة من الإيطاليين ، من أهل جزيرة صقلية ، وهو فى طريق عودته من المشرق عند جزيرة جربة ، سنة ٩٢٣ هـ ، أو سنة ٩٢٦ هـ ، ثم ساقوه إلى نابلى ، واتجهوا به إلى رومة حيث قدَّموه هدية ، مع زرافة ، إلى البابا ليون العاشر ، ومعه كتبه وأوراق رحلته ، وكانت للبابا عناية بعلوم العرب (١) ، كما أنه عرف باطلاعه على المسألة الشرقية ، حتى إنه بحث مع فرنسوا الأول ، ملك فرنسا ، فى عام ١٥١٥ م مشروع حملة صليبيّة ضد الترك ، إذ كانت تركيا تمثّل فى ذلك الوقت تجمّعا إسلامياً ، أرعب قلوبَ الصليبيين ، وبخاصة بعد دخول السلطان سليم العثمانى مصر ، وبدأت استانبول تجتذب إليها بشكل مطّرد ، أنظار العرب الذين أخذت أوطانهم تدور فى فلك الدولة العثمانية بطريق مباشر ، أو غير مباشر (٢) .

ومن هنا فقد اهتمّ البابا ليون العاشر بذلك الأسير المغربىّ ، ووجد فيه ضالّته المنشودة ، التى تعينه على ما يريده من معرفة أحوال العرب وتاريخهم وحضارتهم ، فأكرمه وأدخله فى خاصته ، وسمَّاه جان ليون ، وكان الحسن الوزّان يكتبها بالعربية : « يوحَنَّى الأسد » . كما جاء بخطه على مخطوطة كتاب قواعد الشعر لثعلب ، نسخة مكتبة الفاتيكان رقم ٣٥٧ .

---

(١) راجع ما تقدم عن تاريخ الطباعة العربية .

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ص ٤٥١ . ويقول ابن العماد الحنبلى ، فى صفة السلطان سليم : إنه من قوم « رفعوا عماد الإسلام ، وأعلوا مناره ، وتواصوا باتباع السنة المطهرة ، وعرفوا للشرع الشريف مقداره » . شذرات الذهب ١٤٣/٨